

دَعِ الْقَلْبَ وَابْدِءِ الْحَيَاةَ

تأليف
دیل کارنہی

تعریف
عبدالمنعم محمد انصاری

مقدمة

الطبعة السادسة عشر

منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما . أقدمت على طبع هذا الكتاب دون أن أملك من نفقات الطبع أكثر من ربع المبلغ المطلوب !! .. وسمها جراءة ، أو ربما اندفاعا وتهورا .. ولكنى كنت منتشيا بسحر هذا الكتاب الذى توسمت انه يسد فى المكتبة العربية الفراغ نفسه الذى سدده فى المكتبة الانجليزية .. مؤمنا بحاجة قراء العربية الى الانتفاع به ، والاهتداء بهديه .. متلهفا على أن أرى اخوة لى فى الوطن العربى يفيدون منه مثل الفائدة التى أفدت ، أو يتلمسون فيه شفاء من داء هذا العصر ، وآفة هذا الاوان : القلق .

ومن ثم لم ألق بالا الى عواقب هذه الجراءة .. ولو اننى فعلت لأدركنى هذا التردد ، ولكنى خليقا بأن أحجم عن تنفيذ هدفى الى أجل لا يعلم الا الله مداه !

على أننى ما أسرع ما استكشفت أن جراتى لم تكن نسيج وحدها .. فقد صادفت جراءة تزيد عليها اضعافا مضاعفة . ممثلة فى أخى الاستاذ المرحوم محمد نجيب الخانجى ، صاحب مكتبة الخانجى ، وناشر هذا الكتاب ! .

وسرنى وملأنى زهوا وفخرا انه ، بدوره ، توسم فى الكتاب ماتوسمت وآمن بجذواه كما آمنت ، واستشف من ورائه النفع والفائدة كما استشففت ... فكان أن حمل عبء نشره غير محجم ولا متردد .

كان ذلك منذ أكثر من خمس وعشرون عاما - حين صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب .. وبعد أن نفذت تلك الطبعة فى أشهر معدودات ، لم يبق للتردد محل فى قلبينا : قلب أخى نجيب وقلبى .. بل حلت محل هذا التردد ، الرغبة الصادقة فى توفير الكتاب فى

الاسواق العربية على الدوام ، بحيث لا يفتقده احد ، فيعز عليه .

وتمشيا مع هذه الرغبة صدرت الطبعات الثانية والثالثة والرابعة وهذه هي الطبعة السادسة عشر أرفها الى القراء ، وقلبي مغمم بالسرور ولساني ناطق بالشكر والامتنان ، ونفسي مملوءة بالسعادة . . سعادة من وسعه أن يحقق شيئا من أجل اشاعة السعادة بين الآخرين .

على أن الفضل ينبغي ان ينسب لذويه . . وصاحب الفضل الاكبر في هذه الطبعات المتوالية ، وهذا الثوب التشيب الذي يتحلى به الكتاب ، للناشر الجريء الاستاذ نجيب الخانجي .

عبد المنعم الزياتي

لمحات من حياة ديل « كارنيجى »

حين بدأ « ديل كارنيجى » — مؤلف هذا الكتاب — يعنى شسئنا من أمر الحياة ، ألفى نفسه يعيش فى احدى القرى المنتشرة بولاية « ميسورى » بالولايات المتحدة الامريكية . . تلك القرى التى يحيا أهلها بعيدين نوعا ما عن أسباب الحضارة والعمران ، عاكفين سحابة نهارهم فى فلاحة أراضيهم ، حتى اذا عتم المساء ، أووا الى دورهم البسيطة ، يمسحون عرقهم المتصبب ، ويريحون أجسادهم من النصب المتصل .

والنفت الى أبيه وأمه ، فألفاهما قرويين ، ساذجين ، يخيم عليهما الجهل ، ويحيط بهما الفقر ، وقد اعتمدا فى كسب عيشهما ، وتنشئة ولدهما على التربة التى يملكانها ، ويحصران فيها آماليهما كلها .
وفى عذا المحيط صادف كارنيجى عقبته الاولى فى طريقه الى الحياة ، هى الحياء ! ولم يدركه ان كان حياؤه هذا انطبعا أم تطبعا ، ولكن الذى أدركه ان هذا الحياء حال دونه ودون الانطلاق على سجينته ، كما يفعل انداده .

وازداد حياؤه وضوحا حين احتوته المدرسة اول مرة . فقد احس غضاضة فى أن يسمى الى المدرسة كل صباح ، ويؤوب منها كل مساء ، ممتطيا ظهر دابة من دواب أبيه ، على حين كان أقرانه الذين نأت بهم الديار عن المدرسة — مثله — يقيمون فى المدرسة طوال الموسم الدراسى ، موفرين بذلك عناء الغدو والرواح ، مظهرين بذلك ، ضمنا ، اقتدار ذويهم على الانفاق عليهم عن سعة .

هنالك احس كارنيجى بالنقص ، واحس أن أقرانه قد لمسوا فيه هذا النقص . . لسوه فى جيئته الى المدرسة وذهابه عنها على ظهر الدابة . . ولسوه فى ثيابه القديمة المغبرة ، ولسوه فى هزاله ، وضومره ، وشحوب وجهه الذى ينطق ببؤسه وعوزه .

ولما كان الاحساس بالنقص مقترنا دائما بالرغبة الملحة فى

التفوق والظهور ، ولما كان كارنيجي يأنس في بنيته الضعف ، وفي نفسه قلة الجلد والاحتمال ، فانه لم يستطع أن يتخذ ميدان الرياضة البدنية سبيلا الى تفوقه وظهوره ، ولم يلق أمامه ، من أوجه النشاط المدرسي ، سوى « فريق المناظرة » فانضم اليه عسى أن يصبح له في رأى زملائه شأن مذكور .

وحفزته لهفته الى أن يرضى كبرياء نفسه ، على اجادة الالتقاء حتى صار كارنيجي على المنبر وجال ، وشفع حصافة الفكرة بقوة الحجة ، وقرن رصافة الاسلوب بوضوح النبرة ، وجلاء الصوت ، فعقدت له الغلبة ، وحاز بطولة المدرسة في « المناظرة والخطابة العامة » .

ولشد ماكانت دهشة كارنيجي ، بعد أن حاز هذا النصر المؤزر ، إذ لمس مدى التغيير الذى طرأ على سلوك زملائه نحوه ، ومعاملتهم له . فأصبح الذى أزور عنه أئفة واستكبارا كأنه ولى حميم ، وأصبح الذى شمخ بانفه عليه يتملقه ويتقرب اليه ، وأصبحت الفتيات اللاتي أعرضن عنه لريثاة ثيابه وزراية هيئته ، يخطبن وده لزلاقة لسانه وقوة حجته .

ولقد شفى هذا التحول نفس كارنيجي وأبرا بعض سقمها ، ثم لم ينس في مراحل حياته المختلفة ، أن نهوضه على قدميه أمام حشد من الناس ، والقاء ما يجول بذهنه من خواطر وآراء ، بأسلوب راضح مبين ، هو العامل الذى أنقذه من حيائه ، وعوضه عن نقصه وأحيا موات آماله .

وظل كارنيجي يتابع دراسته ، ويتقلب في مراحلها ، حتى اذا أتم تعليمه في « كلية وارينسبرج » كف زمنا عن متابعة التحصيل ، وراح يحاول كسب عيشه ، فارتحل الى ولاية « نبراسكا » ، واشتغل أول الامر وسيطا لاحدى مدارس المراسلات ، وبذل

مجهودا كبيرا في اقتناع عملائه بالالتحاق بهذه المدرسة ، والاشتراك في برامجها ، ولكنه لم يصب توفيقا يذكر ، اذ كان كل اهالى « نبراسكا » من المزارعين ، الزاهدين في استزادة معلوماتهم عن الكيمياء ، او الهندسة او المحاسبة .

وفي عام ١٩٠٨ ، وكارنيجى يومئذ شاب في العشرين من عمره ، تخرى عن عمله الاول ، واشتغل ببيع اللحوم المحفوظة ، لحساب احدى شركات التعبئة . وقد نفث كارنيجى في عمله الجديد حماسه كلها ، وحشد له جهوده ونشاطه ، فصادف نجاحا كبيرا ، مما حدا بالشركة الى تعيينه مديرا لاحد فروعها ، ولم ينقض على التحاقه بها سوى عامين !

تلك كانت لحظة فاصلة في حياة كارنيجى ! فقد ازدهاه هذا الظفر المبين وطفت عليه حماسة جارفة ، ودب فيه نشاط شامل ، حتى انه استقال من وظيفته ، وشد رحاله الى « نيويورك » بىغى ظفرا اكبر ، وكسبا اعظم .

ولم يفتأ كارنيجى ، على مر هذه التجارب جميعا ، يذكر نجاحه الاول في الخطابة والمناظرة . فلما كان في « نيويورك » التحق «بالاكاديمية الامريكية لفنون التمثيل» مؤملا أن تزدهر فيها موهبته في الالقاء ، والخطابة العامة .

وقد عهد اليه ، حينذاك ، في تمثيل دور « الدكتور هاوتلى » في مسرحية تدعى « بوللى فتاة السيرك » Polly of the Circus

وقضى كارنيجى في « الاكاديمية » تسعة أشهر ، حاول خلالها أن يكسب عيشه ، الى جانب متابعة الدراسة ، من بيع الحقائق الجلدية لحساب احدى الشركات التى تنتجها ، فلما انقضت تلك الأشهر التسعة ، ترك «الأكاديمية» سأمًا متبرما ، وحاول أن يقنع زميلا له ، كان يشاطره الغرفة التى كان يسكنها كما يشاركة الدراسة في «الأكاديمية» ، بأن يترك الدراسة بدوره ، وقال له:

« لا أحسب أنك ستصبح شيئا مذكورا إذا داومت على هذه الدراسة » . ولم يكن زميله هذا سوى « هوارد لندساي » الكاتب الروائي ، الذي أخرجت له السينما أخيرا رواية بعنوان « العيش مع أبى » Life With Father : كما لقيت مسرحيته « العيش مع أمى » Life With Mother اعجابا باهرا حين مثلت على مسرح « برودواى » .

وما زال كارنيجى الى اليوم ، يذكر هذه العبارة التى قالها لصديقه « لندساي » باعتبارها أول محاولة من جانبه « للتأثير » فى شخص آخر .

واعقب انصراف كارنيجى عن دراسة الالتقاء والتمثيل ، زمن اشتغل فيه وسيطا لبيع سيارات النقل ، ولكنه لم يوفق فى هذا العمل ، ولم يجد فيه ضالته المنشودة ، كما لم يجد فيه اتساقا مع آماله فى الحياة ، فعمد مرة أخرى الى استغلال الموهبة التى أودعتها الطبيعة فيه ، وأعنى بها تفوقه فى الالتقاء والخطابة ، فالتحق بمدارس « جمعية الشبان المسيحية بنيويورك » مدرسا لفن « الخطابة العامة » .

ولقد كان اشتغاله بتدريس هذا الفن الاثير لديه . المحبب اليه ، حجر الأساس فى تكوين شخصيته التى عرف بها منذ عام ١٩١٢ — وهو العام الذى اشتغل فيه بتدريس الخطابة حتى اليوم — شخصيته كرجل له رسالة ، ويهدف الى غاية محدودة واضحة المعالم — فان التجارب التى مر بها منذ استهل حياته طالبا صغيرا ، قد أقتنته بأن الرجل الذى يسعه أن يقف فى حشد من الناس خطيبا ، مدليا برأيه فى غير مداراة ولا مواربة ، يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة ، وأن يحقق آماله . ويوطد دعائم سعادته ونجاحه ، بل يسعه ، فوق هذا : أن يقهر الخوف . والقلق ، والحياء ، والاحساس بالنقص . وأن يصير انسانا متكامل الشخصية ، نابه الذكر .

واذ رأى كارنيجى مدى نجاح برامجه فى الخطابة : ومدى

قائراً طلبته بها ، بل مدى الفلاح الذى يصادفونه ، والسعادة التى يحسونها ، حينما يطبقون المبادئ التى يلتقنهم اياها ، أنشأ لنفسه معهداً خاصاً فى مدينة «نيويورك» سماه «معهد كارنيجى للخطابة المؤثرة والعلاقات الانسانية» The Dale Caronegie Institutet «
of Effective Speaking and Human Relations.

وفتحه لكل شاب ، ورجل ، وكهل ، يبغي الاستزادة من نجاحه وسعادته عن طريق تحسين معاملته للناس ، والمقدرة على التأثير فيهم .

وقد لقيت برامج معهده — وما زالت تلقى نجاحاً كبيراً ، واقبالاً عظيماً . بل ان المصالح الحكومية ، والشركات الكبرى ، واستديوهات هوليوود ، قد اعترفت بفضل هذه البرامج ، فأصبحت توفد البعث من موظفيها الى معهد كارنيجى ، عسى ان يتشبعوا بمبادئه ، فيزداد إنتاج هذه المصالح والشركات ، وهصيب ما تصبوا اليه من نجاح .

ثم سرعان ما أصبح لمعهد «كارنيجى» فروع كثيرة أربى عددها على ثلاثمائة فرع ، فى مدن شتى بلغ تعدادها مائة وثمانى وستين مدينة فى أمريكا ، وكندا ، وجزر هاواى ، والنرويج .

ويقدر عدد الطلبة الذين يلتحقون بفصول معهد «كارنيجى» سنوياً بنحو خمسة عشر الف طالب ، يتقاطرون ، لا من ولايات أمريكا فحسب ، بل من سائر أنحاء العالم . وليس أدل على اصابة الهدف الذى يرمى الى «معهد كارنيجى» ، من أن ستين فى المائة من الطلبة الذين يلتحقون بفصوله كل سنة ، يزكيهم الطلبة السابقون ، ويوصون بقبولهم !

ويكاد طلبة «معهد كارنيجى» لا يطيقون فراق معيهم ، بل ان كثيرين منهم يعاودون الالتحاق بالمعهد أو أحد فروعه بعد امد قصير من تخرجهم فيه . ورغم أن الاساتذة الذين يعهد اليهم كارنيجى ، فى التدريس بفروع المعهد المختلفة هم غالباً اساتذة

جامعيون مشبعون بالرسالة التي يبشر بها كارنيجي ، فان كثيرين من المتخرجين في المعهد ، يلتبسون أن يعينوا بدورهم اساتذة في فروع المعهد ، حتى يكون لهم من تدريس البرامج التي درسوها ، تدريب متجدد على المبادئ التي تشبعت بها نفوسهم .

ومن طريف ما يذكر عن كارنيجي ، أن زوجته « دوروثي » كانت فيما سبق طالبة بفرع معهده في مدينة « تلسا » بولاية « اوكلاهوما » ، وقد علم كارنيجي فيما بعد أن امها كانت جارية لآل كارنيجي في « ميسوري » قبل أن يولد هو بزمن !

ولا يفتا كارنيجي يصرح دواما ، بأنه رغم تشبعه بالمبادئ التي ينشرها على الناس ، لا يستطيع المثابرة على تطبيق جميعها ، وفي هذا يقول : انه ليس بدعا في الخلق ، وانما هو بشر لا يملك احيانا الا أن يغضب ، أو ينقم ، أو يبغض ، ثم يلتبس بنفسه عذرا ، أن نبي الصين « كونفشيوس » كان يشكو — برغم حكمته وفلسفته — من انه لا يستطيع الاستمسك دائما بالمبادئ والتعاليم التي يبشر بها .

وكثيرا ما يحلو لزوجة كارنيجي أن تداعبه ، اذا رأت منه انسياقا وراء غضبه ، أو تقاعسا عن أخذ الأمور بالحكمة والروية ، فتفكره بأنها انفقت على الدراسة في معهده ستة وسبعين دولارا ، ثم تطالبه برد هذا المبلغ ، لانه — وهو صاحب المبادئ والتعاليم — لا يستطيع أن يثبت جدواها !

وبرغم الشهرة الذائعة ، والثروة الطائلة اللتين يستمتع بهما كارنيجي ، فانه لا يبرح يصرح في تواضع محب ، أنه لم يأت قط بشيء جديد ، وأنه لم يفعل أكثر من أن ذكر الناس بالمبادئ القديمة المعروفة التي جرت على السنة الانبياء والحكماء ، وفي هذا يقول : « مثال ذلك اننى اعلم الناس كيف يكفون عن انطلق . افتدري ما الذي يجنب الناس القلق ؟ العمل بمقتضى مثلين

سائرين يعرفهما الناس حق المعرفة : « لا تعبر جسرا حتى
تصل اليه » و « لاتبك على ما فات » ، فما هو بالله الجديد
في هذا ؟ . . . »

وديل كارنيجى بعد هذا ، فى الستين من عمره ، لطيف
الهيئة ، محكم الھندام ، أشهب الشعر ، خفيف الروح ، محب
للدعابة ، قوام بين الطول والقصر ، والنحافة والبدانة ، جم
التواضع ، ابغض الأشياء اليه ان يحاط بمظاهر الحفاوة والتكريم
وهوايته المفضلة هى العزف على « الأكورديون » فى أوقات
فراغه . وهو برغم ثرائه ، يعيش وزوجته فى بيت متواضع ،
فى « فورست هيلز » بنيويورك .

عبد المنعم محمد الزياى

مقدمة العرب

يقول مؤلف هذا الكتاب عن نفسه انه « اشد المؤلفين الموجودين على قيد الحياة دهشة وعجبا » . ولدهشته هذه قصة طريفة :

فحين أنشأ « ديل كارنيجي » معهده لتعليم البالغين ، وأمر له برامج في الخطابة المؤثرة ، والعلاقات الانسانية . تلفت حوله باحثا عن مرجع يعين طلبته على السير في هذه الدراسة ، فأعياه البحث دون أن يجد بغيته ، ومن ثم عكف على وضع المرجع المطلوب بنفسه ، وسماه « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » How To win Friends and in luenece people . وقد عرض هذا الكتاب للبيع في المكتبات مؤملا أن يباع منه — على احسن تقدير — ثلاثون ألف نسخة ، فاذا بهذا الكتاب يعاد طبعه ستا وخمسين مرة في اثني عشر عاما ، ويزيد بهذا الكتاب ما بيع منه على ثلاثة ملايين نسخة . ويصفه النقاد بأنه « أوسع الكتب الجدية انتشارا في التاريخ ، بعد الحديث النبوي والقرآن الكريم والانجيل » ! .

وتعدى هذا الكتاب حدود أمريكا الى أرجاء العالم قاطبة، فكان له فيها مثل حظه في أمريكا من ذبوع وانتشار ، اذ ترجم الى ست وخمسين لغة ، منها اللغة الامريكية ، ولغة البنجاب ، وبورما ، وقد تشرفت بقديمه لقراء العربية ، منذ نحو خمس وعشرين عاما ، فننذت نسخه في أشهر قلائل ، وما زال الكثيرون يفتقدونه ، فعسى أن تتاح لي فرصة اعادة طبعه في وقت قريب (١) .

(١) لقد بررت بهذا الوعد واصدرت فعلا الطبعة الخامسة عشر وهذه هي السادسة عشر من الكتاب المذكور ، ونسخه متاحة اليوم لكل راغب .

ذلك هو الشق الأول من السبب الذى يعزو اليه كارنيجى دهشته . أما الشق الثانى ، فهو أنه ما برح . منذ نشر كتابه الذى سلف ذكره . يؤكد أنه لم يضمن هذا الكتاب الا الحقائق ، والمبادئ القديمة المعروفة التى تداولها الانبياء ، والحكماء ، والمفكرون على مر العصور ، وكل ما صنعه بهذه الحقائق ، أنه فكر الناس بها ، وأعاد صياغتها فى أسلوب يشحذ الغرائم ، ويستنهض الهمم الى العمل بها ، ثم ضرب الأمثال بأشخاص طبقوها فأفادوا منها أكبر الفائدة .

وأناق كارنيجى من دهشته على حقيقة واقعة جعلها محور رسالته فى الحياة ، تلك هى أن الناس اذا عمدوا الى تطبيق المبادئ الحكيمة المعروفة ، والأمثال السائرة القديمة التى طالما جرت على السنة أجدادهم وجداتهم ، وآبائهم وأمهاتهم ، بل ربما جرت على ألسنتهم ، هم أنفسهم ، فى صغرهم ، ثم بسوها أو تناسوها فى كبرهم ... اذا عمدوا الى تطبيق هذه المبادئ والأمثال ، استحالت حياتهم نعيما مقيما ، واستمتعوا فى حياتهم بالسعادة والفلاح .

ومنذ ذلك الحين ، راح كارنيجى ينشر رسالته هذه ، ويدعو الناس عامة ، وطلبة معهده خاصة ، الى اعتناقها ، اذا شاؤوا ان يعيشوا فى وئام مع أنفسهم ، ومع الناس .

ومنذ وقت ليس ببعيد ، أدرك كارنيجى أنه لا عناء لطلبة معهده ، بل لا عناء لإنسان كائنا من كان - اذا كان يرجو السعادة فى الحياة ، وينشد النجاح فيها - على أن يقهر عدوا له ، يسكن نفسه فيقلل أمنها ، ويسلبها طمانينتها ، ويقوض سلامتها ، ويقف سدا منيعا دونها وأسباب السعادة والصحة والنجاح ... ذلك العدو اللدود هو : القلق .

وتلفت كارنيجى ، مرة أخرى ، لبحث عن كتاب فى كيفية قهر القلق ، يصلح لأن يكون مرجعا لطلبته ، فلم يجد لبغيته أثرا

وكما فعل في المرة الأولى ، فعل في هذه المرة ، فاكب على وضع مرجع في شهر القلق ، وسلخ من عمره قرابة سبع سنوات في البحث عما جرى على السنة الأنبياء ، والحكماء ، والعظماء . من حكم ، ومبادئ ، وأقوال تصلح لأن تكون علاجاً للقلق إذا هي اتخذت طابعا عمليا ، وخرجت من نطاق الأموال الى حيز الأفعال ، ثم عكف على صوغ هذه المبادئ في قالب عملي ، وأسلوب حماسي يستثير العزائم على تطبيقها ، والعمل بمقتضاها ، مستشهدا على فائدتها وجدواها بشخصيات ، منها ما أورد له التاريخ مكانا مرموقا ، ومنها ما لم يفرغ التاريخ بعد من تدوين سيرته .

وكانت ثمرة هذا العناء الطويل ، والمجهود الشاق ، هذا الكتاب الذي أقدم لك ترجمته العربية . وقد سماه المؤلف « كيف تقهر الحياة وتبدأ الحياة How To Stop Worrying and Start Living. — وآثرت أن أسميه « دع القلق وأبدأ الحياة » تمشيا مع خطة مؤلفه في حث قرائه على السعى نحو الهدف المنشود، وشحذ عزائمهم للعمل بما أورده من مبادئ حسيمة ونصائح قيمة .

واسمح لي ، أيها القارئ الكريم ، في هذا الموضع أن أوضح ما ذهب اليه المؤلف ، من أنه لم يجد كتابا واحدا يعالج موضوع القلق . فالواقع أن المؤلفات في علم النفس ، التي ترايد عددها في الآونة الأخيرة زيادة كبيرة ، يكاد لا يخلو مؤلف منها من فصل أو بضعة فصول عن « القلق » . وقد قرأت ، بحكم شغفي بعلم النفس ، وهوايتي له ، طائفة من الكتب التي أخرجت فيه ، قديمها وحديثها ، فالفيت أكثريتها تطرق موضوع «القلق» وتتناوله بالبحث . ولكنها تطرقه من الناحية التي يمتتها كارنيجي — وله العذر — وأعنى بها الناحية النظرية « الأكاديمية » . فهذه الفصول والأبحاث ، في الأغلب ، محاطة بهالة علمية جافة ، محشوة بالاصطلاحات الفنية المعقدة ، التي يحتاج القارئ

لفهمها وتتبعها ، الى دراسة تمهيدية ، في علم النفس ، لا تقل عن اربع سنوات .

واذن ، فحين يقول كارنجي انه لم يجد كتابا واحدا يعالج موضوع القلق ، فهو يقصد انه لم يجد كتابا واحدا يشفى غليل معظم القراء الى الالم بموضوع القلق وطرق علاجه . وانا في هذا اؤيده ، وأعضده ، واقتر بأننى لم اقع قط على كتاب احاط بالقلق في شتى صورته ومظاهره ، وعرض لعلاجه بطرق عملية ميسورة ، كهذا الكتاب الذى بين يديك .

وطالما تساءلت — قبل ان اطلع على كتاب « كيف تكسب الأصدقاء » قائلا : « متى يثوب واحد من المشتغلين بعلم النفس الى رشده . ويفطن — وهو يدرس الخوف ، أو القلق ، أو الحياء ، أو فقدان الثقة بالذات — ان مثل هذه الاحساسات ، وغيرها ، تسيطر على ملايين الناس في هذا العالم ، فيفضل بالنزول الى مستوى هؤلاء الملايين ، ويقدم لهم كتابا مبسطا في هذه الاحساسات ، يتناولها فيه بالشرح المبسط ، ويصف طرق علاجها بأسلوب سهل ، ويبين سبل الخلاص منها ، بضرب الأمثال بمن سبقوا الى الخلاص ؟ ! فهو ان كان يبغى الكسب المادى ، فلاشك ان التأليف للسواد الأعظم من الناس أجدى ماديا من التأليف للخاصة ! وهو ان كان يبغى للنفع الانسانى ، فالرسول الموفد الى الملايين أسمى ، وأعم نفعا من الرسول الموفد الى العشرات أو المئات ، أو حتى الآلاف ! » .

لكنى كهفت عن تساؤلى حين تعرفت الى « ديل كارنجي » من خلال كتاباته . فقد وجدت فيه ضالتي المنشودة ، وعرفت فيه كتابا له رسالة انسانية سامية ، هي حفز الناس على الخلاص من هذه الاحساسات التى تشوب النفس ، فتقعد بها عن الاستمتاع بمباحج الحياة ، والفيتة ، فضلا عن هذا ، المعيا ، حصيفا ، تخر لتخليص النفس الانسانية من شوائبها ايسر السبل ، وأكثرها وضوحا ، وأفضلها تمهيدا .

أما بعد ، فلعل القلق الذى يعالجه هذا الكتاب ، أكثر
الاحساسات الضارة شيوعا . فان تشعب سبل الحياة فى هذا
العصر ، وتعدد المسئوليات ، وتزايد التبعات الملقاة على عاتق
الفرد منا ، لا تعفيه من القلق ، ولا تخليه من الكدر والهـم ،
وتوزع الذهن ، وبلبلة خاطر ، والتوجس من المستقبل — وهى
كلها مرادفات للقلق على اطلاقه — وقد يبدو للوهلة الأولى أن
الاحساس بالقلق ، ينحصر ضرره فى أنه مجرد احساس بالقلق،
ولكنك سوف تجد فى هذا الكتاب كيف فى وسع القلق أن يلزم
اشخاصا ، فراشهم وهم يعانون شتى صنوف الأمراض ، وكيف
استطاع أن يسلب أناسا كل بهجة للحياة ، بل أن يقضى على
أعمالهم ، وموارد أرزاقهم ، وكيف أنه يجر فى أذياله ، حتما ،
غيره من الاحساسات الهدامة كالخوف والبغضاء ، وفقد الثقة
الذات ، وغيرها مما ينأى بالإنسان عن أسباب السعادة .

فهذا الكتاب اذن ، حين يعينك على محو القلق من صحيفة
نفسك ، فانها يعينك ، فى الوقت نفسه ، على اكتساب الصحة،
والسعادة ، والنجاح .

المعرب

كيف كتب هذا الكتاب — ولماذا ؟

قبل خمسة وثلاثين عاما ، كنت واحدا من أتمس الشبان في مدينة نيويورك . كنت أشتغل وسيطا لبيع سيارات النقل ، كسبا للعيش . ولم أكن أدري ما الذى يجبر عجلات سيارة النقل، بل لم أكن أريد أن أدري . كنت أحتقر مهنتى ، واحتقر العيش في غرفة رخيصة الأثاث ، في الشارع الغربى السادس والخمسين ، في غرفة ترتع فيها الصراصير وتمرح . ومازلت أذكر أنه كان لى بضعة أربطة للعنق معلقة على مشجب ، فاذا مددت يدي في الصباح لأتناول واحدا منها تنافرت الصراصير الى كل ناحية ، وكنت أحتقر تناول طعامى في المطاعم الرخيصة القذرة ، التى كانت بدورها مرتعا للصراصير ! .

وقد اعتدت أن أفد على غرفتى المنعزلة كل ليلة ، وأنا أعانى صداعا شديدا . . . صداعا تغذيه الخيبة والتلق ، والمرارة والنقمة ، كنت نائرا لأن الأحلام التى راودتنى أيام دراستى في الكلية قد استحالت الى كابوس مزعج . اكانت تلك حياة ؟ اكانت تلك هى المغامرة المثيرة ، التى طالما تطلعت اليها في لهفة وشوق ؟ اكان ذلك هو كل ما تضره لى الحياة الى الأبد : أن أمارس عملا حقيرا ! وأن أعيش مع الصراصير ! وأتناول طعاما قذرا ، بلا أمل في المستقبل ؟ ! . . . طالما تمنيت أوقات الفراغ لأقطعها بالقراءة ، وبإخراج الكتب التى حلت بإخراجها في أيام دراستى .

ووقع في اعتقادي أنني قد أكسب الشيء الكثير ، ولا أخسر شيئا ، ان أنا تخلّيت عن العمل الذى أحتقره . فلم يكن همى أن أجمع ثروة طائلة ، بل أن أعيش عيشة حافلة . . وفي الحال ، فقد وصلت الى لحظة الفصل التى تواجه معظم الشبان حين يبدأون الحياة . فاتخذت قرارى الحاسم .

ولقد غير هذا القرار مستقبلي كله، وجعل الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية من حياتي ، أعوام سعادة ورغد ، أكثر مما تصورت وقدرت .

وكان القرار الذي اتخذته هو هذا : سأتحلى عن العمل الذى احتقره، ولما كنت قد أمضيت أربع سنوات فى «كلية المعلمين» « وارينسبرج » بولاية « ميسورى » ، استعدادا لأن أكون معلما : فسأكتب عيشتى من تعليم الطلبة البالغين فى المدارس الليلية ، وعندئذ يخلص لى النهار لأمضىه فى مطالعة الكتب ، واعداد المحاضرات ، وكتابة الروايات والقصص القصيرة .. فقد كنت أريد أن « أعيش لأكتب ، وأكتب لأعيش » .

وأية مادة ، ترى ، ينبغى أن أعلمها للبالغين فى المدارس الليلية؟! وتلفت الى الوراق، وأخذت أوازن بين المواد التى تعلمتها فى الكلية ، فتبينت أن البرنامج الذى درستته فى فن الخطابة العامة ، كان أجدى على فى حياتى العملية ، بل فى حياتى عموما، من كل ما درستته من البرامج . ولماذا ؟ لأنه محام ما كنت أعانيه من حياء وجبن ، وضعف ثقة بالنفس ، ووهبى الشجاعة ، والثقة ، والمقدرة ، على معاملة الناس ، كما أنه أوضح لى أن الزعامة منجذبة ، عادة ، الى الرجل الذى يسعه أن ينهض على قدميه ، ويقول ما يجول بذهنه .

وقدمت طلبا للالتحاق بوظيفة مدرس لفن الخطابة العامة، فى برامج اضافية ليلية نظمها كلا من جامعتى كولومبيا ونيويورك، ولكن هاتين الجامعتين اعتذرتا بأنهما تستطيعان المضى فى برامجهما بدون معونتى ! .. واحسست بالخيبة اذ ذاك .. ولكنى الآن أحمد الله على أنهما ردتانى خائبا ، فقد التحقت بعد ذلك بالمدارس الليلية لجمعية الشبان المسيحية ، وقد التزمت بأن اظهر نتائج ملموسة بأسرع ما أستطيع . وياله من تحد واجهته! فهؤلاء البالغون الذين يدرسون فى تلك المدارس لم يأتوا اليها

لأنهم طامعون في درجات علمية ، أو مراكز اجتماعية ، وانما اثرا
لسبب واحد : هو أن يطولوا مشكلاتهم .

كانوا ينشدون القدرة على الوقوف على أقدامهم ، والقضاء
بضع كلمات في اجتماعات متعلقة بأعمالهم . دون أن يفهم عليهم
من فرط الرهبة !

وكان المشتغلون بالبيع منهم ، يطمحون الى مواجهة عمل
صعب المراس ، دون أن يذرعوا الأحياء التي يسكنونها ثلاث
مرات قبل أن يستجمعوا أطراف شجاعتهم ! كانوا يطمحون الى
أن ينجحوا في أعمالهم ، وأن يحصلوا على قدر أوفر من المال
تنعم به أسرتهم .

ولما كانوا يدفعون نفقات تعليمهم بالتقسيط — وفي استطاعتهم
أن يكفوا عن الدفع اذا لم يحصلوا على نتيجة — ولما كنت اتقاضي
نسبة من الأرباح ، لا مرتبا منتظما ، لذلك كله تحتم على أن
أكون عمليا ، اذا أردت أن أعيش .

وأحسست إذ ذاك أنى مغبون نوعا ما ، غير أننى أعلم
الآن أننى كنت أحصل على مران لا يقوم بثمن .. فقد كان على
أن أستحث طلبتى على النجاح ، وأساعدهم على حل مشكلاتهم ،
وأجعل كل درس من دروسى محفزا ، ملهما ، لأرغبهم فى متابعة
الحضور .

كان عملا مثيرا ، وقد أحببته . ولشدة ما دهشت للسرعة
التي أحرز بها هؤلاء الطلبة البالغون الثقة بأنفسهم ، أحرز
معظمهم تقدما مطردا ، وزيادة فى الدخل . ونجحت الدراسة
أكثر مما قدرت ، فلم تمض ثلاثة مواسم دراسية ، حتى قبلت
جمعية الشبان المسيحية — التي رفضت أن تمنحنى خمسة
دولارات فى الليلة بصفة مرتب منتظم — أن تعطينى ثلاثين دولارا
فى الليلة على أساس النسبة المئوية . وكنت أولا أدرس فن
الخطابة العامة فحسب ، ولكنى مع مر السنين ، تبينت أن هؤلاء

الطلبة البالغين في حاجة أيضا الى كسب الأصدقاء والتأثير في الناس . فلما لم أجد كتابا يعالج العلاقات الانسانية ، توليت أنا وضع كتاب من هذا النوع .. وافت الكتاب .

نعم! انه لم يؤلف بالمعنى المفهوم من التأليف ، بل نما وتطور مع تجارب هؤلاء الطلبة البالغين — وقد سميته « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » .

ولما كتبت قد وضعته ليكون مرجعا فحسب ، لطلبتى البالغين ولما كتبت قد كتبت من قبله أربعة كتب لم يسمع بها أحد ، فاننى لم أحظ قط بأن سيياع منه ذلك العدد الضخم الذى بيع .. راعى الآن أكثر المؤلفين الموجودين على قيد الحياة دهشة وعجبا .

ويتتابع السنين على ، أدركت ان ثمة مشكلة أخرى كبرى تواجه طلبتى البالغين ، تلك هى « القلق » .. فغالبيتى طلبتى من المشتغلين بالبيع ، أو السكرتيريين ، أو المهندسين ، أو المحاسبين ... انهم خليط من مختلف الأعمال والمهن ، ومعظمهم يواجهون مشكلات ، ويصادفون عقبات . وبين طلبتى نساء عاملات ، وزوجات ، وهؤلاء بدورهن يواجهن مشكلات . عندئذ أدركت انى في حاجة الى مرجع في كيفية قهر القلق .

ومرة أخرى ، حاولت أن اعثر على مرجع في هذا الموضوع وذهبت الى المكتبة العامة بنيويورك ، يقع أحد فروعها في الشارع الخامس ، والفرع الثانى يقع في الشارع الثانى والأربعين ، ولشدة ما كانت دهشتى حين اكتشفت أن لدى هذه المكتبة اثنين وعشرين كتابا فقط مدرجة تحت عنوان « القلق » ، ولعل من الطريف أن لاحظ أن لدى المكتبة مائة وتسعة وثمانين كتابا مدرجة تحت عنوان « الديدان » (١) ! أى أن عدد الكتب التى تعالج موضوع

(١) كلنا الكلمتين : القلق Worry والديدان (Worms) تبدآن بحرف

(W) مما سهل على المؤلف أن يقع على هذه الملاحظة

الديدان يبلغ نحو تسعة اضعاف عدد تلك التي تعالج موضوع القلق ! . وليس هذا مدهشا ؟ .

ولما كان القلق من اكبر المشكلات التي تواجه الانسانية ، فانك لاشك تحسب ان كل مدرسة عليا ، او كلية في هذه البلاد، تدرس منهاجا في كيفية قهر القلق ، اليس كذلك ؟ ورغم ذلك ، فان كان هناك منهاج واحد في هذا الموضوع يدرس في اية كلية في هذه البلاد ، فاني لم اسمع به مطلقا ! .

وليس عجيبا اذن ان يقول «دافيد سبيرى» في كتابه «كيف تتلق بنجاح» (١) : « انا ننتهى الى طور النضج ، ولنا من قلة الاستعداد لمواجهة التجارب ، مثل ما للديدان من الخبرة ، برقصة الباليه !! » .

وما نتيجة ذلك ؟ النتيجة الواقعة ان ثلث عدد الأسرة في مستشفياتنا جميعها يشغله أشخاص متاعبهم الاصلية اما عصبية او عاطفية .

ولقد قرأت هذه الكتب الاثني والعشرين ، التي تعالج موضوع القلق ، والمصنوفة على احد ارفف المكتبة العامة بنيويورك واشترت فضلا عنها كل ما استطعت العثور عليه من الكتب التي تعالج هذا الموضوع، ومع هذا كله لم اقع على كتاب واحد، يصلح لان يكون مرجعا لطبتي البالغين ، ومن ثم عولت على ان اضع بنفسى كتابا في هذا الموضوع .

واخذت اهيىء نفسى لاجراج هذا الكتاب منذ سبعة اعوام مضت .. وكيف ؟ قرأت ماكتبه الفلاسفة على مر العصور خاصا بالقلق . وقرأت مئات التراجم ابتداء من « كونفشيوس » الى

« تشرشل » .. وذهبت لمقابلة عدد من الشخصيات البارزة في شتى نواحي الحياة ، مثل « جاك دمبسى » ، بطل الملاكمة — والجنرال « عمر برادلى » ، والجنرال « مارك كلارك » ، و « هنري فوردي » ، و « اليانور روزفلت » ، و « دوروثى دبكس » .

ولكن هذا كله لم يكن الا بداية . فقد فعلت ، فضلا عن هذا ، شيئا افضل بكثير من القراءة والمقابلات : اشتغلت خمس سنوات في « معمل » لقهر القلق ! وهذا « المعمل » ، على ما اعتقد ، هو أول معمل ، وهو الوحيد من نوعه ، في العالم أجمع ، أعنى أننى أعطيت طلبتى مجموعة من القواعد في كيفية قهر القلق ، وطلبت اليهم أن يطبقوا تلك القواعد على حياتهم الخاصة ، ثم سألت كلا منهم أن يشرح لزملائه في الفصل ماذا كانت النتيجة ... وكتيجة لهذه التجربة ، اعتقد أننى استمعت الى محاضرات في كيفية قهر القلق . أكثر مما تدر لآى فرد عاش في هذا العالم . هذا فضلا عن القصص الواقعية الكثيرة ، التى تدور حول هذا الموضوع ، والتى وصلتني بالبريد .

فهذا الكتاب اذن لم ينحدر من برج عاجى ، لا ، ولا هو دراسة « اكاديمية » في كيف « يحتمل » أن يقهر القلق . بل انه، على النقيض من ذلك .

فقد توخيت أن يكون هذا الكتاب عمليا ، مؤيدا بالوثائق والأدلة وكيف « استطاع » الآلاف من البالغين «فعلا» أن يتغلبوا على القلق . ويسعنى أن أوكد لك ايها القارىء ، شيئا واحدا ، هو أن هذا الكتاب سهل الهضم ، ميسور القضم تستطيع أن تعمل فيه أسنانك ! ويسعدنى أن أقول لك انك لن تجد في هذا الكتاب قصصا تدور حول « رجل ما » يدعى « جون » أو «سيدة ما » تدعى « ماري » . ففيما عدا حالات نادرة ، يسمى لك هذا الكتاب الأشخاص بأسمائهم ، ويذكر مواطنهم . فهو دامج ، مؤيد بالبراهين .

لقد قال الفيلسوف الفرنسى فاليرى : « العلم طائفة من وصفات ناجحة » . وهذا القول ينطبق على هذا الكتاب ، فهو مجموعة « وصفات مجربة » لتخليص حياتنا من القلق .

ويحسن أن أخبرك أنك لن تجد فى هذا الكتاب شيئا جديداً ولكنك ستجد الشيء الكثير مما يتجاهله الناس . وهذا هو المهم . . . فلا أنت ، ولا أنا ، نحتاج الى شيء جديد يقال . . . فاننا نعلم ما يكفى لأن يجعل حياتنا كاملة من جميع نواحيها . فعلتنا ليست الجهل ، وانما هى التجاهل . ومهمة هذا الكتاب هى تكرار حقائق قديمة معروفة مع تجسيما ، وابرازها ، لتحفزك على تطبيقها .

وبعد — فانك لم تشتر هذا الكتاب لتقرأ كيف كتب ، بل أنك تتطلع الى التنفيذ . وهذا حسن . فلتبدأ القراءة . وأرجو أن تقرأ الصفحات الخمسين الأولى من هذا الكتاب . . . فاذا لم تشعر بعدها أنك أحرزت قوة جديدة للتضاء على القلق ، والاستمتاع بالحياة . . . فطوح بهذا الكتاب فى سلة المهملات . . . فلا خير لك فيه ! .

ديل كارنيجى

الجزء الأول

حقائق أساسية عن القلق ينبغي أن تعرفها

الفصل الأول

عش في حدود يومك

في ربيع عام ١٨٧١ التقط شاب كتابا ، وقرا فيه اثنتين وعشرين كلمة ، كان لها أبعاد الأثر في تكيف مستقبله . كان الشاب طالبا يدرس الطب في « مستشفى مونتريال العام » — بكندا — وحين أوثك على دخول الامتحان النهائي ، ساوره القلق على مستقبله، ولم يدر ماذا يفعل ، ولا كيف يكتسب خبرة، ولا كيف يكسب رزقه فيما لو تخرج . لكنه بفضل هذه الكلمتين الاثنتين والعشرين التي قراها ، أصبح أشهر طبيب في جيله . فهو الذي أسس مدرسة « جونزهويكنز » للطب ، ذات الشهرة العالمية ، وتريع زمنا على كرسى الأستاذية في الطب بجامعة أكسفورد ، وأنعى عليه ملك إنجلترا بلقب « سير » . وحين توفي نشرت سيرة حياته في مجلدين كبيرين من ١٤٦٦ صفحة ، ذلك هو « سير أوسلر » (١) .

وهذه الكلمات الاثنتان والعشرون التي قراها في ربيع ١٨٧١ في كتاب للأديب الإنجليزي الكبير « توماس كارليل » فأعانتته على أن يبدأ حياة جديدة ناجحة لا يشوبها القلق هي « ليس علينا أن

نتطلع الى هدف يلوح لنا باهتا على البعد ، وانما علينا ان ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين « (١) .

وانقضت على تخرج طالب الطب اثنتان وأربعون سنة . وفي ذات يوم من أيام الربيع المشرقة وقف « سير وليم أوسلر » يخاطب طلبة جامعة « بيل » فقال ان رجلا مثله — احتل مقعد الاستاذية في أربع جامعات مختلفة ، ووضع كتابا لقي رواجاً كبيراً — خليق بأن تتوافر له قوة ذهنية فريدة في نوعها ، ولكن الأمر على العكس . فان أخص أصدقائه يعلمون عنه ، أنه «عادي الذكاء » ، « متواضع البديهة » .

فما هو اذن سر نجاحه؟ لقد عزا ذلك الى ما سماه «الحياة في حدود اليوم» . فماذا كان يعنى بذلك ؟ قبل ان يلقي كلمته في طلبة « جامعة بيل » ببضعة أشهر ، عبر الاطلنطى على عابرة محيط ضخمة ، حيث شاهد القبطان يقف فوق برج الباخرة ، ويضغط زرا ، فتجلجل آلات السفينة ، ويحجب جانب منها خلف حاجز حديدى ، ولا يبقى منها الا ما يلزم السفينة في يومها . وقد شرح الدكتور أوسلر ذلك لطلبة جامعة بيل ، ثم أردف شرحه قائلاً : « وكل منكم اروع بنيانا من عابرة المحيط الضخمة ، وهو يقدم على رحلة أطول بكثير من رحلة عابرة المحيط ، فعليكم اذن ان تتعلموا السيطرة على « آلتكم » فلا تبقوا منها الا ما يلزم لرحلة اليوم ، فذلك ادعى الى اتمام الرحلة بسلام . فليتصور كل منكم نفسه واقفاً فوق البرج — كما فعل قبطان السفينة — وليتخيل أنه يضغط زرا ، فيسمع صوت الأبواب الحديدية وهي تغلق على الماضى — الماضى الذى لم يعد له وجود — ثم ليضغط زرا آخر ، فتسدل ستائر حديدية على المستقبل — المستقبل

“Our main business is not to see what lies dimly (١)
at a distance, but to do what lies clearly at hand”
..Thomas Carlyle.

الذى لم يولد بعد — وبذلك يضمن السلامة في يومه هذا . أغلقوا
الأبواب على الماضى . . وأوصدوها دون المستقبل ، وعودوا
أنفسكم العيش في حدود اليوم . »

هل كان الدكتور أوسلر يعنى أنه لا ينبغي لنا أن نستعد
للغد أو نفكر فيه ؟ كلا ! فقد مضى في خطبته تلك فقال « ان أفضل
الطرق للاستعداد للغد ، هى أن نركز كل ذكائننا وحماسنا في
انهاء عمل اليوم على احسن ما يكون . . هذا هو الطريق الوحيد
الذى نستعد به للغد ! . »

وقد نصح الدكتور أوسلر طلبة جامعة بيل أن يبدؤا يومهم
بالدعاء الذى كان يتلوه المسيح «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» وذكرهم
أن هذا الدعاء كان من أجل خبز « اليوم » ، وحسب ! فلا هو
يحتج على الخبز الرديء الذى كان بالأمس ، ولا هو يقول مثلا:
« يا الهى ، لقد عم الجفاف ، ونخشى الا نحصل على خبزنا في
الخيرف القاسم » ، أو « لو أننى يا الهى ، فتدت ونيفنى ،
فكيف أحصل عندئذ على الخبز » ! .

كلا ، ان بهذا الدعاء يطلب خبز اليوم فقط ، فخبز اليوم
هو وحده الذى يمكنك ان تعيش اليوم ! .

ولقد اعترض الكثيرون على قول السيد المسيح : « . . فلا
تهتموا للغد ، لان الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليوم شره »
(متى ٦ : ٣٤) . وقال هؤلاء المعترضون : « كيف لا نفكر في
الغد ، بل ينبغي ان نفكر فيه ، وان نتأهب له . ينبغي ان
نوفر مالا لأوقات الشيخوخة ، وان نعد المشروعات لمستقبل
حياتنا » .

وهذا حق ! نعم يتحتم عليك ان « تفكر » في الغد ، وتعد
العدة له ، ولكن لا يجب ان « تهتم » له . والههم مرادف للتلق !
نفى خلال الحرب الماضيه ، رسم قوادنا الخطط للمستقبل .
ولكنهم لم « يهتموا للمستقبل » فقد قال « الأميرال ايرنستكج »

قائد بحرية الولايات المتحدة : « لقد جهزت أحسن المقاتلين ، بأحدث العتاد الموجود لدينا ، ووجهتهم أحكم توجيه ، وهذا كل ما أستطيعه . فإذا غرقت سفينة ولم يسعنى أن انتشلها . وإذا كان مقدرها لها أن تفرق ولم يسعنى أن أمنعها . فأجدى على أن أشغل وقتى بالتفكير فى مشكلات الغد بدلا من أن أضيعه فى التحسر على الماضى . وفضلا عن هذا ، فلو ائى أخذت فى التحسر على الماضى لما عمرت فى هذه الحياة طويلا . »

وانك لتجد — سواء فى الحرب أو فى السلم — أن الاختلاف الرئيسى بين التفكير المتزن ، والتفكير الأحق ، هو أن التفكير المتزن يعالج الأسباب والنتائج ، ويفضى الى خطة منطقية انشائية ، وأما التفكير الأحق فيفضى الى التوتر والانهار العصبى .

حظيت أخيرا بمقابلة « آرثر هيز سلزبرجر » (Arthur Hays Sulzberger) وهو ناشر جريدة « نيويورك تيمس » إحدى كبريات الصحف فى العالم ، فقال لى : أنه عندما نشبت الحرب العالمية فى أوربا ، ساوره الجزع والاشفاق من المستقبل ، حتى استحال عليه أن ينام ، فكان كثيرا ما يصحو من نومه ليلا ، فيتناول قلما وقرطاسا وينظر الى صورته فى المرآة ، وينقلها على القرطاس ! ولم يكن يعلم شيئا عن فن الرسم ، ولكنه كان يرسم كيفما اتفق ، لكى يبعد القلق عن ذهنه . وذكر لى مستر سلزبرجر أنه لم يستطع مع ذلك أن يطرد القلق ، وأن ينعم بالراحة والسلام ، إلا حين اتخذ له شعارا ، هو هذه الكلمات الشائكة المقتطفة من أحد التراويل الدينية : « خطوة واحدة تكفينى » وهذا هو مطلع الترتيل :

« خذ بيدى أيها الضوء الكريم ، وثبت قدمى ... »

« انى لا أطمع فى الأفق البعيد .. خطوة واحدة تكفينى »

وفى هذا الوقت نفسه ، كان هناك شاب — فى مكان ما من

أوريا — يرتدى البزة العسكرية ، ويقلن مثل هذا الدرس .
ذلك هو « تيد بنجرمينو » من أهالى بلتيمور بولاية ماريانند .
وقد كتب الى « تيد بنجرمينو » يقول : « في ابريل عام
١٩٤٥ اجتاحنى القلق حتى سبب لى داء عضالا فى « القولون »
عانيت منه الألم المرير . ولو أن الحرب لم تنته يوم انتهت ، لكنك
قد أصبت بانهيار تام .

فقد كنت أعمل ضابطا فى لجنة « سجلات القبور » التابعة
لفرقة المشاة الرابعة والتسعين . وكانت مهمتى أن أساهم فى
اعداد سجلات بأسماء الجنود والضباط القتلى والمفتودين ،
والنازلىن بالمستشفيات ، كما كنت أساهم فضلا عن هذا ، فى
استخراج جثث القتلى من الحلفاء والأعداء على السواء ، الذين
دفنوا على وجه العجلة اثناء احتدام المعركة . وكان على أيضا ،
أن أجمع مخلفات هؤلاء القتلى ، لأرسلها الى آبائهم أو ذويهم
المقربين الذين يطون مثل هذه المخلفات محلا كبيرا من نفوسهم .
ومن هنا اعترانى القلق ، خشية أن يوتعننى الارتباك فى خطأ
جسيم . وكنت ، الى هذا ، دائم التساؤل :

« ترى ، أيمكن أن تتاح لى النجاة بعد هذا كله ؟ أيقدر لى أن
أحمل بين ذراعى طفلى الأوحد الذى يبلغ من العمر ستة عشر
شهرا . والذى لم أكن قد رأيته بعد ؟ » كنت قلنا ، مجهدا ، حتى
اننى فقدت من وزنى أربعة وثلاثين رطلا . وأوشك القلق والاجهاد
أن يدفعنا بى الى الجنون . كنت أنظر الى يدى ، فلا أرى غير
عظام يكسوها الجلد ، فيستبد بى الفزع من أن أعود الى وطنى
آدميا محطما ، وأنفجر باكيا كالطفل .. وكنت أنفجر باكيا فى كل
مرة أخلو فيها الى نفسى .. وقد حدث عقب احدى الممارك
الكبرى ، أن انتابتنى نوبة طويلة من البكاء ، كدت أنفقد الأمل خلالها
فى أن أعود شخصا طبيعيا مرة أخرى . وانتهى بى المطاف الى
مستشفى حربى . وهناك وجه الى الطبيب نصيحة غيرت مجرى
حياتى تماما . فبعد أن فحصنى فحصا دقيقا ، أنهى الى بأن مشكلتى

ليست جسمانية ، وإنما هي عقلية .. قال : «اسمع يا تيد .. انى أريدك أن تنظر الى حياتك كأنها ساعة زجاجية كتلك التى استخدمت قديما لتحديد الوقت . أنت تعلم أن هناك آلافا من حبات الرمل توضع فى نصف هذه الساعة الأعلى فتمر ببطء، وفى نظام دقيق من خلال الرقبة الضيقة الى نصفها الأسفل ، فلا أنت ولا أنا نستطيع أن ندفع بأكثر من حبة واحدة الى عنق الساعة دون أن نصيها بخل . وأنت وأنا والناس جميعا كهذه الساعة الزجاجية . فعندما نصحو فى الصباح نجد مئات الأعمال فى انتظارنا ، فاذا لم نصف هذه الأعمال كلا بدوره، وعلى حدة ، فى بطء وانتظام، كما تنزلق حبات الرمل من عنق الساعة الزجاجية ، فاننا نعرض كياننا الجسمانى والعقلى لخطر التحطيم » .. وقد سرت وفقا لهذه الفلسفة منذ ذلك اليوم التاريخى . وقد انقذتنى هذه النصيحة جسمانيا وعقليا أثناء الحرب ، وساعدتنى كثيرا فى عملى بعد انتهاء الحرب ، فقد واجهت من المشكلات المتعلقة بعملى ما يعد بالعشرات . وكلها تتطلب الانجاز فى وقت قصير محدود . وبدلا من أن أسمح لأعصابى بأن تثور ، كنت أتذكر نصيحة الطبيب ، وأردها لنفسى : « حبة واحدة من الرمل فى الوقت الواحد .. عمل واحد فى الوقت الواحد » وما زلت أكرر ذلك حتى أصبحت وفى وسعى أن أنجز أعمالى بمعزل عن القلق الذى يكاد يحطمنى فى ساحة المعركة » .

* * *

من الحقائق المروعة أن نصف عدد الأسرة التى فى مستشفياتنا، يشغله أناس يتقلهم الإرهاق العصبى والعقلى .. أناس ناؤا بعبئهم الثقيل من الماضى المتراكم ، والمستقبل المخيف . لقد حل فى وسع الكثيرين من هؤلاء المرضى أن يذرعوا الآن شوارع المدينة سعداء مرحين ، ناجحين فى حياتهم ، لو أنهم وعوا قول السيد المسيح . « لا تهتموا للغد ! » أو لو أنهم وعوا قول سير وليم أوسلر : « عش فى حدود يومك » .

أنت وأنا نقف للحظة فى ملتقى طريقين أبدين : الماضى الفسيح

الذى ولى بغير رجعة .. والمستقبل الجهول الذى يطارد الزمن،
ويتربص بكل لحظة حاضرة .، ولسنا بمستطيعين العيش ولو
بمقدار جزء من الثانية فى أحد هذين الطريقين الابديين .. فاذا
حاولنا ذلك لم تجدينا المحاولة الا تحطيم اجسامنا وعقولنا . واذن
فدعنا نرض بالعيش فى الحاضر الذى لا يمكن أن نعيش الا فيه ..
دعنا نعش اليوم الى أن يحين وقت النوم . لقد كتب الروائى
الكبير « روبرت لويس ستيفنسون » يقول : « كل امرئ يستطيع أن
يحمل عبئه ، مهما ثقل ، الى أن يرخى الليل سدوله . وكل امرئ
يستطيع أن ينجز عمل يوم واحد مهما صعّب . وكل امرئ يستطيع
أن يعيش قرير العين راضيا ، صبورا ، محبا ، نقيا ، الى أن تغرب
الشمس . وهذا هو كل ما تبغيه منا الحياة فى الحقيقة » .

نعم ، هذا هو كل ما تتطلبه منا الحياة ، ولكن « مسز ا.ك.
شيلدز » ، من اهالى ولاية متشيجان ، تملكها اليأس مرة الى حد
الاشراف على الانتحار ، قبل أن تتعلم كيف تعيش الى أن يحين
وقت النوم ! روت لى مسز شيلدز قصتها فقالت : « فى عام ١٩٣٧
فقدت زوجى ، فانتابنى الحزن الشديد ، فضلا عن الفقر المدقع
الذى وجدت نفسى اكابده . فكتبت الى مخدمى السابق « مستر
ليون روش » صاحب شركة « روش كارلر » فى مدينة كانساس اطلب
عملا واستطعت أن احصل على عملى السابق ، وهو بيع الكتب
الى المدارس الريفية والداخلية « بالعمولة » . وكنت قد بعثت
سيارتى حين انتاب المرض زوجى ، ولكنى استطعت تدبير شئ من
المال دفعته دفعة اولى فى سيارة مستعملة ، وعدت ابيع الكتب
من جديد . وكنت اظن أن العودة الى العمل قد تذهب بعض حزنى،
ولكن خاب فالى .

« وفى ربيع عام ١٩٣٨ ، اقتضانى العمل أن ارتحل الى بلدة
« فرساي » بولاية ميسورى . وهناك استشعرت الوحدة
والاكتئاب ، حتى انى فكرت جديا فى الانتحار .. فقد لاح لى أن
استمرار حياتى على هذا المنوال امر مستحيل . اذ كنت أخشى أن

استيقظ كل يوم لأواجه الحياة التي اظلمت في عهني ، وكنت دائمة القلتي : أخشى الا أستطيع تسديد أمتسلط السيارة أو دفع ايجار الغرفة . وأخشى الا أجد طعاما أقتات به .. وأخشى أن تتدهور صحتي فلا أجد الطبيب . وما معنى من الانتحار الا شينان : تصورى مقدار حزن شقيقتى لموتى ، وعدم توافر ما يكفى من المال لجناساتى ! .

« وفي ذات يوم .. قرأت مقالا انتشلنى من هذه الوحدة ووهبنى القدرة على مواجهة الحياة . ولن أفنا أشكر لهذه الجملة التي قرأتها في ذلك المقال ، وهى : « ليس اليوم الجديد الا حياة جديدة لقوم يعقلون » ! .. وكتبت لفورى هذه الجملة على الآلة الكاتبة ، والصقتها على نافذة سيارتى في مواجهة متقدم القيادة لكى أراها طوال وقت قيادتى للسيارة . لقد علمتنى هذه العبارة أن أعيش كل يوم على حدة ، وأن انسى الأمس ، وألا أفكر فى الغد .

« وقد استطعت أن أتغلب على الخوف من المرض ، والخوف من الحاجة ، وأنا الآن سعيدة ناجحة ، وفضلا عن هذا فأننا أعلم اننى لن أرتد خائفة قلقة مرة أخرى ، مهما واجهنى من مصاعب الحياة ، كما أعلم أنه لا حاجة بى الى الخوف من المستقبل ، ما دمت أعيش كل يوم على حدة ، وما دمت أعلم أن كل يوم جديد انما هو حياة جديدة لقوم يعقلون » .

من تظنه نظم الكلمات التالية :

« ما أسعد الرجل .. ما أسعده وحده ،

« ذلك الذى يسمى اليوم يومه ،

« والذى يقول ، وقد أحس الثقة فى نفسه ،

« يا أيها الغد ، كن ما شئت .

« فقد عشيت اليوم لليوم ، لا غده ولا أمسه » .. ؟

انها تبدو متمشية مع روح العصر الحديث .. أليس كذلك ؟ لكنها كتبت قبل ميلاد المسيح بثلاثين عاما .. كتبها الشعاع الرومانى « هوارس » ! .

ومن أنجع الحقائق التي أعرّفها عن الطبيعة الانسانية ، أننا جميعا ميالون الى نيل الحياة ! أننا يلذ لنا جميعا أن نحلم بروضة مزهرة عبر الأفق ، بدلا من أن ننعّم بالأزهار المتفتحة خارج نوافذها في يومنا هذا ! .

فلماذا كنا من الحق بهذه الدرجة ! .

كتب « ستيفن ليكوك » يقول : « ما أعجب الحياة ! يقول الطفل : عندما أئسب فأصبح غلاما .. ويقول الغلام ، عندما أترعرع فأصبح شابا .. ويقول الشاب : عندما أتزوج .. فإذا تزوج قال : عندما أصبح شيخا متفرغا .. فإذا وأتته الشيخوخة ، تطلع الى المرحلة التي قطعها من عمره ، فإذا هي تلوح كأن ريحا اكتسحتها اكتساحا . اننا لانتعلم ، الا بعد فوات الأوان ، أن قيمة الحياة في أن نحياها ، في أن نحيا كل يوم منها وكل ساعة » .

لقد أوشك « أدوارد إيفانز » من أهالي ديترويت ، أن يقتل نفسه قلقا واكتئابا ، قبل أن يتعلم أن قيمة الحياة في أن يحياها ، في أن يحيا كل يوم منها وكل ساعة » .. نشأ « إيفانز » فقيرا ، معدما ، يكتسب رزقه من بيع الجرائد ، فقد اشتغل كاتباً في محل بقالة ، ثم التحق بوظيفة مساعد لمدير مكتبة ، كل ذلك وهو يعول سبعة أشخاص ، ويكد ليوفر لهم القوت . ورغم أن أجره عن عمله الأخير كان ضئيلا ، فإنه كان يخشى الاستقالة منه ، مخافة أن يتضور هو وعائلته جوعا . وانقضت ثمانية أعوام قبل أن يستجمع « إيفانز » أشراف شجاعته ، ليبدأ عملا مستقلا . وقد بدأ عمله المستقل برأس مال مقترض قدره خمسة وخمسون دولارا . لكنه أصبح يربح عشرين ألف دولار في العام ! ثم حلت به نكبة . فقد أهد صديقا له بمبلغ كبير من المسال فما لبث الصديق أن أفلس ! .. وفي أعقاب هذه الكارثة حلت كارثة أخرى . فقد أفلس ، بدوره ، المصرف الذي يودع فيه « إيفانز » أمواله جميعا . وأصبح إيفانز فإذا هو مفلس لا يملك مليما واحدا ، بل أصبح مدينا أيضا بمبلغ ستة عشر ألف

ريال . ولم تتحمل اعصابه ذلك كله ، قال لى : « لم استطع أن أكل أو أن أنام . وانتابنى المرض . . المرض الذى جره على الملقق ولا شىء غير القلق ، وبينما أنا أسير ذات يوم ، أدركنى الاعياء ، وتهاويت فى عرض الطريق . وحملنى الناس الى بيتى . ولم ألبث حتى تفجر جسمى بثورا مؤلمة ، حتى أن مجرد الرقاد فى الفراش أصبح محنة شديدة . وكان هزالى يزداد يوما عن يوم ، وأخيرا أنهى الى الطبيب أننى لن أمكث حيا أكثر من أسبوعين ! وصدقت ذلك ، وكتبت وصيتى ، ولبثت فى الفراش أنتظر النهاية المحتومة . لم يعد يجدى اذ ذاك الخوف ولا القلق ، ومن ثم امتثلت للأقدار وأسترخيت ، ورحت فى نوم عميق . ولم يكن مجموع ما قطعته فى النوم خلال الاسابيع الماضية يزيد على ساعتين ! ولكنى وقد أوشكت مشكلتى أن تحل بالموت ، استفرقت فى النوم كالطفل ، وبدأت المتاعب التى كنت أحسها تختفى وعادت الى شهيتى ، وازداد وزنى مرة أخرى ، لفرط دهشتى ! .

ومرت أسابيع قليلة ، فاستطعت أن أمشى متوكئا على عصائين ، ثم مرت ستة أسابيع فاستطعت أن أعود مرة أخرى الى العمل ! وكنت قبل مرضى أربح عشرين ألف ريال فى السنة ، ولكنى اليوم قانع بعمل يدر على ثلاثين ريال فى الاسبوع . ولقد وعيت الدرس الآن . فمحوت القلق من نفسى . وركزت كل وقتى ، ونشاطى ، وحماستى فى عملى الجديد » .

وقد تقدم « ايفانز » كثيرا فى عمله المتواضع ذاك ، فلم تمض سنوات قلائل حتى أصبح مديرا للشركة التى يعمل بها . . شركة « ايفانز للانتاج » ! وعندما توفى ايفانز عام ١٩٤٥ ، كان يعد رجلا من أشد رجال الاعمال فى الولايات المتحدة نجاحا . واذا قدر لك أن تطير يوما فوق جرينلاند ، فقد تهبط فى « مطار ايفانز » المطار الذى أطلق عليه اسمه تخليدا لذكراه .

واليك مغزى هذه القصة : لم يكن ادوارد ايفانز ليحرز النجاح

الذى احرزه فى ميدان الاعمال ، وفى الحياة عموما ، لو لم يقدر له أن يعيش فى حدود يومه ، وأن يمحو القلق على الماضى والمستقبل .

منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، قال الفيلسوف الاغريقى « هرقليط » : كل شىء يتغير ، الا قانون التغير انكم لا تهبطون نهرا بعينه مرتين .. فالنهر يتغير كل ثانية ، وكذلك الرجل الذى يهبطه فالحياة فى تغير لا ينقطع ، والشىء الاكيد فى هذه الحياة هو اللحظة التى نعيش فيها ، فلماذا نشوه جمال لحظتنا هذه ويومنا هذا ، بحمل هموم المستقبل الذى يخضع لقانون التغير؟» .

وفى هذا المعنى نفسه وضع الرومان الاقدمون مثلا من كلمتين (Caros Diem) « استمتع باليوم » او « استمسك باليوم » . نعم ! استميك باليوم ، واستخلص منه أكثر ما تستطيع .

وهذه بعينها هى فلسفة لويل توماس (Lowell Thomas) فى الحياة . وقد أمضيت اخيرا عطلة نهاية الاسبوع فى مزرعته ، فلاحظت أنه استخرج هذه الكلمات من « مزمور ١١٨ عدد ٢٤ » ووضعها داخل اطار علقه على جدران استوديو الاذاعة الخاص به لى يراها فى معظم الاوقات .

« هذا هو اليوم الذى صنعه الرب » .

« نبتهج ونفرح فيه » .

وكان « جون راسكن » (John Ruskin) يضع على مكتبه قطعة من الحجر ، منقوش عليها كلمة واحدة هى : « اليوم ! » وانا لا اضع قطعة من الحجر على مكتبى ، وانا الصق على مرأتى قصاصة ورق مكتوبة عليها هذه القصيدة ، لى اطالعها كل صباح .. قصيدة كان سير وليم اوسلر يحتفظ بها على مكتبه ، وهى من نظم الكاتب الهندى الشهير « كاليداسا » .

سيرة الى الفجر !

أنظر الى هذا اليوم !
انه الحياة . جوهر الحياة .
في ساعاته القليلة .
تكمن حقيقة وجودك :
معجزة النمو .
ومجد العمل .
وروعة الانتاج .
فالأمس ليس الا حلما .
والغد ليس الا خيالا .
أما اليوم اذا عشناه كما ينبغي ،
فانه يجعل من الامس حلما سعيدا ،
ويجعل من الغد خيالا حافلا بالامل .
هكذا يجب أن نحيا الفجر !

واذن فأول ما ينبغي أن تعرفه عن القلق هو هذا :

إذا أردت أن تطرد القلق . من حياتك ، فافعل كما فعل سير
وليم أوسلر .

١ - أغلق الأبواب على الماضي والمستقبل وعش في حنود
يومك :

لماذا لا تسأل نفسك هذه الاسئلة ، وتدون اجابتك عنها هنا .

(أ) هل أميل الى نبذ الحاضر لأفكر في المستقبل ؟ أترانى أحلم
بروضة سحرية مزهرة عبر الافق ، بدلا من أن أنعم بالزهور
المتفتحة من حولى ؟ .

(ب) هل أجعل حياة اليوم مريرة بتحسرى على ما حدث في
الماضى الذى ولى ولم يعد له كيان ؟ .

(ج) هل استيقظ كل صباح مغرماً بأن « أستمسك باليوم »
لكي استخلص منه أقصى ما أستطيع ؟ .

(د) أترانى أحصل من الحياة على أكثر مما أحصل عليه الآن،
لو أنني عشت في حدود يومي « ؟ .

(هـ) متى أبدأ بتطبيق هذا المبدأ ؟ الاسبوع القادم ؟ غدا ؟
اليوم ؟ .

الفصل الثاني

وصفة سحرية لتبديد القلق

اتريد « وصفة » ناجحة ، حاسمة ، اكيدة المفعول ، لتبند بها القلق ؟ وصفة تستطيع تطبيقها في التو واللحظة ، قبل أن تتماذى في قراءة هذا الكتاب ؟

اذن دعنى احدثك عن الطريقة التى ابتكرها « ويليس كارير » المهندس النابغة ، الذى أسس صناعة آلات تكييف الهواء ، والرئيس الحالى لشركة « كارير » الشهيرة فى سيراكيوز - نيويورك . انها من احسن الطرق التى سمعت بها لعلاج القلق ، وقد استقيتها من مستر كارير نفسه ، عندما كنا نتناول الغذاء ذات يوم معا فى نادى المهندسين بنيويورك .

قال لى مستر كارير : « عندما كنت شابا ، اشتغلت فى « شركة فورج » بمدينة « بفلو » بولاية نيويورك . وعهد الى ذات يوم ابتكار آلة لتنقية الغاز فى مصنع تابع لشركة « بتسبرج للاوانى الزجاجية » فى مدينة « كريستال » بولاية ميسورى ، وهو مصنع تكلف انشاؤه مليون ريال . وكانت طريقة تنقية الغاز حديثة العهد فى ذلك الوقت ولم تجرب من قبل الا مرة واحدة . وصادفتنى فى اثناء عملى بمدينة كريستال صعاب لم اعمل لها حسابا ، فان الطريقة التى ابتكرتها لتنقية الغاز لم تأت كما أرجو ، ولم تف بما قطعته الشركة التى اعمل بها لمصنع الاوانى من ضمان .

وذهلت للفشل الذى منيت به ، واحسست كأنها ضربنى شخص على أم راسى ، وشعرت باضطراب فى معدتى وامعائى وانتابنى قلق حال بينى وبين النوم .

« واخيرا هدانى تفكيرى الى أن القلق لن يجدينى شيئا ،

فأخذت أفكر في طريقة أحل بها مشكلتي دون القلق ، واهتديت إلى طريقة كان لها أروع النتائج ، ومازلت أستخدمها منذ سبعة وكلائين عاما ، وأنها لبسيطة ميسورة ، يستطيع كل إنسان استخدامها . وهي تتكون من ثلاث خطوات .

« الخطوة الأولى : أخذت أحل الموقف بأمانة تامة ، وقدرت أسوأ ما يمكن أن يحدث ، كنتيجة لفشلي . فمن المؤكد أنني لن أسجن ولن أقتل . . ولكن هناك احتمال بأن أفقد وظيفتي كما أن هناك احتمالا بأن تخسر شركتي مبلغ عشرين ألف ريال أنفقتها على الآلات التي عهد إلى ابتكارها ، وهذا هو أسوأ الاحتمالات .

« الخطوة الثانية : فلما فرغت من تصور أسوأ ما عساه أن يحدث وطدت نفسي على قبوله إذا لزم الأمر ، وقلت لنفسي سيكون هذا الفشل نقطة سوداء في سجلي ، وقد يتسبب في أن أفقد وظيفتي ، فإذا فصلت ، فإني أستطيع الحصول على وظيفة أخرى . . أما رؤسائي ، فإنهم يعلمون أننا نجرب ابتكارا جديدا لتفقيه الغاز ، فإذا كانت التجربة قد كلفتهم عشرين ألف ريال ، ففى وسعهم احتمال فقد هذا المبلغ ، وفي استطاعتهم إضافته إلى الميزانية المخصصة للأبحاث .

« فلما انتهيت من تصور أسوأ ما عساه أن يحدث ، وطدت العزم على قبوله إذا لزم الأمر ، حدث شيء أدهشنى . فقد وسعنى الاسترخاء ، وشعرت بالطمأنينة ، التي افتقدتها منذ أيام ، تتسلل إلى نفسى .

« الخطوة الثالثة : وعقب ذلك ، كرست وقتى محاولا انقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا الفشل ، الذى أعددت نفسى لمواجهة .

« فأخذت أفكر فى الوسائل التى يمكن أن أقتل بها من الخسارة التى تقدر بعشرين ألف ريال . وأجريت عدة اختبارات ، فتبين لى أننا إذا أنفقنا خمسة آلاف ريال أخرى على استحضر

معدات اضافية ، فقد تحل المشكلة ، ولا يبوء عملنا بالفشل .
وقد حدث هذا فعلا . وكسبت شركتنا خمسة عشر الف ريال
بدلا من ان تخسر عشرين الفا !!

« وكان من الجائز ان لا يحدث هذا ، لو اننى استمررت في
القلق . فان من أسوأ مميزات القلق ، انه يبدد القدرة على
التركيز الذهني . فنحن عندما نقلق ، نتشتت اذهاننا ، ونفقد
كل قدرة على البت او اتخاذ قرار حاسم ، لكننا عندما نعد
انفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات ، ونعد انفسنا ذهنيا
لمواجهته ، فاننا بذلك نضع انفسنا في موقف يسعنا فيه ان نركز
اذهاننا في صميم المشكلة .

« هذه التجربة التي ذكرتها ، حدثت منذ عدة سنوات مضت
وقد اخذت في تطبيق هذه الطريقة التي ابتدعتها لمواجهة القلق
منذ ذلك الوقت ، وكتيجة لذلك اكاد اكون قد خلصت حياتي من
القلق اطلاقا » .

فلماذا كانت طريقة « ويليس كاريير » عملية شديدة الفعالية
من الواجهة السيكلوجية ؟ لانها تخلصنا من الغيوم الكثيفة التي
نتخبط فيها اذا اعى القلق ابصارنا ، وتثبت اقدامنا على ارض
مأمونة نعرف فيها مواطىء اقدامنا، والا . . اذا لم نحس بالارض
الثابتة من تحتنا ، فكيف نأمل في ان نفكر تفكيرا صحيحا ؟

منذ ثمانية وثلاثين عاما ، مات وليم جيمس اللقب بابى علم
النفس التطبيقي . ولو انه كان حيا يرزق اليوم ، وسمع بهذه
الطريقة التي ابتكرها « كاريير » لمواجهة أسوأ الفروض ، لآقرها
من صميم فؤاده . كيف عرفت هذا ؟ لانه قال ذات مرة : « اعنوا
انفسكم لتقبل الحقيقة ، فان التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى
في التغلب على المصاعب » . وقد عبر عن هذه الفكرة أيضا
« لين يرتانج » في كتابه الشهر « أهمية العيش » (١) .

قال هذا الفيلسوف الصينى : « ان طمانينة الذهن لا تأتى الا مع التسليم بأسوأ الفروض . ومرجع ذلك ، من الوجبة السيكولوجية ، الى ان هذا التسليم يحرر النشاط من قيوده » .

هذا هو الواقع بالضبط ! فان التسليم بأسوأ الفروض يحرر النشاط من قيوده . فمتى سلمنا بأسوأ الفروض لم يبق لنا شيء نخسره وان بقى ما نكسبه ! .

ومع ذلك فان ملايينا من الناس قد حطموا حياتهم فى صورة غضب ، لأنهم رفضوا ان يسلموا بأسوأ الفروض . ورفضوا ان ينقذوا منه ما يمكن انقاذه ، وبدلا من ان يحاولوا بناء آمانهم من جديد ، خاضوا معركة مريرة مع « الماضى » وامتثلوا للقلق الذى لا طائل وراءه .

اتريد ان تعرف كيف استطاع شخص آخر ان يطبق طريقة « كارير » على مشكلته الخاصة ؟ هاك مثلا ، احد المشتغلين بالزيت فى نيويورك ، وهو من طلبتى . واليك قصته : لقد كنت ضحية ابتزاز مالى بالتهديد ، الأمر الذى لم أكن أو من بحدوثه خارج الشاشة البيضاء ! فقد كان لشركة الزيت التى آراسها ، عدد من سيارات نقل الزيت ، وعدد من السائقين . وكانت كمية الزيت التى نسلها لكل عميل من عملائنا محدودة معلومة . وقد علمت فيما بعد ان بعض السائقين لم يكونوا يسلمون كميات الزيت بأكملها لأصحابها ، بل ينقصون منها كميات يبيعونها لحسابهم الخاص .

« وكانت المرة الأولى التى وقفت فيها على هذه المعاملة غير القانونية ، حين زارنى رجل ذات يوم ، وزعم أنه مفتش حكومى ، ثم طلب منى مالا نظير سكوته ، فقد كان يحرز أدلة قاطعة على ما يفعله سائقو الشركة ، وهدد بتسليم هذه الأدلة الى مكتب النائب العام اذا لم امنحه ما يسكته ! .

« وكنت أعلم انه لاحاجة بي — أنا شخصا — الى القلق— ولكنى كنت أعلم أيضا أن القانون يحمل الشركات مسؤولية أعمال موظفيها ، وأكثر من هذا ، كنت أعلم أن المسألة اذا تناهت الى ساحة القضاء ، فان الدعاية التي ستثيرها الصحف ستودي بعملى ، وكنت فخورا بعملى ، فقد أسسه أبى منذ أربع وعشرين سنة .

« ومن ثم انتابنى القلق ، حتى استحلكت مريضا ، لم أتناول طعاما ، ولم أذق للنوم طعما مدة ثلاثة أيام بلياليها . كنت ادور بذهنى كالمخبول فى دوائر لا منفذ لها : هل أدفع المال — خمسة آلاف ريال — ؟ أم أطرد الرجل قائلا له : ان يفعل ما يشاء ، ثم حدث ، فى مساء يوم الاحد ، أن التقطت الكتيب المعنون « كيف تقهر القلق » الذى كان يدرس لنا فى فصول كارنيجى ، وأخذت اطالع فى الكتيب الى أن استوقفتنى ما قاله « ويليس كارير » : « واجه أسوأ الاحتمالات » واذ ذاك سألت نفسى : « ما هو أسوأ ما يمكن حدوثه لى اذا رفضت أن أدفع المال للرجل ، فرجع مستنداته الى النائب العام ؟ » وكان الجواب هو هذا : « خراب يبنى به عملى .. هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث ، اننى لن أسجن ، أو أقتل . كل ما هنالك أن الدعاية السيئة ستودي بشركتى » .

« وعندئذ قلت لنفسى : « حسنا ، فلنفرض أن العمل انهيار — وسلمت بهذا فرضا — فما الذى يحدث بعد هذا ؟ » وأجبت : « قد أسعى للالتحاق بعمل . وليس هذا بعسير ، فاننى أعلم الشئ الكثير عن الزيت ، وهناك أكثر من شركة يسرها أن التحق بخدمتها » .

« وأحسست بعد ذلك بشئ من الارتياح . وبدأت ثورة عواطفى تخمد ، ولفرط دهشتى استطعت أن أفكر .

« فقد أصبح ذهنى من الصفاء بحيث وسعنى أو أواجه

الخطوة التالية وهى : محاولة انقاذ ما يكمن انقاذه . واذ جعلت افكر فى الحلول الممكنة ، بدت لى زاوية جديدة فى الموضوع . فلو انى شرحت لمحامى الخاص الموقف بحذافيره ، فقد اجد لديه مخرجا .. وقد يبدو من السخف اننى لم افكر فى مثل هذا من قبل ، ولكنى لم اكن افكر من قبل بل كنت قلقا . وعزمت على أن اتوجه الى محامى فى صباح اليوم التالى ، وذهبت الى الفرائش فى تلك الليلة ، ورحت فى نوم عميق .

« فكيف انتهت المشكلة ؟ لقد نصحنى المحامى ، فى اليوم التالى ، ، بأن اتصد الى النائب العام ، وانضى اليه بالحقيقة ! ولقد فعلت هذا وهنالك تملكنى العجب ، حين سمعت النائب العام يقول : ان هذا الرجل الذى جاغنى لبيتز اموالى بالتهديد ما هو الا مدع يحتال على الناس منذ شهور . منتحلا صفة مفتش فى الحكومة ، وان البوليس يجد فى اثره ! وما كان اروع هذا القول لنفسى ، وائلجه لفؤادى ، بعد ان قضيت ثلاثة ايام بلياليها قلقا مهتما ! .

وقد علمتنى هذه الحادثة درسا لا ينسى ، فلا اكاد اواجه اليوم مشكلة تنذر بالقلق ، حتى اعالجها بما اسميه « وصفة ويليس كارير العجوز » .

* * *

فى الوقت الذى كان فيه ويليس كارير يعانى القلق من جراء آلات تنقية الغاز فى مدينة كريستال بولاية ميسورى ، كان ثمة رجل من مدينة « بركن بو » بولاية نبراسكا ، يعد وصيته ، كان هذا الرجل . ويدعى « ايرل هانى » يشكو قرحة فى « الاثنى عشر » ، وقد صرح له ثلاثة اطباء بينهم اخصائى شهير فى امراض القرحة ، انه لا يرجى له شفاء ، ونصحوه بان يمتنع عن الطعام ، وبان لا يقلق او ينزعج لشيء ، وان يحيط نفسه بهدوء تام ، كما نصحوه بكتابة وصيته !

وكان من جراء هذه القرحة أن فقد « ايرل هانى » وظيفة تدر عليه ربحا كبيرا ، فلم يعد له اذ ذاك ما يفعله سوى أن يتطلع الى الموت الذى يسعى اليه بطيئا .

وفجأة اتخذ « هانى » قرارا مدهشا . قال فى نفسه : « اذا لم يبق لى فى هذه الحياة سوى امد قصير فلماذا لا استمتع بهذا الأمد على أكمل وجه ؟ لقد طالما تمنيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركنى الموت ، فاذا كان لى أن أنفذ هذه الامنية ، فالآن هو وقت التنفيذ » .

ومن ثم ابتاع تذكرة سفر . وقد ارتاع أطباؤه ، وقالوا له : « ينبغى لنا أن نحذرك أنك اذا اقدمت على هذه الرحلة فستدمن فى قاع البحر » ولكنه اجاب : « كلا ! لن يحدث شئ من هذا ، فقد وعدت اقربى الا يدفن جنمائى الا فى مقابر الأسرة » . واشترى هانى تابوتا ، اصطحبه معه على الباخرة كى يدفن فيه اذا حان تضاؤه اثناء الرحلة ، ثم ركب السفينة ، وهو يتمثل بقول عمر الخيام :

« انعم اقصى النعيم بما ملكت يداك .

« قبل أن توسد اللحد ، فلا شئ هناك .

« سوى تراب من تحتك ، وتراب من أعلاك .

« فلا شراب ، ولا غناء ، ولا نهاية بعد ذاك » .

الا ان « هانى » لم يقطع الرحلة بغير شراب ، فقد أرسل الى زوجته مسز هانى خطابا يقول فيه : « لقد شربت النبيذ على السفينة ، ودخنت السيجار ، واكلت كل ألوان الطعام ، حتى الألوان الدسمة منها التى كانت كفيفة بالقضاء على . لقد استمتعت بهذه الفترة أكثر مما استمتعت فى ماضى حياتى جميعا . مارست صنوفا متعددة من اللهو على ظهر الباخرة ، واشتركت فى انشاد الأغانى ، واكتسبت اصدقاء جددا ، وكنت أسهر الى منتصف الليل ، وعند ما وصلت الى الصين والهند أدركت أن المتاعب والصعاب التى واجهتها فى بلادى تعد جنة الى جانب الفقر والجوع الذهن يعانيتها الشرق ، وعندئذ

كففت عن هذا القلق السخيف ، وأسرعت الى بيع التابوت الذى صحبتته معى لأترب حانوتى ، لم أعد الآن أشعر بالمرض قط .

وفى الوقت الذى حدث فيه هذا ، لم يكن « ايرل هانى » قد سمع « بوصفه » كاريير لعلاج القلق ، ولكنه قال لى أخيرا : « اننى أدرك الآن اننى كنت أطبق نفس المبادئ — أى مبادئ كاريير — دون وعى منى ، فقد وطدت نفسى على مواجهة أسوأ الفروض — وهو فى حالتى أنا — الموت ! ثم عملت على انقاذ ما يمكن انقاذه ، فعولت على استخلاص أكبر قدر من المتعة بما تبقى لى من عمر ، ولو اننى مضيت فى القلق ، فما من شك فى انى كنت سأعود على البأخرة داخل التابوت الذى أخذته معى . وما زال « هانى » يعيش الى اليوم فى رقم ٥٢ شارع ويدجوير — وينشستر — ماساشوستس .

وبعد ... فإذا كان ويليس كاريير استطاع أن ينفذ عشرين ألف ريال ، واستطاع رجل أعمال من نيويورك أن ينفذ نفسه من الابتزاز بالتهديد ، واستطاع « ايرل هانى » أن ينفذ حياته من الموت ، بواسطة هذه « الوصفة » السحرية ، فلا ترى أنك تستطيع بها أن تحل بعض مشكلاتك التى كنت تظن أن لاحل لها؟

وانن فالقاعدة رقم ٢ هى :

إذا كانت لديك مشكلة تبعث على اقلق ، فطبق « وصفة »
ويليس كاريير السحرية متخذاً هذه الخطوات الثلاث :

- ١ — اسأل نفسك : ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى ؟
- ٢ — هبىء نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات .
- ٣ — ثم اشرع فى انقاذ ما يمكن انقاذه .

الفصل الثالث

ماذا يصيبك من القلق ؟

« ان رجال الاعمال الذين لا يعرفون

كيف يكافحون القلق يموتون مبكرا »

(الدكتور الكسيس كاريل)

منذ وقت مضى . طرق بابى جار لى . وحتنى وعائلتى على ان نطعم ضد الجدرى ، ولم يكن هذا الجار سوى واحد من آلاف المتطوعين الذين راحوا يطرقون الأبواب فى طول مدينة نيويورك وعرضها ويحسون الناس على التحصن ضد الجدرى . وهرع الناس وقد اخذهم الرعب الى مراكز التطعيم التى جندت أكثر من ألفى طبيب وممرضة ، وصلوا الليل بالنهار فى تطعيم الجموع المحتشدة ، وكان السبب فى ذلك كله هو القلق ! فقد حدث أن مرض ثمانية أشخاص من سكان نيويورك بالجدرى ، ومات منهم اثنان .. اثنان من مجموع سكان المدينة البالغ عددهم نحو ثمانية ملايين نفس !

ولقد عشت فى نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة ، فلم يحدث أن طرق بابى أحد ليحذرنى من مرض يدعى القلق ... هذا المرض الذى سبب فى خلال الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر فى الأنفس أكثر مما سببه الجدرى بعشرة آلاف ضعف .

نعم ! لم يطرق أحد بابى ليحذرنى من أن شخصا من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرض للإصابة بانهيار عصبى ، مرجعه فى معظم الاحوال، الى القلق . ومن ثم فانى اكتب هذا الفصل لاطرق بابك — أيها القارىء — واحذرك !

كتب الدكتور « الكسيس كاريل » الهائز على جائزة نوبل في الطب ، يقول : « ان رجال الاعمال الذين يكافحون القلق يموتون مبكرا » . ومثل رجال الاعمال في ذلك الزوجات ، والأطباء والفعلة حملة قوالب الطوب .

منذ بضعة أعوام ، أمضيت اجازتى ، متجولا بسيارتى في تكساس ، ونيومكسيكو ، منع الدكتور جوبر ، وهو أحد اطباء شركة « سانتافى » للسكك الحديدية ، ولقبه الكامل هو « كهر اطباء إتحاد مستشفيات جالت ، وكولورادو ، وسانتافى » ودار حديثنا حول القلق . فقال : « ان فى استطاعة سبعين فى المائة من المرضى الذين يقصدون الى الأطباء ، أن يعالجوا أنفسهم بأنفسهم ، اذا هم تخلصوا من القلق والخاوف التى تسيطر عليهم . ولا تحسبن اننى اقصد بذلك الى أن امراضهم وهمية ، بل هى حقيقية لها ألم يعادل ألم الأسنان التالفة ، وربما كان أشد منها بمئات الأضعاف . واذكر مثلا لهذه الأمراض عسر الهضم العصبى ، وقرحة المعدة ، واضطرابات القلب ، والأرق والصداع ، وبعض أنواع الشلل .

« هذه الأمراض تحدث حقيقة ، وأنا أعلم ما أقول ، فأننا نفسى قد شكوت قرحة المعدة مدى اثنتى عشرة سنة .

« فان الخوف يسبب القلق ، والقلق يسبب توتر الأعصاب واحتداد المزاج ، ويؤثر فى أعصاب المعدة ، ويحيل العصارات الهاضمة الى عصارات سامة تؤدى فى كثير من الأحيان الى قرحة المعدة » .

ويقول الدكتور « جوزيف ف. مونتاجى » مؤلف كتاب « اضطرابات المعدة العصبية » (١) : « ان قرحة المعدة لا تأتى مما تأكله ، ولكنها تأتى مما « يأكلك » .. » .

ويقول الدكتور « و. س. الفاريز » الطبيب بمستشفى مايو الشهير : « كثيرا ما تنشأ قرحة المعدة نتيجة لتقلب العاطفة ، واضطرابات الاحساس » . وهو يقول هذا بعد دراسته لأكثر من ١٥٠٠٠ مريض ، عولجوا من اضطرابات المعدة في مستشفى « مايو » وقد اتضح أن أربعة من كل خمسة مرضى ليس لمرضهم أساس عضوى على الاطلاق ، بل أساسه الخوف ، والقلق ، والبغضاء والأتانية المستحكمة ، وعدم مقدرة الشخص على الملاعبة بين نفسه والحياة .

لقى الدكتور « هارولدس . هاين » الطبيب بمستشفى « مايو » رسالة في اجتماع « الجمعية الأمريكية للأطباء والجراحين العاملين في المؤسسات الصناعية » قال فيها : انه درس حالة ١٧٦ رجلا من رجال الأعمال ، من أعمار متجانسة معدنها { سنة . فأتضح له أن « أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحدا من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الاعصاب ، وهى : « اضطرابات القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم » أفليس محزنا أن تتحطم حياة رجال الأعمال بسبب اضطرابات القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم ، ولما يبلغ أحدهم بعد الخامسة والأربعين ؟ أهذا هو ثمن النجاح ؟ وهل يعد ناجحا ذلك الذى يشتري نجاحه بقرحة المعدة ، واضطرابات القلب ؟ وما الذى يفيد المرء اذا كسب العالم بأجمعه وخسر صحته ؟ فلو أن أحدا ملك العالم لما استطاع إلا أن ينام فى مخدع واحد ، فى وقت واحد ، ولما وسعه إلا أن يأكل ثلاث وجبات فى اليوم ، فما الفرق بينه ، فى هذا . وبين « الفاعل » الذى يحفر الأرض بمعوله ؟ بل لعل « الفاعل » أكثر استغراقا فى النوم ، وأكثر استمتاعا بطعامه من رجل الأعمال ذى الجاه والسطوة . واننى صراحة ، أفضل أن أكون مزارعا بسيطا فى « الإباما » أعزف على قيثارتى اذا ما خلوت من العمل ، على أن أحطم صحتى فى سن الخامسة والأربعين لكى أؤسس شركة للسكك الحديدية أو السجاير .

وعلى ذكر السجائر — فان أشهر منتج للسجائر في العالم كله ، سقط أخيراً ميتاً بالسكتة القلبية ، وهو يحاول أن يلتمس الراحة في غابات كندا .

لقد جمع الملايين ، ثم سقط ميتاً في سن الواحدة والستين من عمره ، ولعله قضى الشطر الأكبر من هذا العمر في اجتلاب ما يسمى « النجاح » أو « المجد » .

وفي اعتقادي ، أن هذا المالى الكبير ، برغم كل ما جمع من ملايين ، لم ينل من النجاح مثلما نال أبى — وقد كان مزارعاً بسيطاً في ميسورى — الذى مات في سن التاسعة والثمانين ، ولم يخلف دولاراً واحداً .

لقد صرح « اخوان مايو » أصحاب المستشفى المعروف باسمهم — بأن أكثر من نصف عدد المخادع في مستشفيات أمريكا يشغلها أشخاص يشكون من اضطرابات عصبية لا جسمانية .

ولو أنك درست أعصاب هؤلاء الناس ، تحت مجهر قوى في معمل حديث ، لبنت صحيحة سليمة كأعصاب جاك ديمبسى — بطل الملاكمة المعروف — فهذه الاضطرابات العصبية ، ليس منشؤها انحطاط الأعصاب ، وإنما توتر العواطف ، والقلق ، والخوف ، والهزيمة ، والياس .

لقد قال أفلاطون : « ان أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل ، في حين أن العقل والجسد وجهان لشيء واحد ، فلا ينبغي أن يعالج أحد الوجهين على حدة » .

وقد استغرق علم الطب الفين وثلاثمائة عام ليتحقق من صدق هذا القول ! فلآن فقط ، بدأنا ننشئ نوعاً من الطب يسمى (Psycho Somatic Medecine) « الطب النفسى الجسمانى » وهو نوع من الطب يعالج الجسم والنفس في آن معا .

نعم . لقد هزم الطب ، أو كاد ، الأمراض التى تسببها

الجرائم ، كالجدرى ، والكوليرا ، والحمى الصفراء ، وغيرها ، ولكنه — أى الطب — وقف عاجزا أمام القلق ، والحدوف ، والكراهية ، واليأس ، فى حين أن ضحايا هذه الأمراض العاطفية يتزايد عددهم بشكل مروع .

ويقرر الأطباء أن واحدا من كل عشرين امريكا ، سوف يقضى جانبا من حياته فى مصح للأمراض العقلية . ومن الحقائق المريرة أن واحدا من كل ستة شبان ، تقدموا للالتحاق فى الخدمة العسكرية فى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، رد على اعتقاله لأنه مريض أو ناقص عقليا .

هل تعرف ما الذى يسبب الجنون ؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد . ولكن من المحتمل ، أن يكون الخوف أو القلق من العوامل المؤدية الى الجنون . فالشخص القلق ، العاجز عن مواجهة الحياة وحقائقها ، يفصم علاقاته ببيئته ، ويتراجع الى حلم من نسج خياله ، وبذلك يذلل مشكلاته ، ولا يبقى ما يدعو الى القلق . . وهذا هو الجنون .

فوق مكتبى ، وأنا اكتب هذا ، كتاب للدكتور « ادوارد بودولسكى » . عنوانه « دع القلق وانعم بالشفاء » (١) ، وهذه عناوين بعض فصول الكتاب :

ماذا يفعل القلق بالقلب — ضغط الدم الذى يغذيه القلق — الروماتيزم قد يسببه القلق — قلل من القلق من أجل معدتك — كيف يسبب القلق البرد — القلق والغدة الدرقية — القلق ومرض البول السكرى « ! .

ومن الكتب القيمة الأخرى فى موضوع القلق ، كتاب « الانسان

Dr. Edward Podolsky ' "Stop worrying and (1)
Get Well"

عدو نفسه « للدكتور كارل مننجر (١) ، الطبيب في عيادة مايو للطب النفسى . والدكتور مننجر في كتابه هذا يحدثك بما يدهشك ، عن مدى الضرر الذى تلحقه بنفسك اذا سمحت للعواطف الهدامة بأن تسيطر على حياتك ، فاذا أردت أن تكف عن الكناح ضد نفسك ، فاقرأ هذا الكتاب (أى كتاب الدكتور مننجر) . اقراه ، ثم اعطه لأصدقائك ليقراوه . ان ثمنه أربعة دولارات — وهو مبلغ ليس أصحح من استغلاله في هذا الكتاب ، لما يعود عليك منه من أطيّب الثمرات .

ان القلق يجعل من أصلب الرجال عودا ، مريضا واهنا ، وقد اكتشف « الجنرال جرانت » هذه الحقيقة قبيل نهاية الحرب الأهلية الأمريكية . وهذا هو تفصيل القصة .

لقد حاصر الجنرال جرانت مدينة « رتشموند » مدى تسعة شهور ، انهارت خلالها جيوش « الجنرال لى » ، وتحطمت قوتها المعنوية ، واضناها الجوع ، ومر عليها وقت كانت فيه فرقة بأكملها تهجر الجيش ، وكانت ثمة فرقة أخرى تقيم الصلوات في خيامها وهى تصرخ ، وتبكي ، وتترأى لها الرؤى المزعجة ، لقد دنت الخاتمة ، وأحرق جنود « الجنرال لى » مخازن القطن والطباق بمدينة « رتشموند » ، كما أحرقوا البناء ، وفروا من المدينة تحت جناح الظلام ، بينما اللهب المنذلع يشق أستار الظلام . . وجد « جرانت » في تعقبهم ، والاطباق عليهم من الجانبين ، بينما كان الفرسان تحت قيادة « شريدان » يطاردونهم من الأمام . وهم يخربون السكك الحديدية ، ويستولون على قطارات المؤن . وتخلف « جرانت » وراء جيوشه ، وهو يعانى صداعا شديدا ، واعتكف في بيت ريفى خلف الخطوط ، وقد جاء في مذكراته عن تلك الفترة قوله : لقد قضيت الليل في معالجة قدمى بحمامات الماء الساخن ، ومفاصلى ورقبتى بالعقاقير الحارة ، مؤملا أن اشفى في الصباح ! وقد شفى في الصباح التالى ، شفى بأسرع مما كان يتصور ، ولكن

انسحب في شفائه لم يكن البخار ولا العقار ، انما ضابط من ضباط
الخيالة جاءه يسعى على ظهر جواده ، حاملا اليه خطابا من
« الجنرال لى » يبدى فيه رغبته في التسليم !

ويقول جرائت في مذكراته : « عندما جاعنى الضابط ، كتب
ما ازال اعانى الصداق ، وفي اللحظة التى نطلعت فيها على
محتويات الرسالة ، شفيت تماما » ! .

ان مرض الجنرال جرائت كان يرجع اذن الى القلق ، والتوتر-
واحتياج العواطف . وقد شفى بمجرد ان هدأت عواطفه ، وتجددت
في نفسه الثقة ، ونشوة الظفر .

وبعد ذلك بنحو سبعين عاما ، اكتشف « هنرى مورجناو »
وزير المالية في عهد الرئيس « فرانكلين روزفلت » ان القلق تد
سبب له مرضا مصحوبا بالدوار ، وقد جاء في مذكراته ان استشعر
القلق عندما اشترى الرئيس {ر} (بوشل) من القمح .
عسى ان يرتفع سعره . فقد كتب في مذكراته يقول : « لقد أحسست
فعلا بالدوار ، بينما كانت الصفقة تتم ، فذهبت الى بيتى ولزمت
فراشى مدى ساعتين بعد الغذاء » .

ولو اننى اردت ان ارى ما يفعله القلق بالناس . فليس على ان
اذهب الى مكتبة او الى طبيب ، بل ما على الا ان اطل من نافذة
بيتى . حيث اكتب هذا الكتاب ، فأرى في حى واحد ، بيتا سبب
فيه القلق حالة انهيار عصبى ، وبيتا آخر سبب فيه القلق مرض
البول السكرى .

ومن الحقائق المعروفة : انه عند ما تهبط قيمة الأسهم في
البورصة ، ترتفع قيمة السكر في البول والدم بين المضاربين ! .
عندما انتخب الفيلسوف الفرنسى « مونتاني » Montaigne
عمدة ، في مسقط رأسه — بوردو — قال لمواطنيه : « اننى على
استعداد لأن اهيمن على شئونكم بيدى ، لا بكبدى ورتنى » .

أما جارى الذى سبب له القلق مرض البول السكرى . فقد هيمن على عمله فى البورصة بدمه وأعصابه ، لا يبيديه . فأوشك أن يقتل نفسه .

إن القلق يسعه أن يضحك فى مقعد ذى عجلات من وطأة الروماتيزم أو التهاب المفاصل ، وقد وضع الدكتور « رسل لى . سيسيل » المدرس فى كلية الطب بجامعة كورنال ، والاختصاصى العالمى فى داء التهاب المفاصل قائمة ضمنها أربعة عوامل ينشأ عنها التهاب المفاصل وهى :

- ١ — فشل يصيب الإنسان فى الزواج .
- ٢ — كارثة مالية ، أو حزن عميق .
- ٣ — الوحشة والقلق .
- ٤ — الانفعالات المستهرة .

وطبىعى أن هذه العوامل الأربعة : تتفرغ عنها عوامل أخرى كثيرة ، ولكن هذه العوامل الأربعة هى الأصل .

مثال ذلك أن صديقا لى أصابته صدمة عاطفية عندما أفلست شركة الغاز التى كان يعمل بها ، فمرضت زوجته بداء التهاب المفاصل ، ولم ينفذ فى علاجها الأدوية والعقاقير . فلما التحق زوجها بعمل آخر ، وتحسنت أحواله المالية ، شفيت زوجته فى الحال ، فقد كان القلق على مستقبل زوجها هو منشأ مرضها .

بل إن القلق قد يسبب ألم الأسنان . قال الدكتور « وليم ماك كونيلى » فى خطاب القاه أمام « الجمعية الأمريكية لطب الأسنان » : « إن الانفعالات التى يسببها القلق ، والخوف ، والنزاع الدائم » قد تصيب ميزان الكلسيوم فى الجسم باختلال ينشأ عنه ألم الأسنان وتلفها ، وتحدث الدكتور « ماك كونيلى » عن رجل كانت أسنانه سليمة معافاة ، الى أن ساوره القلق على زوجته التى أصابها مرض نجائى . فقد اضطر الرجل فى خلال الأسابيع الثلاثة التى قضتها زوجته فى المستشفى : الى اقتلاع سبع أسنان .

هل سبق لك ان شاهدت شخصا مصابا بنشاط زائد في الغدة الدرقية ! لقد شاهدت انا بعض المصابين بهذا الداء . فوجدتهم يرتعدون ويهتزون ، ويلوح عليهم ، كأننا يوشك الخوف ان يقتلهم ، ذلك لأن ازدياد افراز الغدة زاد من ضربات القلب ، فأخذت أعضاء الجسم تعمل بأقصى شدتها ، كأنها هي اتون اشتدت وقدة النار فيه ، فاذا لم تهدأ هذه الوقود ، بواسطة عملية جراحية ، أو علاج سريع ، فقد يموت المريض ، أو بمعنى آخر ، يحترق على لظى هذه الجذوة المشتعلة .

منذ وقت تصير ، ذهبت الى فيلادلفيا بصحبة صديق لى يعانى تخسها في الغدة الدرقية ، ليزور اخصائيا شهرا في هذا المرض ، فماذا تظنها النصيحة التى علقها هذا الطبيب داخل اطار في غرفة الانتظار بعيادته ؟ ها هي ذى ، فقد دونتها اذ ذاك على ظهر مطروف .

الاسترخاء والترفيه

« ان الترفيه يؤدي الى الاسترخاء ، ولكي ترفه عن نفسك اتبع ما يأتى : ثق بالله واعتمد عليه . اعط بدنك قسطه من النوم . استمتع بالموسيقى . انظر الى الجانب البهيج للحياة . وثق بعد هذا ان الصحة والسعادة من نصيبك » .

وكان اول سؤال وجهه الطبيب الى صديقى هو : « اى انفعال ، عنيف سبب لك هذا ؟ » ثم انه أنذر صديقى ان يكف عن القلق والا اصيب بمضاعفات اخرى ، كاضطرابات القلب ، وقرحة المعدة ، والبول السكرى . ثم أردف الطبيب الشهير يقول : « وهذه الأمراض كلها بنات عمومة وخؤولة » ، وهو على حق ، فانها كلها تتفرع عن القلق .

ذهبت ذات مرة لمقابلة كوكب السينما الالامعة « ميرل اوبيرون » ، فصرحت لى بأنها طالما رفضت الاذعان للقلق ، فهي تعلم أنه جدير بتحطيم أهم ميزة يتطلبها الظهور على الشاشة البيضاء . وهي

جمال المنظر . ثم قالت : « عندما حاولت ، للمرة الأولى ، أن أظهر على الشاشة البيضاء ، استولى على الخوف والقلق ، فقد كنت قادمة لتوى من الهند ، ولم أكن أعرف أحدا في لندن ، حين كنت أبحث عن عمل ، وقد قابلت بعض المخرجين ، ولكن أحدا منهم لم يقبل أن يستخدمنى . ولم أكن في تلك الاثناء ، قلقة وحسب بل كنت جوعى أيضا . فقد عشت اسبوعين على الخبز والماء ولا شيء غيرهما . ولكنى قلت لنفسى : يالى من حمقاء ! كيف يتاح لى الظهور على الشاشة ، وأنا بعد لا عهد لى بالتمثيل ولا خبرة . ما لم أكن جميلة فانتة ! »

« وقصدت الى المرأة . وحين تطلعت اليها هالنى ما ناله القلق من جمالى ! رايت التجاعيد قد بدت على وجهى ، ولمحت معالم القلق مرتسمة عليه ، وهناك قلت لنفسى : ان اكف عن القلق فى التو واللحظة ، فان جمالى — وهو الشيء الوحيد الذى يؤهلنى للظهور على الشاشة — خلىق بأن يتقوض ويتشوه . وقد كفتت عن القلق ، وكان جمالى هو السبب الأول فى اشتغالى بالتمثيل . »

والحق انه ليس هناك ما يصيب جمال المرأة بالبوار السريع مثل القلق ، انه يمسح الوجه ، ويصيبه بالتجاعيد ، ويحدث فيه تجاويف وتعاريج قبيحة منفرة ، بل انه يصيب شعر الرأس بالشيب المبكر ، وقد ينتزعه من منبته . وهو الى ذلك يغضن البشرة ، ويتسبب فى كثير من امراض الجلد .

* * *

لقد اثبتت الاحصاءات ان القلق هو القاتل رقم (١) فى امريكا . ففى خلال سنى الحرب العالمية الاخير ، قتل من ابنائنا نحو ثلاث مليون مقاتل ، وفى خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليونى نسمة . ومن هؤلاء الاخيرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئا عن القلق ، وتوتر الاعصاب .

نعم ! ان مرض القلب من الاسباب الرئيسية التى حدثت بالدكتور « الكسيس كاريل » الى أن يقول : « ان رجال الاعمال الذين

لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » .

وقلما يمرض الزوج في جنوب أمريكا ، والصينيون مثلا ،
بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذا سهلا لنا .

وانك لترى أن عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد
عشرين ضعفا على عدد المزارعين الذين يموتون بالسكتة للسبب
نفسه ! فان الأطباء يحيون حياة متوترة عنيفة ، ويدفعون الثمن !
وفي هذا يقول العالم النفساني وليم جيمس : « ان الله يغفر لنا
أخطائنا ، ولكن الجهاز العصبى لا يغفرها قط ! » .

واليك حقيقة مذهشة قد يصعب عليك تصديقها : ان عدد
الأمريكيين الذين ينتحرون ، يفوق عدد الذين يموتون بالأمراض
منى اختلافا ! فلماذا ؟ .

الجواب : في معظم الأحوال هو : القلق .
عندما كان القادة الصينيون القساة في الأزمان الغابرة ، يريدون
تعذيب أسراهم ، كانوا يشدون وثاقهم ، ثم يضعونهم تحت صنوبر
يقطر منه الماء قطرة قطرة ، فاذا هذه القطرات المتساقطة على
رعوس الأسرى على مرور الوقت ، تصبح كأنها دقائق المعاول ،
وتدفع بهؤلاء المساكين دفعا الى الجنون ، وهذه الطريقة نفسها في
التعذيب كان يستخدمها الأسبانيون في عهد محاكم التفتيش ،
والألمانيون في مسكرات الاعتقال ، في عهد هتلر .

والقلق اشبه بالماء المتساقط قطرة قطرة ، ومن ثم فهو يدفع
بالناس الى الجنون والانتحار .

عندما كنت فتى ريفيا في « ميسوري » ، كان يغشائي خوف
قتل وأنا أستمع الى الواعظ « نيللى سنداى » وهو يصف نار
الجحيم في الحياة الأخرى . ولكنه لم يحدث قط أن ذكر الجحيم انذى
يسببه القلق في الدنيا ، وهو لعمرى أبعد منه قساوة !

أحب هذه الحياة ؟ أتريد أن تعيش طويلا وتستمتع بالصحة الطيبة ؟ اقرأ أذن ما كتبه الدكتور الكسيس كاريل « ان الذين يسمهم الاحتفاظ بالسلام والطمانينة النفسية وسط ضجيج مدينة عصرية ، معصومون — ولا ريب من الأمراض العصبية » فهل يسعك أن تحتفظ بالسلام الداخلى ، وسط ضجيج مدينة عصرية ؟ اذا كتبت انسانا طبيعيا : فسيكون جوابك : « نعم » ، فان للكثيرين مناً من القوة أكثر مما يدركون ، وفي داخل أنفسهم قوى من المحتمل أنهم لم يستخدموها اطلاقا . كما قال « ثورو » في كتابه الخالد «والدن» (١) : « لست أعرف حقيقة أكثر تشجيعا من أن للانسان مقدرة فائقة على اعلاء شأنه عن طريق بذل الجهود — فلو أن انسان سعى الى أن يحيا الحياة التى يتصورها فى خياله . فسوف يصادف من النجاح ما لا يخطر له ببسأل » .

ومن المؤكد أن كثيرين من قراء هذا الكتاب لهم من توة الارادة والقوى النفسية الكامنة مثلها للسيدة « أولجا جارفى » التى عزمتها فى بلدة « كورداليه » بولاية ايداهو . . فقد اكتشفت هذه السيدة أن فى استطاعتها ، برغم كل الظروف المؤلة التى أحاطت بها أن تطرد القلق .

وهاهى قصة السيدة أولجا كما روتها لى : « منذ أكثر من ثمانية أعوام ، كان محكوما على بالموت البطيء ، الشديد الألم ، بسبب مرض السرطان ؟ وقد أيد هذا « الحكم » أشهر الأطباء فى هذه البلدة ، وكنت شابة . ولم أكن لأرغب أن أموت . وفى خضم يأسى المروع ، اتصلت بطبيبى تليفونيا فى « كيلوج » وصرخت غيه باليأس الذى يغمر قلبى . فقال لى . وهو ضيق الصدر نوعا : ماذا دهاك؟ البست لك مقدرة على الكفاح ؟ انك ستموتين ! لو ظلتت تصرخين هكذا ، نعم ان حالتك سيئة ، حسن . اقبلى هذه الحقيقة ، وواجهى الحقائق وكفى عن القلق ، ثم افعلى شيئا » ، وعندئذ أخذت على

نفسى عهدا صارما الا أستسلم للقلق ، والا أصرخ . فاذا كان للقلق تأثير لعى الجسم فانى سأنتصر ، ولسوف أنتصر ، ولسوف أعيش .

وكانت الكمية المقررة لى من أشعة « اكس » لعلاج السرطان — الذى وصل معى الى درجته الأخيرة ، ولم يعد هناك مجال لاستخدام الراديوم — هى عشر دقائق ونصف دقيقة يوميا لمدة ثلاثين يوما ، ولكن أطبائى عرضونى للأشعة لمدة ١٤ دقيقة ونصف دقيقة يوميا مدى ٤٩ يوما ، وبرغم أن عظامى برزت من جسدى ، وبرغم أن قدمى تصلبتا كالرصاص ، فاننى لم أصرخ قط ، بل كنت ابتسم ، أو على الأصح كنت أقسر نفسى على الابتسام .

« ولست من حماقة بحيث أعتقد أن الابتسام وحده يشفى من السرطان ، ولكنى أعتقد أن انشراح النفس يساعد الجسم على مقاومة المرض . وعلى أية حال فقد شفيت من السرطان ، وانفضت فى ذلك للكلمات المشجعة الحافزة التى قالها لى طبيبى الدكتور «هاك كافرى» : « واجهى القلق ، كفى عن القلق ، وافعل شيا » .

ولسوف اختتم هذا الفصل بالتمهيد الذى اخترته له ، وهو قول الدكتور كاريل .

« ان رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » .

أكان الدكتور كاريل يقصدك أنت بهذه العبارة ؟

الجزء الأول في سطور حقائق أساسية عن القلق ينبغي أن تعرفها

القاعدة رقم ١ :

إذا أردت أن تتجنب القلق ، فافعل ما فعله سير بوليم
أوسلر : عش في نطاق يومك ، ولا تقلق على المستقبل .
عش اليوم حتى يحين وقت النوم .

القاعدة رقم ٢ :

عندما تأخذ المشكلات بتلابيبك — في المرة القادمة —
ولا تستطيع منها فكاكا ، جرب الطريقة السحرية التي فعلها
ويليس كارير . اسأل نفسك :

(أ) ما أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن تحدث ؟
(ب) هبىء نفسك ذهنيا لقبول أسوأ الاحتمالات إذا
لزم الأمر .

(ج) حاول أن تنقذ ما يمكن انقاذه من هذا الاحتمال
الذي هو أسوأ الاحتمالات ، والذي أعددت
نفسك ذهنيا لقبوله .

القاعدة رقم ٣ :

ذكر نفسك دواما بالثمن الفادح الذي يتقاضاه القلق
من صحتك ، واعلم أن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف
يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا .

الجزء الثاني

الطرق الأساسية لتحليل القلق

الفصل الرابع

كيف تحلل أسباب القلق وتزيلها

ان لى ستة من الخدم المخلصين
عنهم تعلمت كل ما اعلم علم اليقين
سماؤهم هي: ماذا ، ولماذا ، و متى
وكيف ، وأين ، ومن !
(رديارد كبلنج)

هل تزيل « الطريقة السحرية » التى ابتكرها كايير — والنى
أتينا على شرحها فى الفصل الثانى من الجزء الاول — كل أسباب
القلق ، وتحل كل مشكلاتنا ؟ كلا ! بقى أن نتعلم الخطوات
الأساسية الثلاث التى يجب اتخاذها لتحليل مشكلة ما والقضاء
عليها ، وهذه الخطوات هى :

- ١ — استخلص الحقائق .
 - ٢ — حلل هذه الحقائق .
 - ٣ — اتخذ قرارا حاسما ، ثم اعمل بمقتضى هذا القرار .
- لقد علمنا ارسطور هذه الخطوات الثلاث ، واستخدمها
بدوره ، وأنت وأنا لا محيص لنا من استخدامها اذا كان علينا أن

نحل المشكلات التي تعيننا ، وتحيل أيامنا وليالينا الى جحيم لا يطاق .

ودعنا نناقش الخطوة الاولى : **استخلص الحقائق** .

لماذا يتحتم علينا أن نستخلص الحقائق ؟ لأننا مالم نحصل على الحقائق فلن يتسنى لنا ، عقلا ، أن نحل مشكلاتنا ! فبدون الحقائق لن نملك الا أن ندور حول المشكلة في دوائر لا نهاية لها . وليست هذه فكرة ابتدعتها ، وانما ابتدعها منذ عشرين عاما « هربرت هوكس » عميد كلية كولومبيا . فقد استطاع هذا الرجل أن يعين مائة ألف طالب على حل مشكلاتهم ، والتخلص من القلق . وقد قال لى مرة : « ان نصف المشكلات التي تسبب القلق ، منشؤها أن الناس يحاولون اتخاذ القرارات قبل أن تتوفر لهم المعلومات الكافية التي تتيح لهم اتخاذ قرارا ما . فمثلا . اذا كانت لدى مسألة يتحتم .على أن أنهىها في الساعة الثالثة من يوم الثلاثاء القادم ، فأننى مبدئيا ، لا أحاول قط اتخاذ قرار بشأنها حتى يجين الثلاثاء القادم . ثم الى أن يحين الثلاثاء القادم ، أركز ذهني في استخلاص الحقائق المحيطة بها . ولست أقلق ، أو اضطرب ، أو أفضى لليالي مسهدا ، وانما كل ما أفعله هو أن أركز ذهني في استخلاص الحقائق المحيطة بالمسألة . فاذا حان يوم الثلاثاء ، كانت الحقائق جاهزة في ذهني ، وفي هذا اكر العون على انهاؤها واتخاذ قرار حاسم فيها » .

وقد سألت العميد هوكس ، هل خلصته هذه الوسيلة من القلق كليا ، فقال : « نعم . وفي استطاعتي أن أقول مخلصا ان حياتي أصبحت خلوا من القلق على الاطلاق . وقد وجدت أن الانسان اذا بذل شيئا من وقته للحصول على الحقائق المجردة ، فان قلقه غالبا ما يتبخر على ضوء المعرفة التي يجنيها » .

ودعني أكرر هذا القول : « اذا بذل الانسان شيئا من وقته للحصول على الحقائق المجردة فان قلقه غالبا ما يتبخر على ضوء المعرفة التي يجنيها » .

فماذا تظن أكثرنا يفعل ؟ اننا قلما نعنى بالحقائق اطلاقا .
وإذا حدث أن حاول أحدنا استخلاص الحقائق ، فانه يتصيد منها
ما يعضد الفكرة الراسخة في ذهنه ، ولا يعنى بما ينقضها ، أى
انه يسعى الى الحقائق التى تبرر معله ، وتتفق مع أمانيه ،
وتتفق مع الحلول السطحية التى يرتئها . وفى ذلك يقول «أندريه
موروا» : « كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا الشخصية يبدو فى
أعيننا معقولا : أما ما يناقض رغباتنا فانه يثير غضبنا » . فهو
من المستغرب ، والحالة هذه ، أن يصعب علينا الوصول الى حل
لمشكلتنا ؟ أولسنا نسخر من الشخص الذى يقبل على حل
مسألة حسابية بسيطة مفترضا أن $2 + 2 = 5$ ؟ ومع ذلك
فكثيرون جدا فى هذا العالم ، يحيلون حياتهم الى سعيم ، باصرارهم
على أن مجموع اثنين واثنين هو خمسة ، وربما خمسمائة ! فما
العلاج ؟ العلاج هو أن نفصل بين عواطفنا وتفكيرنا ، وأن نعمل
مثلما فعل العميد « هوكس » ، أى نستخلص الحقائق المجردة
بطريقة محايدة .

وليس هذا سهلا ميسورا مع وجود القلق . فاننا حين يعترينا
القلق نصبح مطية لعواطفنا ، ولكن ثمة طريقتين تساعدان على
رؤية الحقائق مجردة ، وقد جربتهما بنفسى ولمست نفعهما :

١ — عندما أحاول استخلاص الحقائق أنظاها كأنها
استخلصها ، لا لنفسى وانما لشخص آخر . وهذا الاتجاه الذهنى
يساعدنى على اتخاذ نظرة محايدة الى الحقائق ، مجردة من
العاطفة .

٢ — فى اثناء جمع الحقائق ، انظاها كأنى ممثل الاتهام فى
ساحة المحكمة ، أو بمعنى آخر أحاول أستخلص الحقائق المضادة
لمصلحتى .

ثم أدون المجموعتين من الحقائق : التى فى مصلحتى ، والتى
تنافى مصلحتى ، وأدرسهما جيدا ، وغالبا ما أجد الراى السديد
شيئا يتوسط هذين النقيضين .

هذه هي الفكرة التي أريد توضيحها : فلا أنت ولا أنا ، ولا العلامة « اينشتين » ولا المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية ، من الذكاء والالمية ، بحيث تصل الى قرار حصبف، لو رأى سديد في أية مشكلة ، مالم تحصل أولا على الحقائق كاتمة .

اذن فالقاعدة الاولى لحل مشكلتنا هي : **استخلص الحقائق افعل ما فعله العميد هو كس : تجنب حل مشكلتك ما لم تحصل أولا على الحقائق بطريقة محايدة .**

على ان الحصول على الحقائق التي تغمر الدنيا بأسرها لن يجدينا شيئا حتى نحلها ونفسرها . ولقد وجدت بالتجربة ان من الأيسر تحليل الحقائق بعد تدوينها ، بل ان مجرد تدوين الحقائق التي تحيط بمشكلتنا ، هو في حد ذاته شوط طويل في طريق الوصول الى قرار معقول .. وفي ذلك يقول «تشارلس كيترنج»: « المشكلة المدونة تفاصيلها هي مشكلة نصف محلولة » .

ودعني أبين لك كيف أمكن تطبيق ذلك كله عمليا ، ولناخذ « جالن ليتشفيلد » مثلا . وقد عرفته منذ عدة سنوات مضت رجلا من أكثر رجال الأعمال الأمريكيين في الشرق الأقصى نجاحا . وكان ليتشفيلد في الصين عام ١٩٤٢ ، حين غزا اليابانيون شنغهاي ، وهذه هي قصته كما رواها لي حين استضافته في منزلي :

« وعندما غزا اليابانيون هاربور » وبدأوا يتدفقون على شنغهاي ، كنت اذ ذاك مديرا « لشركة آسيا للتأمين على الحياة » في شنغهاي ، فما لبثوا أن أرسلوا الى ضابطا برتبة أدميرال ، يطلب الى تصفية ممتلكات الشركة ، ولم يكن لي خيار في الأمر ، فاما أن اتعاون مع الغزاة ، واما ... و « اما » الثانية هذه ، ليس لها الا معنى واحد ... الموت ! .

« وبدأت أنفذ ما أمرت به .. وأعددت قائمة بممتلكات الشركة سلمتها للأدميرال ، غير أنني أسقطت من هذه القائمة

مبلغا قدره ٧٥.٠٠٠ دولار ، وقد أسقطت هذا المبلغ لأنه في الواقع ، يخص فرع الشركة المستقل في « هونج كونج » ولكنى برغم ذلك ، ساورنى الخوف خشية أن يكون مصيرى الموت في الماء المغلى ، اذا اكتشف اليابانيون ما فعلته . ولقد اكتشفوه بعد ذلك بقليل ! .

« ولم أكن في مكتبى بالشركة حين تم اكتشاف ذلك . ولكن رئيس الحسابات كان هناك ، وقد أنبأنى تليفونيا بأن الأدميرال اليابانى تميز غضبا ، ووهفنى باللص الخائن .

نعم ! لقد تحديت الجيش اليابانى ، وليس لهذا الا عقاب واحد ، هو الزج بى في السجن الذى يسمونه « بيت الجسر » .

« بيت الجسر؟! السجن الذى يتخذة الجستابو اليابانى مكانا للتعذيب ؟ . . لقد عرفت أشخاصا تخلصوا بالانتحار من عذاب هذا السجن ، وعرفت أشخاصا آخرين لاقوا حتفهم بعد عشرة أيام من استجوابهم وتعذيبهم في هذا السجن ، وها هو دورى قد حل .

« أنبأنى رئيس الحسابات بهذا بعد ظهر يوم الأحد ، وكنت خليقا أن أهلك رعبا ، لو لم تكن لى طريقة خاصة أتبعها في حل مشكلتى ، فمئذ سنين مضت ، كنت كلما استولى على القلق ، أعمد الى الآلة الكاتبة وأدون على ورقة سؤاليين . وهما :

« ١ — علام يساورنى القلق ؟

« ٢ — ما الذى يسعنى أن افعله لأكف عن القلق ؟

« وكنت فيما مضى أجيب عن هذين السؤالين شفويا لا تحريريا ، ولكن وجد أن تدوين الاجابة يوضح معالم تفكيرى . ومن ثم قصدت بعد ظهر يوم الأحد ، الذى سمعت فيه بهذه الالباء ، الى غرفتى في جمعية الثسبان المسيحية بشنغهاى ، وعمدت الى الآلة الكاتبة وكتبت :

« س : لماذا يساورنى القلق ؟

« ج : لأننى أخشى أن يزج بى فى سجن « بيت الجسر »
غدا صباحا .

« س : ما الذى يسعنى أن افعله لأكف عن القلق ؟

« وعندئذ انفتحت ساعات طويلة فى التفكير ؟ وخلصت من
التفكير الى مناهج أربعة . استطيع أن انهجها فدونتها ، ودونت
معها كافة احتمالاتها :

« ج ١ — استطيع أن اوضح الأمر للأدميرال اليابانى ،
ولكنه لا يتكلم الانجليزية ، واذا حاولت أن أستعين بمرجم ، فقد
أثير غضبه مرة ثانية ، وقد يعنى هذا موتا محققا لى ، فهو غليظ
القلب ، ولعله يفضل أن يزج بى فى « بيت الجسر » على أن
يفاقشنى فى الأمر .

« ٢ — استطيع أن أحاول الهرب من المدينة ، ولكن هذا
محال ! فانهم يفتقون خطواتى على الدوام ، ويتحتم على أن
أسجل مواعيد دخولى وخروجى ، حيث أقيم بجمعية الشبان
المسيحية ، ولو أننى حاولت الهرب ثم قبضوا على ، فانى أقتل
رميا بالرصاص .

« ٣ — استطيع أن أمكث هنا فى غرفتى ولا أذهب الى
الشركة ثانية . لكننى ان فعلت هذا فسيشتبه الأدميرال اليابانى
فى أمرى ، وقد يبعث بجنوده ليقبضوا على ، ويزجوا بى فى بيت
الجسر ، دون أن يعطونى فرصة لأنبس بكلمة .

« ٤ — استطيع أن أذهب الى مكتبى فى الشركة صباح يوم
الاثنين كعادتى ، وكأن شيئا لم يحدث ، فاذا فعلت ، فمن المحتمل
أن يكون الأدميرال مشغولا جدا ، فلا يذكر فعلتى ، واذا ذكرها
فمن المحتمل أن تكون نار غيظه قد بردت ، فلا يناقشنى فى الأمر ،
وحتى اذا ناقشنى فستكون لدى فرصة لأوضح له جلية الأمر ،

واذن فذهابى الى المكتب صباح يوم الاثنين ، وكأن شيئاً لم يحدث
يمنحنى فرصتين للنجاة .

وبمجرد أن انتهيت من تثقيب أوجه النظر فى المسألة ،
واعترمت تنفيذ الخطة الرابعة ، أحسست بالراحة التامة ،
وزايلنى القلق .

« وعندما دخلت مكتبى صباح يوم الاثنين ، وجدت الأدميرال
جالسا والسيجارة فى فمه ، فحلق فى كعادته ، ولم يقل شيئاً
حينئذ ، ولا فى الأيام التالية ! وبعد ستة أسابيع دعى الأدميرال
الى طوكيو ، وبذلك اختتمت متاعبى ، وحلت مشكلتى .

« ولعلى أدين بنجاتى من موت محقق لجلستى تلك ، بعد
ظهر يوم الأحد ، وتدوين الخطط الأربع المختلفة التى يمكنى
اتخاذها ، وعواقب كل منها ، ولو اننى لم أفعل هذا ، فربها
ترددت ، واضطربت ، وأقدمت على عمل غير مدروس توحيه
الى اللحظة ، ولو اننى لم أفكر فى مشكلتى ، وأنته الى قرار حاسم
فربما أنتابنى القلق طوال ما بعد ظهر الأحد وحرمنى النوم ليلاً ،
وربما ذهبت الى المكتب صباح الاثنين التالى ، وقد ارتسم القلق
والانزعاج على وجهى ، وهذا وحده كان كفيلاً باثارة شكوك
الأدميرال اليابانى .

« ولقد أثبتت لى التجربة مرة بعد أخرى ، الفائدة العظمى ،
لاتخاذ قرار حاسم ، أما التخاذل عن اتخاذ قرار ، والدوران حول
المشكلة بلا هدف ، فهما اللذان يدفعان الرجال الى الانهيار
العصبى ، وقد وجدت أن مقدار خمسين فى المائة من القلق يتلاشى
بمجرد أن أصل الى قرار حاسم ، واضح المعالم وأن أربعين فى
المائة مما تبقى من القلق ، يتلاشى عندما أبدأ بتنفيذ القرار الذى
اتخذته . ومن ثم فأنا أطرده تسعين فى المائة من القلق ، باتخاذ
هذه الخطوات الأربع .

« ١ - تدوين الأسباب التى أثارت قلقى بوضوح تام .

(م ٥ - دع القلق)

« ٢ — تدوين الخطوات التي أستطيع اتخاذها للقضاء على القلق .

« ٣ — اتخاذ قرار حاسم .

« ٤ — البدء في تنفيذ القرار الذي توصلت اليه » .

ومستر « جاليه ليتشفورد » هو الآن مدير فرع الشرق الانصى لشركة « ستار ، وبارك ، وفريمان » بنيويورك ... الا ترى أن طريقته رائعة ؟ ذلك لأنها فعالة ، مجدية ، تعالج المشكلة من أساسها ، ومفضلا عن هذا فانها تنتهي بالقاعدة رقم (١) التي لا غناء عنها في مكافحة القلق وهي : **افعل شيئا للقضاء على القلق . فما لم تفعل شيئا ، فان محاولتك استخلاص الحقائق ليست الا مضيعة للوقت والجهد .**

قال وليم جيمس : « عندما تتوصل الى قرار وتأخذ في تنفيذه ضع نصب عينيك الحصول على نتيجة ولا تهتم لغير هذا » ويفصد وليم جيمس بهذا أنك متى اتخذت قرارا ، فلا تتردد ، ولا تحجم ، ولا تراجع خطواتك ، ولا تخلق لنفسك الشكوك والاهام ، ولا تنظر الى الوراء بل اقدم على تنفيذ قرارك غير هباب ولا وجل .

سألت مرة ، « وايت فيلبس » وهو أحد الرجال البارزين في صناعة البترول في أوكلاهوما ، كيف كان ينفذ قراراته فأجاب: لقد وجدت أن الاستمرار في التفكير في احدى المشكلات الى ابعد من مدى معين ، يخلق القلق ويولد الاضطراب . فانه يأتي وقت تصبح فيه المداومة على التفكير ضررا يجب اجتنابه ، فمتى اتخذت قرارا اعمد الى تنفيذه دون أن تلتفت الى الوراء » .

لماذا لا تطبق طريقة « جاليه ليتشفورد » في التو واللاحظة على احدى مشكلاتك التي تسبب لك القلق ؟

هذا السؤال رقم (١) : لماذا يساورني القلق ؟ (ضع

جابتك هنا في المكان المخصص للإجابة تحت كل سؤال .

الجواب :

السؤال رقم (٢) : ماذا أستطيع أن أفعل للقضاء على القلق؟

الجواب :

السؤال رقم (٣) : ما هي أفضل وسيلة أتخذها للقضاء على القلق ؟

الجواب :

السؤال رقم (٤) : متى أبدأ بتنفيذ هذه الوسيلة ؟

الجواب :

الفصل الخامس

كيف تطرد خمسين في المائة من القلق المتعلق بعملك

إذا كنت من رجال الأعمال ، فملك تقول لنفسك في هذه اللحظة : ما أسخف عنوان هذا الفصل ! انى خبرت عملى عشرين عاما او يزيد، فلا شك اننى ادرى الناس بجواب هذا السؤال . . . أن مجرد التفكير في أن شخصا غريبا عنى ، وعن عملى ، يريد أن يدلنى على كيفية طرد القلق المتعلق بعملى لهو السخف بعينه! «
والحق معك . فقد كنت سوف أشعر . هذا الشعور نفسه لو اننى قرأت مثل هذا العنوان منذ بضعة اعوام . فانه يزجى وعودا كبارا ، وما أرخص ازجاء الوعود .

نعم ! أنت محق في اننى لا استطيع معاونتك على طرد خمسين في المائة من القلق المتعلق بعملك . فأنت وحدك الذى يسعك هذا ولكن الذى ابتغيه هو أن اطلعك على تجارب أشخاص مثلك ، وسعهم أن يطردوا القلق ، ثم ادع لك الباقى تتكفل به .

ولعلك تذكر اننى في صفحة ٥٦ من هذا الكتاب — اقتبست قول الدكتور « الكسيس كاريل » : « ان رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » . . . فاذا كان القلق من الخطورة بهذه الدرجة ، أفلا تراها صفة رابحة لك ان أنا عاونتك على طرد عشرة في المائة فقط من القلق الذى يساورك على عملك ؟ . . . ولعلك تقول : « نعم » ؟ وحسنا ! فما أنا ذا أريك كيف استطاع أحد رجال الأعمال أن يوفر على نفسه لا خمسين في المائة من قلقه فحسب ، بل خمسة وسبعين في المائة من وقته الثمين أيضا ، الذى كان يضيع سدى في اجتماعات لانتهى ، يرجو من ورائها حل المشكلات المتعلقة بعمله .

عرفت هذا الرجل في أوهايو ، ويدعى « ليون شيمكن » وهو أحد أصحاب دار « سيمون وسكستر » للنشر ، بميدان روكفلر رقم ٢٠ بنيويورك .

واليك تفصيل التجربة التي مر بها « ليون شيمكن » كما رواها هو :

« دابت مدى خمسة عشر عاما متواصلة على عقد اجتماعات يومية مع مساعدي لدراسة المشكلات الخاصة بالعمل فاذا احتوتنا غرفة الاجتماع رحنا نتساءل : هل نفعل هذا ؟ أم ترى نفعل ذاك؟ أم يحسن الان فعل شيئا على الاطلاق ؟ ولا تلبث اعصابنا ان تتوتر ، ونتململ في مقاعدنا أو نذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، وقد يحتدم بيننا الجدل وندور حول الموضوع المطروح للبحث في دوائر مغلقة لا منفذ لها ، فاذا أقبل المساء ، وجدت نفسى منك القوى متعبا . وقد توقعت أن تستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية حياتى ، فقد استمرت خمسة عشر عاما ولم يخطر ببالى ان ثمة وسيلة أجدى في بحث مسائل العمل من هذه ، ولو أن انسانا أخبرنى اذ ذاك أن فى استطاعتى توفير ثلاثة أرباع الوقت الذى أبدده هباء فى هذه الاجتماعات القلقة المتوترة ، فضلا عن ثلاثة أرباع الجهود العصبى الذى أبذله ، لحسبته من أولئك الواهين المتفائلين .

ثم تصادف أن عننت لى فكرة ، عمدت الى تطبيقها ، فاذا هى تعود على بأحسن الثمرات ، فضلا عن الراحة التى كنت أنشدها وأحسبها ضربا من الخيال . ومازلت منذ ثمانية أعوام أطبق هذه الخطة التى كان لها فعل السحر فى إنتاجى ، وصحتى، وسعادتى .

« أقول انها كالسحر . . وهى حقا كالسحر وبسيطة للغاية واليك تفصيلها :

« أولا : كففت فى التو عن نظام المناقشة الذى كنت التزمه

اثناء اجتماعى مع مساعدى ، ذلك النظام الذى كان يقضى بأن يسرد على المساعدون تفاصيل الأخطاء التى وقعت، أو المشكلات التى صادفتهم ، ثم يسألوننى : ماذا نحن فاعلون ؟

« **ثانياً** : وضعت قاعدة جديدة تحتم على كل واحد من مساعدى ، يريد أن يعرض على مشكلة ما ، أن يقدم لى أولاً مذكرة تشمل الإجابة عن هذه الأسئلة الأربعة :

« ١ — ما هى المشكلة ؟ (وقد تعودنا ، فيما مضى ، أن ننفق ساعة أو ساعتين فى مناقشة حامية دون أن ندرى ما هى المشكلة على وجه التحديد ! كما اعتدنا أن نحيط المشكلة باللبس والغموض ، دون أن يفكر أحدنا فى تدوين موضوع المشكلة بوضوح) .

« ٢ — ما هو منشأ المشكلة ؟ (واذا أرجع بذاكرتى الى الوراء ، يروعنى ما أنفقناه من ساعات دون أن نحاول الوقوف على الأسباب التى دفعت المشكلة الى حيز الوجود) .

« ٣ — ما هى الحلول الممكنة لهذه المشكلة ؟ (وفيما مضى كان كل منا يقترح حلاً فيجادل زميل له ، وكثيراً ما كانت الخواطر تهتاج فتسأى بنا عن الحل المقترح ، وفى نهاية الاجتماع لم يكن يخطر لأحد منا أن يدون الحلول التى عرضنا لها اثناء المناقشة) .

« ٤ — ما هو أفضل الحلول ؟ (وقد اعتدت من قبل ، أن ادخل قاعة الاجتماع مع مساعدى الذين أرهتهم القلق ساعات طوال ، فحدا بهم الى الدوران حول المشكلة فى حلقات مفرغة دون أن يستخلصوا حلاً محدد) .

« وكان من نتيجة هذه الخطة أن قل التجاء مساعدى لعرض مشكلاتهم على . لماذا ؟ لأنهم ، لكى يجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة ، يجب أن يحصلوا على الحقائق المحيطة بالمشكلة كافة ، فإذا توفرت لهم الحقائق كافة ، فغالبا ما يحل ثلاثة أرباع المشكلة من تلقاء ذاته ، ولم يعد حل الباقي يحتاج الى معاونتى .

وحتى اذا أوجبت الظروف مشاورتي ، فان المناقشة لا تستغرق أكثر من ثلث الوقت الذي كانت تستغرقه فيما قبل ، لأنها — أي المناقشة — تسير في طريق مرسوم .

« ونحن الآن ، بفضل هذه الخطة ، نستهلك وقتنا ضئيلا في القلق ومناقشة الأخطاء ، ووقتنا طويلا في « العمل » على تلافى هذه الأخطاء » .

وحدثني صديقي « فرانك بتجر » وهو أحد المشتغلين ببيع عقود التأمين على الحياة ، الناجحة في هذا المضمار ، بأنه استطاع ، لا أن يقلل من القلق وحسب ، بل أن يضاعف أرباحه أيضا ، بانتهاجه خطة مماثلة لتلك التي أسلفنا ذكرها . قال لي مستر بتجر :

« عندما بدأت الاشتغال بالتأمين على الحياة ، كانت تملؤني حماسة لا حد لها ، وشغف شديد بعملى . ثم حدث أن تجمعت في طريقي العقبات والصعاب ، فانتابني اليأس ، وبدأت احتقر العمل وأفكر في تركه . وكنت خليقا بأن اتركه فعلا لو لم يخطر لى ذات صباح ، أن أحاول الوصول الى أسباب القلق الذي يساورنى .

« ١ — سألت نفسى : ما هى المشكلة بالضبط ؟

« واجبت عن هذا السؤال بأن أرباحى من العمل أصبحت لا توازى الجهود الذى ابذله فيه . كنت أذهب الى العميل الذى أريد التأمين على حياته ، فأبدا الحديث معه كأحسن ما يكون البدء ، ويسير بنا الحديث مباشرة بالخير ، حتى اذا حان وقت عقد الصفقة قال لى العميل : « حسنا . دعنى أفكر فى الأمر .. هل لك أن تتفضل بزيارتى فى وقت آخر ؟ » هذا الجهود الذى يضيع سدى هو منشأ مشكلتى ، وهو الذى يسبب لى اللق .

« ٢ — وعدت أسأل نفسى : ما هى الحلول الممكنة لهذه

المشكلة ؟

« ولكى أجيب عن هذا السؤال، كان لزاما على أن أدرس الحقائق المحيطة بمشكلتى ، وعمدت الى سجل الصفقات التى أنتمتها خلال الاثنى عشر شهرا الماضية ، فاستخرجتها ودرستها، واذ ذاك تكشفت لى حقيقة مدهشة ! وجدت أن ٧٠ فى المائة من مجموع صفقاتى تمت من المقابلة الأولى ، وأن ٢٣ فى المائة من هذه الصفقات تمت من المقابلة الثانية ، وأن ٧ فى المائة فقط من الصفقات تمت من المقابلة الثالثة .

فما أكثر هذه الصفقات الأخيرة هى التى كانت تثير فى القلق والنقمة على العمل ! أى اثنى — بمعنى آخر — سمحت للقلق واليأس ، والتوتر أن تعصف بى من أجل ٧ فى المائة فقط من مجموع الصفقات التى أعقدها !

« ٣ — ما هو أفضل الحلول ؟

« وأصبح الجواب عن هذا السؤال هينا : يجب أن أمتنع عن الاسترسال فى صفقة لا تتم بعد المقابلة الثانية . وقد فعلت هذا وانفقت الوقت الذى توفر لى ، كنتيجة لذلك ، فى محاولة ، عقد صفقات جديدة ، فلم يمض وقت قصير حتى استطعت أن أضاعف دخلى ، اذ تضاعفت صفقاتى » .

وقد أسلفت أن مستر « فرانك بتجر » هو الآن أحد الناجحين فى ميدان التأمين على الحياة ، فهو يعقد سنويا عقود تأمين قيمتها مليون دولار . وبرغم هذا ، فقد أشرف فى وقت ما على ترك هذا العمل المربح ، والتسليم بالخيبة والفشل !

وانت تستطيع ، بالإجابة عن هذه الأسئلة الأربعة السالفة الذكر ، أن تحل المشكلات الخاصة بعملك فتوفر على نفسك القلق الناجم عنها . وها أنا أعيد عليك التحدى الذى بدأت به هذا الفصل . « أنك تستطيع أن تطرد خمسين فى المائة من القلق المتعلق بعملك اذا أنت أجبت عن هذه الأسئلة الأربعة ، وعملت وفقا لإجابتك » .

الجزء الثانى فى سطور الطرق الأساسية لتحليل القلق

القاعدة رقم (١) :

استخلص الحقائق ، واذكر قول العميد هوكس : « ان نصف القلق فى العالم منشؤه محاولة الوصول الى قرارات حاسمة قبل ان تكتمل لدينا المعلومات الكافية لاتخاذ قرار» .

القاعدة رقم (٢) :

بعد ان ترن الحقائق بعناية ، اتخذ قرارا .

القاعدة رقم (٣) :

متى اتخذت قرارا حسيفا ، اقدم على تنفيذه ، ولا تتهيب العواقب .

القاعدة رقم (٤) :

عندما يساورك القلق على عملك ، اجب عن هذه الاسئلة الأربعة ودون اباجتك :

(١) ما هى المشكلة ؟

(ب) ما سبب المشكلة ؟

(ج) ما هى الحلول الممكنة ؟

(د) ما هو أفضل الحلول ؟

تسعة اقتراحات

للحصول على أقصى فائدة من هذا الكتاب

١ — إذا أردت أن تستفيد أقصى الفائدة من هذا الكتاب، فهناك مطلب لا غنى عنه، مطلب هو أهم من كل المبادئ والقواعد الواردة في الكتاب، وما لم يتوفر لك هذا المطلب، فإن الف قاعدة والف طريقة لن تغنيك شيئاً .

فما هو هذا المطلب السحري ؟ هو : رغبة عميقة راسخة في الإفادة من هذا الكتاب، وتصميم قوى على قهر القلق والتغلب عليه، وبدء حياة جديدة سعيدة .

فكيف تنمى في نفسك هذه الرغبة ؟ بأن تذكر نفسك على الدوام بأهمية المبادئ التي يتضمنها هذا الكتاب . صور لنفسك أن العمل بمقتضى هذه المبادئ سوف يعينك على أن تحيا حياة حافلة سعيدة . قل لنفسك مرارا وتكرارا « ان راحتى الذهنية، وسعادتى، وصحتى، وربما دخلى — بمرور الزمن — تعتمد على تطبيق هذه الحقائق العملية والواردة في هذا الكتاب » .

٢ — اقرأ كل فصل من هذا الكتاب قراءة أولية سريعة لتستخلص الفكرة العامة . وقد يغريك هذا على أن تنتقل الى الفصل الذى يليه، ولكن لا تفعل . . اللهم الا اذا كنت تقرأ لمجرد التسلية . اما اذا كنت ترغب فى ان تتهر القلق وتبدأ الحياة، فاعمد ثانية الى الفصل الذى قرأته سريعا، وتعمق فى قراءته، وسوف ترى، بمرور الوقت أن هذه الطريقة أحفظ للوقت وأجدى نفعاً .

٣ — توقف فى خلال قراءتك، وفكر فيما قرأت . سائل نفسك : متى وأين تطبق كل اقتراح طالعت . فمثل هذه القراءة أفضل وأنفع من أن تنطلق كالسهم قارئاً الفصل تلو الفصل .

٤ — اقرأ هذا الكتاب وأنت ممسك بقلم أحمر فى يدك، حتى اذا كان اقتراحا ترى أن فى وسعك تطبيقه ضع علامة أمامه،

أما إذا كان اقتراح ذو أهمية خاصة لك ، فارسم تحت كل عبارة من عباراته خطأ ، أو ضع أمامه هذه العلامة (x x x) . فان وضع العلامات على الكتاب يجعله أكثر نفعا ، وأسهل في المراجعة .

٥ — اعرف رجلا قضى خمسة عشر عاما في منصب مدير شركة كبرى من شركات التأمين على الحياة ، وهو يقرأ مرة في كل شهر جميع عقود التأمين التي أبرمتها شركته . لماذا ؟ لأن التجربة علمته أن هذه هي الطريقة التي يستطيع بها أن يحفظ في ذهنه البنود التي يحتويها كل عقد .

وقد أنفقت أنا سنتين في تأليف كتاب في فن الخطابة العامة ، وبرغم ذلك ، أراني مضطرا لمراجعة كتابي من حين لآخر لكي أتذكر ما كتبته أنا نفسي ، فان السرعة التي ننسى بها مدهشة جدا .

وإذن ، فاذا أردت أن تحصل على فائدة حقيقية دائمة من هذا الكتاب فلا تحسب أن مطالعتك إياه مرة واحدة تكفى ، فبعد أن تقرأه بامعان ، ينبغي أن تخصص بضع ساعات كل شهر لتراجعه مرة أخرى . احتفظ به على مكتبك ليكون في مواجهتك كل يوم ، تصفحه بقدر ما تستطيع ، وتذكر أن تطبيق هذه المبادئ لن يصبح عادة راسخة ما لم تداوم على مراجعتها وتنفيذها يوما بعد يوم .

٦ — قال برناردشو مرة : « إذا علمت انسانا شيئا ، فانه لن يتعلم قط » وبرنارد شو على حق . فان « التعلم » عملية ايجابية لا سلبية ، ونحن نتعلم حين « نعمل » . ومن ثم فاذا أردت أن تستفيد من القواعد الواردة في هذا الكتاب ، فجربها ، واعمل بها ، وطبقها في كل فرصة تسنح لك ، فاذا لم تفعل هذا ، فسوف تنساها سريعا ، فان المعرفة التي « نستخدمها » هي وحدها التي تعلق بأذهاننا . وانا أعلم أنك قد تجد صعوبة في الدأب على تطبيق هذه المبادئ ، أنا أعلم هذا ، لاننى كتبت هذا الكتاب

وبرغم ذلك فكثيرا ما أجد صعوبة في تطبيق كل ما أوردته فيه ،
وأذكر دائما ، وأنت تقرا هذا الكتاب ، أنك لا تجمع المعلومات
وحسب ، وإنما تكتسب « عادات » جديدة ، بل نمطا جديدا في
الحياة ، وهذا يتطلب وقتا ، ومثابرة . فارجع الى هذا الكتاب
ما أمكنك ، واعتبره مرشدا عمليا في التغلب على القلق . وعندما
تواجهك مشكلة ، لا تسمح لخواطرك بالاهتياج ، ولا تتبع خاطر
الذي توحيه اليك لحظة انفعال . فهو عادة خاطيء . وإنما قلب
صفحات هذا الكتاب ، وراجع الفقرات التي وضعت أمامها
علامات بالقلم الأحمر ، ثم جرب القواعد التي تضمنتها ، وانظر
آية الأعاجيب سيحققها لك تطبيق هذه القواعد .

٧ — راهن زوجتك على أن تمنحها « شلنا » في كل مرة
تضبطك فيها متلبسا بخرق أحد المبادئ الواردة في هذا الكتاب،
فإن خشيتك من الإفلاس سوف تحدو بك الى المحافظة على تطبيق
هذه المبادئ ! .

٨ — انظر الفصل الثانی والعشرين من هذا الكتاب ،
واقرا كيف استطاع « هـ . بـ . هـ . هـ . هـ » و « بنجامين فرانكلين »
أن يصححا أخطاءهما . فلماذا لا تستخدم طرق هـ . هـ و فرانكلين؟
إنك لو فعلت لنميت قدرتك على قهر القلق ، وشحذت رغبتك في
بدء حياة جديدة سعيدة .

٩ — احتفظ بمذكرة تدون فيها انتصاراتك الناشئة عن
تطبيق هذه المبادئ ، فالاحتفاظ بمثل هذه المذكرات سيحفزك على
بذل مجهود أكبر . وما أروع أن تتجلى هذه الانتصارات لعينيك
حين ترجع اليها فتستعيد ذكراها في مقبل أيامك .

اجمال

- ١ — اخلق في نفسك رغبة قوية في تطبيق المبادئ الواردة في هذا الكتاب .
- ٢ — اقرأ كل فصل من هذا الكتاب مرتين قبل ان تنتقل الى الفصل الذى يليه .
- ٣ — توتف كثيرا خلال قراءتك ، وسائل نفسك ، كيف تستطيع تطبيق كل اقتراح صادفته .
- ٤ — ضع علامات بالقلم الأحمر امام كل فكرة هامة .
- ٥ — راجع هذا الكتاب مرة كل شهر .
- ٦ — طبق هذه المبادئ في كل مناسبة تسنح لك ، واعتبر هذا الكتاب مرشدا عمليا يساعدك على حل مشكلاتك اليومية .
- ٧ — اتخذ من تطبيق هذه المبادئ تسلية .. وذلك بأن تمنح زوجتك ، او صديقك ، او قريبك « شلنا » في كل مرة يضبطك فيها متلبسا بخرق احد هذه المبادئ .
- ٨ — راجع كل اسبوع مدى التقدم الذى احرزته .
- ٩ — احتفظ بمذكرة ، تسجل فيها كيف ومتى طبقت المبادئ الواردة في هذا الكتاب ، والنتيجة التى عادت عليك من تطبيقها .

الحزب الثالث

كيف تحطم عادة القلق قبل أن يحطملك

الفصل السادس

كيف تطرد القلق من ذهنك

لن أنسى تلك القصة التي رواها لي « ماريون دو جلاس » ، وليس هذا اسمه في الواقع ، فقد رجاني لأسباب خاصة ، إلا اكتشف عن شخصيته ، روى لي « ماريون » كيف طرقت الخطوب باب بيته ، لا مرة واحدة ، بل مرتين ، ففي المرة الأولى فقد ابنته البالغة من العمر خمسة أعوام ، وكان يجبها حبا جما ، فظن هو وزوجته أنهما لن يقويا على احتمال هذه الفجيعة ، ثم لم تمض عشرة أشهر ، حتى رزقا بطفلة أخرى ، ولم تلبث هذه الطفلة أياما خمسة حتى ماتت ! حدثني هذا الرجل ، فقال : كانت هذه الفجيعة المزدوجة أكثر مما احتمل ، فقد عافت نفسي بعدها الطعام ، ولم أعد أعرف طعم النوم ، وتوترت أعصابي ، وتبددت ثقتي بنفسي ، وتولاني المرض ، وقصدت أخيرا إلى الأطباء ، فوصف لي أحدهم دواء منوما ، ووصف لي آخر رحلة لتغيير الجو والمناظر وجريت كلتي الوصفتين ، ولكن بلا طائل ، كنت أحس كأن جسمي يحتويه فكا كماشة حديدية يزدادان انطباقا على مر الأيام ، ذلك هو ألم الحزن ، وإذا كنت قد جربت الحزن ، فلا شك أنك تعلم ما أعني .

« ولكنني اليوم أحمد الله على أن وهبني طفلا هو الآن في الرابعة من عمره ، وطفلي هذا هو الذي هداني إلى حل لمشكلتي ، ففي ذات مساء ، كنت جالسا أستعيد أحزاني ، حين سألتني

طفلى : « بابا .. هل صنعت لى قارباً ؟ » ولم اكن فى حال تسمح لى بصنع قارب ، او صنع اى شىء آخر ، ولكن طفلى عنيد لحوح ، فلم يسعنى الا الامثال ، وانفقت فى صنع هذه اللعبة ثلاث ساعات ، فلما انتهيت أدركت أن هذه الساعات الثلاث التى قضيتها فى صنع القارب ، وكانت الساعات الأولى التى أحسست فيها بالراحة الذهنية التى تولت عنى منذ شهر .

« وقد حفزنى هذا الإدراك على أن أخرج من جمودى ، وأفكر .. أفكر تفكيراً صحيحاً لم أعده منذ شهر . فقد رأيت أن القلق سرعان ما يتلاشى إذا أنا انشغلت بعمل يتطلب شيئاً من الابتكار والتفكير ، وعلى هذا عولت على أن أظل مشغولاً بعملى .

« ففى الليلة التالية ، رحلت أنتقل فى غرف منزلى ، وأضع قائمة بالأشياء التى يلزمها التصليح ، واحتوت القائمة بنوداً كثيرة . حقائب ، ونوافذ ، وستائر ، وأقفالاً ، وصنابير ولم يمض أسبوعان ، حتى كانت القائمة تحتوى على ٢٤٢ بنداً تتطلب الإصلاح .

« وفى خلال العامين الماضيين ، أمكننى إصلاح معظم هذه الأشياء ، وانغمرت - فضلاً عن هذا - فى كثير من أوجه النشاط . فأنا الآن أضر برامج الطلبة البالغين فى نيويورك ليلتين فى الأسبوع ، وأنا عضو فى كثير من الجمعيات الخيرية فى بلدى ، ورئيس مجلس إدارة مدرسة البلدة ، كما أضر كثيراً من المحاضرات ، وأساهم فى جمع التبرعات لجمعية الصليب الأحمر وغيرها ، لقد أصبحت مشغولاً لدرجة أنه لم يعد لى وقت للقلق . »

« لا وقت للقلق ! هذا بالضبط ما قاله « ونستون تشرشل » عندما كان يشتغل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، حين كانت الحرب فى ذروتها ، ولما سئل هل هو قلق من جراء

المسئوليات الضخمة اللقاة على عاتقه ؟ قال : « انى مشغول جدا ، الى حد أنه ليس لدى وقت للقلق » .

وكذلك كان « تشارلس كترنج » عندما بدأ يخترع محركا ذاتيا للسيارة ، كان مستر كترنج وكيلا لشركة « جنرال موتورز » مشرفا على الأبحاث التى تجريها هذه الشركة ، لكنه مر عليه وقت عرف فيه الفقر المدقع ، حتى انه أنشأ معمله فى جانب من حظيرة ، واقترض من زوجته ألفين وخمسمائة دولار ، لكى يزود معمله بالعدد والآلات — وكانت زوجته قد جمعت هذا المبلغ من اعطاء دروس خصوصية فى العزف على البيانو — كما اقترض خمسمائة دولار ، على حساب « بوليصة » التأمين على حياته ، وقد سألت زوجته يوما هل كانت تشعر بالقلق فى ذلك الوقت ، فأجابتنى : « نعم ، كنت قلقة ، حتى اننى لم أستطع النوم ، ولكن مستر كترنج لم يكن كذلك ، فقد كان مستغرقا فى عمله ، فلم يجد لديه وقتا يسمح له بالقلق ! » .

وقد تحدث العالم الفرنسى « باستير » عن « السلام الذى يجده المرء بين جدران المكتبات . أو المعامل » فلماذا يا ترى يجد المرء السلام هناك ؟ لأن الناس فى المكتبات أو فى المعامل مستغرقون عادة فى المطالعة أو البحث ، فلا يتوفر لديهم وقت للقلق .

ان الباحثين والعلماء ، قلما يصنابون بانهيار عصبى ، فليس فى وقتهم متسع لهذا « الترف ! » .

فما هو السبب فى أن امرا هينا كاللاستغراق فى العمل يطرد القلق ؟ السبب فى ذلك هو أحد القوانين الأساسية التى اكتشفها علم النفس ، وهذا هو : « من المحال لأى ذهن بشرى ، مهما يكن خارقا ، أن ينشغل بأكثر من أمر واحد فى وقت واحد » .

الا تصدق هذا ؟ حسن ، دعنا نجرب تجربة ... اضطجع الآن فى متعديك ، واغمض عينيك ! وحاول أن تتخيل تمثال الحرية

وان تتصور في الوقت نفسه شيئا مما أعدته للتفنيذ غدا ...
هيا ... جرب ! .

الآن عرفت ... اليس كذلك ؟ ان في استطاعتك ان تتخيل
كلا من الشينين على حدة ، اما الاثنين ، في وقت واحد ، فلا !
وكذلك في الاحساسات ، فليس في استطاعتنا ان نتحمس لعمل
مثير ، ونحس بالقلق في الوقت نفسه ، فان واحدا من هذين
الاحساسين يطرد الآخر ، وهذا القانون البسيط هو الذى مكن
الاطباء النفسيين الملحقين بالجيش من ان يأتونا بالعجائب خلال
الحرب ، عندما كان يأتى اليهم الجنود الذين ضعفت الحرب
اعصابهم ، كانوا يقولون : « اشغلوهم بعمل ما » .

فاذا انشغل هؤلاء المصدومون بأحد أوجه النشاط ، كصيد
السمك ، أو لعب الكرة ، أو التصوير ، أو رى الحداثق ، أو
الرقص لم يعمد انشغالهم يسمح لهم بالتفكير فيما مر بهم من
تجارب مروعة Occupational herapy .

وقد أصبح اسم « العلاج الوظيفى

يطلق الآن على ذلك الفرع من الطب النفسى الذى يصف
« الوظيفة » أو العمل كعلاج . وليس هذا العلاج بجديد ، فاطباء
الاغريق القدماء ، كانوا ينصحون به قبل الميلاد بخمسمائة عام .
وكانت جماعة « الكويكرز » تستخدمه في « فيلادلفيا » في عهد
« بنجامين فرانكلين » . وقد ذهل أحد زائرى مصحح الكويكرز في
عام ١٧٧٤ ، عندما شاهد مرضى العقول منهكين في غزل الكتان
فقد ظن ان هؤلاء المساكين يستغلون أسوأ استغلال ، الى ان
شرح له « الكويكرز » ان مرضاهم يبرأون من عللهم عندما
ينهمكون في العمل ، فهو يهدى اعصابهم ، ويسكن خواطرهم .

ان اى طبيب نفسانى يسعه ان يؤكد لك ان الانشغال
بالعمل هو أعظم مسكن للأعصاب الثائرة . وقد أدرك الشاعر
« هنرى لونجفيلو » هذه الحقيقة عندما فقد زوجته الشابة ،

كانت زوجته تصهر ذات يوم ، قطعة من شمع الأختام على لبيب شمعة ، فامتدت النار الى ثيابها ، وسمع لونجنيلو صراخها ، وحاول ان يتدارك الكارثة . ولكن زوجته ماتت متأثرة بحروقها . ولبت لونجنيلو زمنا معذبا بذكرى هذا الحادث الاليم ، حتى أوشك على الجنون ، ولكن اطفاله الثلاثة — لحسن حظه — كانوا في حاجة الى رعايته، فاضطر ، برغم حزنه الى أن يتعهدهم بالرعاية ، وأن يكون لهم ابا وأما في آن معا . . وكان يصطحبهم الى النزهة ، ويقص عليهم الاتاخيص ويشاطرهم لعبهم ، حتى لقد خلد صحبتته لهم في قصيدة عنوانها « ساعة الأطفال » كما انه عكف على ترجمة بعض مؤلفات الشاعر « دانتي » فاستطاعت هذه الأعمال مجتمعة ، أن تشغله عن نفسه ، وحفظت له سلامة عقله . لقد قال الشاعر « تنيسون » عندما فقد أعز صديق له « وهو آرثرهالام » « على أن أنشغل عن نفسي بالعمل ، والا هلكت أسي » .

اننا لا نحس للقلق اثرا ، عندما نعكف على أعمالنا ، ولكن ساعات الفراغ التي تعقب العمل ، هي أخطر الساعات طرا . فعندما يتاح لنا وقت الفراغ لا تلبث شياطين القلق أن تهاجمنا وهناك فقط نتساءل : ألا ترانا نحصل من الحياة علي ما نبتغي ؟ ألا ترى ان كان « الرئيس » يعني شيئا بملاحظته التي أبدأها اليوم ؟ أترانا مرضى ؟ أترى شعرنا في سبيله الى السقوط ؟

ان أذهاننا توشك أن تكون خاوية عندما نفرغ من أعمالنا، وكل طالب درس الطبيعة يعلم أن « الطبيعة تمقت الفراغ » ، وكعجربة على ذلك . أحدث ثقبا في مصباح كهربائي مفرغ من الهواء ، وسوف ترى أن الطبيعة عندئذ ستدفع بالهواء الى داخل المصباح ليملا الفراغ ، كذلك تسرع الطبيعة الى ملء العقل الفارغ ، بماذا ؟ بالعواطف والاحساسات غالبا ، لماذا ؟ لأن الاحساسات مثل القلق . والخوف ، والمقت ، والغيرة والحسد مدفوعة بقوة بدائية عنيفة ، متوارثة من عهد الغابة ، وهذه

الاحساسات من القوة بحيث يسعها ان تبدد السلام من عقولنا .
وقد عبر عن هذه الظاهرة الأستاذ « جيمس مرسل » أستاذ
التربية بكلية المعلمين بجامعة كولومبيا ، بقوله : « ان القلق
يكون اقرب الى الاستحواذ عليك . لا في اوقات عملك وانما في
وقت فراغك من العمل ، فالخيال اذ ذاك يجمع ما شاء له
الجموح ، ويقلب كل صنوف الاحتمالات ، ويعيد ذكرى كل هفوة
ارتكبتها ، في هذا الوقت ، يكون عقلك أشبه بسيارة متدفقة في
الطريق بغير سائق وبغير ركاب ، فهي تمزق هنا وهناك كالسهم ،
وتهدد بالانفجار ، وتدمر نفسها في أية لحظة وعلاج هذه الحالة
سهل ميسور ، هو ان تنشغل بعمل انشائي مجد » وأنت لاحتياج
لأن تكون أستاذا في الجامعة ، لكى تدرك هذه الحقيقة ، وتعمل
بمقتضاها ! .

* * *

قابلت في خلال الحرب سيدة من اهل شيكاغو ، فروت لى
كيف أدركت بنفسها هذه الحقيقة ، وكيف اهتدت الى علاج القلق
بالاستفراق في العمل . لقيت هذه السيدة وزوجها في عربة
الأكل بالقطار المسافر من نيويورك الى ميسورى . فأخبرانى ان
ولدهما الوحيد التحق بالجيش في اليوم التالى لهجوم اليابانيين
على « بيرل هاربور » ، وقالت السيدة : انها أوشكت على
تحطيم صحتها من جراء قلقها على ابنها الوحيد اذ لم تكن تفتأ
تتساءل : اين هو ؟ أهو آمن ؟ أم هو مشترك في المعركة ؟ أتراه
يجرح ؟ أو يقتل ؟ وسألتها كيف تغلبت على هذا القلق . فأجابت
« انشغلت بالعمل » ، ثم استطردت فقالت انها سرحت خادمتها ،
وأخذت تدبر بنفسها شئون البيت . . ولكن هذا لم يجدها كثيرا .
تالت لى : « لقد وجدت ان تدبير شئون البيت بطريقة آلية ،
لم يحل بينى وبين مواصلة التفكير والقلق ، ومن ثم أدركت اننى
في حاجة الى نوع آخر من العمل غير تسوية المخادع ، وغسل
الأواني : نوع آخر من العمل يشغل جسدى وعقلى طوال

ساعات النهار . ولهذا اشتغلت في أحد المتاجر الكبيرة ، وقد وفى هذا العمل بالمطلوب ، إذ اللغيت نفسى وسط حلقة متصلة من النشاط : فالعملاء يتزاحمون أمامى ، سائلين عن الأمان ، والأحجام والألوان ، فلم تتح لى ثانية واحدة أفكر فيها فى شىء آخر سوى عملى . وعندما يأتى الليل ، لم أكن أفكر الا فى راحة قدمى اللتين كلنا من الوقوف طوال اليوم . فما ان اتناول عشائى حتى أستغرق فى نوم عميق . »

لقد اكتشفت هذه السيدة ما كان يعنيه « جون كوبر بويوز » عندما قال فى كتابه « فن نسيان الشقاء » (١) : « ان احساسنا بالاطمئنان والسلام النفسى ، والاسترخاء الهنىء ، يطغى على أعصاب الانسان عندما يستغرق فى العمل . »

أفضت الى أخيرا « أوزا جونسون » الرحالة الذائعة الصيت ، بالطريقة التى تخلصت بها من القلق . وقد تكون قرأت قصة حياة هذه الرحالة فى كتابها « تزوجت المغامرة » (٢) . تزوجت هذه المرأة من « مارتن جونسون » وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، وانتقل بها زوجها فى تلك السن المبكرة ، من بلدة « كابوت » بولاية كانساس ، الى أدغال جزيرة يورنيو ، وأمضى الزوجان فى الترحال ربع قرن من الزمان ، قدما فى خلاله للسينما صورا من الحياة البدائية ، التى توشك على الانقراض فى آسيا ، وأفريقيا . وعندما عادا الى أميركامنذ تسع سنوات ، اعتزما أن يتجولا فى أنحاءها لالقاء سلسلة من المحاضرات ، ولعرض أفلامها الشهيرة ، واستقلا الطائرة من « دنفر » متجهين الى الساحل ، فما لبثت الطائرة أن ارتطمت بقمة جبل فسقطت ، وقتل مارتن جونسون لساعته ، وقدر الأطباء أن « أوزا » لن تقارق

Jhon Cowper Poyws ; "The Art of Forgetting (1)
the Uopleasant"

Osa Johnson ; "Imarried Adventure" (2)

مخدعها بعد ذلك اليوم ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون « أوزا جونسون » ! فما مضت ثلاثة أشهر ، حتى كانت أوزا تجلس في مقعد ذى عجلات . وتلقى محاضرة في جمع غفير من المستمعين ! بل انها القت في ذلك الموسم اكثر من مائة محاضرة ، القتها كلها وهى جالسة في مقعدها ذى العجلات . وعندما سألتها لم فعلت هذا ؟ اجابت : « لقد فعلته لكى لا اتيح لنفسى وقتا للأسف او القلق » .

لقد اكتشفت « أوزا جونسون » الحقيقة التى تغنى بها الشاعر تينسون قبل ذلك بقرن تقريبا : « على أن انشغل عن نفسى بالعمل والا هلكت أسى » .

واكتشف الأيرال بيرد « هذه الحقيقة نفسها ، عندما عاش خمسة أشهر وحيدا في خيمة مظمورة في ثلوج القطب الجنوبي . قضى الأيرال بيرد خمسة أشهر هناك وحيدا ، ليس معه ، ولا على بعد مائة ميل منه ، مخلوق من أى نوع كان . وكان الزمهرير من الشدة بحيث كان ، « بيرد » يسمع صوت أنفاسه وهى تتجمد عندما تتخطفها الرياح الباردة ! .

وقد روى الأيرال بيرد في كتابه « وحيد » (١) قصة هذه الشهور الخمسة التى قضاها في القطب الجنوبي ، حيث كانت الأيام والليالى في الظلام سواء .

هناك كان على « بيرد » أن يشغل نفسه بعمل ، ليحفظ بسلامة عقله . وقد قال في كتابه :

« في الليل قبل أن اطفى المصباح لأوى الى فراشى ، كنت أصور لنفسى عمل الغد . كنت أقدم الغد ، في خيالى ، الى ساعات ، فأخصص منها — مثلا — ساعتين للعمل في انشاء نفق ، وساعة لازالة الثلوج المتراكمة ، وساعة لتركيب أرفف للكتب في عربة

(١) Admiral Byrd 'Alone'

الطعام ، وساعتين لاصلاح « الزحافة » ، وبهذا كنت اقطع الوقت ، واحسب انه لولا هذه الطريقة أو ما يشابهها ، لاصبحت أيامى بلا هدف ولا غاية ، ولو انها اصيحت بلا هدف ولا غاية ، لانتهت بهلاك محقق « فاذا عاودك القلق فاذاكر أن فى استطاعتك استخدام « العمل » كدواء له ، وقد اكد هذه الحقيقة الدكتور « ريتشارد كابوت » أستاذ الطب بجامعة هارفارد سابقا ، فى كتابه « ما الذى يعيش به البشر » (١) اذ قال : لقد أسعدنى ، كطبيب ، أن ارى «العمل» يشفى أشخاصا كثيرين ، كانوا يعانون «الشلل الزوجى» الذى أعقبته احساسات : الشك ، والتردد ، والخوف ، المسيطرة عليهم .

اذا لم تنشغل أنت وأنا بالعمل ، واذا جلسنا فى أماكننا واطلقنا العنان لخواطرنا ، فسوف يتبدد نشاطها هباء ، وتتوزع اردتنا .

أعرف رجل أعمال فى نيويورك ، كافح القلق ، بأن أسلم نفسه للعمل . حتى لم تبق لديه دقيقة واحدة من الفراغ . هذا الرجل هو « ترمير لونجمان » وهو طالب فى برامجى للطلبة البالغين ، وكان حديثه الذى ادلى به أمام الفصل . عن طريقة قهر القلق ، اخاذا ، رائعا . حتى اننى دعوته للعشاء معى ، عقب انتهاء الفصل ، وجلسنا نتحدث فى مطعم ، حتى جاوزت الساعة منتصف الليل .

وهذه هى قصته التى رواها لى : « منذ ثمانية عشر عاما ، اجتاحتنى قلق شديد أعقبه أرق مضمّن حتى خشيت أن اصاب بانهيار عصبى . ولهذا القلق سبب ، فقد كنت أشتغل أمين خزينة فى «شركة كراون» لعصير الفاكهة ، القائمة فى برودواى رقم ٤٨ ، بنىويورك . وكنا نستثمر نصف مليون دولار فى تعبئة عصير الفراولة فى صفائح سعة الواحدة منها جالون ، وانقضت عشرون سنة ونحن نبيع هذه الجالونات من عصير الفراولة للمحلات

(1) Dr. Richard C. Cabot; "What Men Live By"

الكبرى التى تصنع «الجيلاتى» . وفجأة ، توقفت مبيعانا ، لأن المحلات الكبرى أصبحت تنتج بنفسها عصير الفراولة ، فاستفنت بهذا عنا ، ووجدنا أنفسنا اذ ذاك أمام كارثة مالية محققة : فقد اقترضنا من المصارف . . . ٣٥٠ دولار ، ولم يعد فى إمكاننا تسديد القرض ، فلم يكن عجا أن ينتابنى القلق .

« وهرعت الى بلدة « واطسونفيل » بكاليفورنيا ، حيث توجد مصانعنا ، وحاولت أن أقنع الرئيس بأن الأحوال تغيرت ، وأننا نواجه خرابا محققا ، لكنه رفض أن ينصت لى ، وصب اللوم كله على فرع الشركة فى نيويورك ، حيث أعمل ، متهما اياه بأنه يتهاون فى بذل الجهود .

« ولكنى داومت على محاولة اقناعه ، حتى اقتنع أخيرا ، ووافق على أن نعكف عن تعبئة عصير الفراولة ، وأن نحاول تصريف ما لدينا من الفراولة الطازجة فى سوق سان فرانسيسكو . وبهذا أوشكت مشكلتنا أن تحل ، وكنت خليقا اذ ذاك ، أن أكف عن القلق ولكنى لم أستطع ، ان القلق عادة ، ولقد اعتدت عليه ، فما ان عدت الى نيويورك حتى بدأت أقلق على كل شىء ، على «الكريز» الذى نبتاعه من ايطاليا ، « والخوخ » الذى نستورده من هاواى ، وهكذا . . ولم أعد أستطيع النوم ، وتخيلت أننى — كما أسلفت — على وشك انهيار عصبى . وفى غمرة يأسى ، اهدتيت الى خطة جديدة فى الحياة ، شفنتى من الأرق ، ووضعت حدا للقلق الذى يساورنى . لقد انشغلت بمسائل تتطلب تضامر جميع حواسى ، حتى لم يعد لى وقت للقلق . كنت من قبل أشتغل سبع ساعات فى اليوم . فأصبحت أشتغل خمس عشرة ساعة أو أكثر ، صرت اذهب الى المكتب فى الثامنة صباحا ، فلا أغادره الا بعد منتصف الليل . فاذا عدت الى بيتى ، بعد منتصف الليل ، يكون التعب قد انهكنى ، فأناطرح على الفراش ، واستغرق فى النوم لساعتى ، وواظبت على هذا البرنامج قرابة ثلاثة أشهر ، وسعنى خلالها أن احلم عادة القلق ، فعدت الى الحياة العادية ، وأصبحت أشتغل

سبع ساعات في اليوم كما كنت أفعل من قبل . حدثت هذه الواقعة منذ ثمانية عشر عاما ، ومنذ ذلك الحين لم يعاودنى الأرق قط .

ولقد لخص جورج برناردشو هذه الحقيقة تلخيصا رائعا حين قال : « ان سر الاحساس بالتعاسة هو ان يتوفر لديك الوقت لتتساءل أسعيد أنت أم لا ؟ » ومن ثم يجب الا تتوقف لتفكر أسعيد أنت أم لا ؟ . انفخ في يديك ، واعمد الى العمل في غير ابطاء ، هنالك سجرى الدم في عروقتك ، وسيمتلىء ذهنك بالأمكار الانشائية ، ثم ما هو الا وقت قصر ، حتى يطرد هذا الموقف الايجابي القلق من ذهنك .

« انشغل ، والبث منشغلا » هذا هو أرخص اصناف الدواء الموجودة في العالم ، واعظمها اثرا ..

واذن فلكي تحطم عادة القلق ، اليك القاعدة رقم ١ :

**استغرق في العمل .. اذا ساورك القلق ، انشغل عنه بالعمل ،
والا هلكت ياسا واسبى .**

الفصل السابع

لا تدع الهوام تغلبك على امرك

هاهى ذى قصة مأساة ، اعتقد اننى لن انسها ما حييت ، وقد رواها لى بطلها « روبرت مور » من اهالى مدينة «ميلوود» بولاية « نيوجرسى » ، قال : « تلقيت اعظم درس فى حياتى على عمق ٢٧٦ قدما تحت سطح الماء ، تجاه ساحل الهند الصينية . كان ذلك عام ١٩٤٥ وانا يومئذ واحد من ثمانية وثمانين بحارا يعملون على ظهر الغواصة « بايا » . وفى ذات يوم انبأنا جهاز « الرادار » ان قافلة يابانية تتقدم نحونا ، فما ان اقترب مطلع الفجر ، طفت غواصتنا على السطح استعدادا للهجوم . ولاحث لبا خلال « اليريسكوب » مدمرتان يابانيتان وسفينة لبث الالغام . فأطلقنا ثلاثة «طوربيدات» على احدى المدمرتين ، ولكننا أخطأناها . وبينما نحن نتأهب لمعاودة الكرة ، اذا بالسفينة الثالثة تستدير فى مواجهتنا ، وتقترب منا سريعا — فقد استكشفت طائرة يابانية موقعنا ، وابلغته الى السفينة اليابانية باللاسكى — فهبطنا بالغواصة على عمق ١٥٠ قدما ، وأوقفنا المحركات حتى لا يسمع للغواصة صوت .

« وبعد ثلاث دقائق فتحت أبواب الجحيم ! فقد انفجرت حولنا ست من قنابل الأعماق ، دفعتنا بقوة الضغط الى عمق ٢٧٦ قدما! وتولانا الفزع . فان أشد ما تخشاه الغواصات هو ان يهاجمها العدو وهى فى عمق يقل عن ألف قدم ، فما بالك وقد كنا فى عمق يزيد قليلا على ربع هذه المسافة ؟ ان هذا هو الهلاك المحقق ! ولبثت سفينة الالغام اليابانية خمس عشرة ساعة متواصلة تقذفنا بقنابل الأعماق . وكنت فى حال سيئة من الفزع حتى عز على التنفس ، وظللت أقول لى نفسى : « هذا هو الموت المحقق ! هذا والله هو الموت ! » . واذا أوقفنا محركات الغواصة وعددها ، ارتفعت الحرارة بداخلها الى أكثر من مائة درجة ، وبرغم ذلك

فقد كنت أحس أنني أتجمد من فرط الخوف ، حتى أنني ارتديت فوق ثيابي الثقيلة ، معطفا من الفراء ، وبقيت بعد ذلك أرتعش من البرد ، وجعلت أسناني تصطك ، والعرق البارد يتقصد من جسمي . وظلت غواصتنا هدفا للقنابل خمس عشرة ساعة متوالية ، ثم كف الهجوم فجأة . ويبدو أن نائرة الألقام استنفدت ذخيرتها من قنابل الأعماق ، فمضت في طريقها لا تلوى على شيء . ولقد خلت هذه الساعات الخمس عشرة كأنها خمسة عشر مليوناً من السنين ! نفى خلالها انبسطت صفحة حياتي جميعاً أمام ناظري بما حفلت به من توافه واحداث عظام ، ساورنى القلق بسببها زمناً ! فقد كنت قبل التحاقى بالبحرية موظفاً بأحد المصارف ، وكنت دائم الشكوى من ساعات العمل الطويلة ، ومن المرتب البسيط الذى انتقاضه ، ومن أملى الضئيل فى الترقية . كما كنت دائم الحنق ، أنني لا أملك بيتاً ولا سيارة ولا مال لى اتباع به لزوجتى ثياباً ابنة ، وكنت دائم القلق بسبب جرح ظاهر ملحوظ فى جبينى سببه لى حادث سيارة . الا ما أضخم ما كان يلوخ هذا القلق منذ سنين مضت ! وما أسخف ما بدا لى وقنابل الأعماق تتهددنى بالموت تحت لجاج الماء ! لقد قطعت على نفسى عهداً فى ذلك اليوم . لئن قدر لى أن أرى الشمس مرة أخرى فلن أعود الى القلق كائننا ما كان السبب ! ولقد تعلمت من تلك المحنة — والحق أقول — أكثر مما تعلمت من الكتب طيلة السنوات الأربع ، التى قضيتها بجامعة « سيرا كيوز » .

اننا غالباً ما نواجه كوارث الحياة واحداثها فى شجاعة نادرة وصبر جميل ، ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا ! ومن أمثلة ذلك ، ما قاله « صمويل بيبز » فى مذكراته عن « سير هارى فان » حين سيق لتنفيذ حكم الاعدام فيه بضرب عنقه ، فانه لم يلتمس العفو ، ولم يطلب الرحمة ، وانما التمس من الجلاد الا بضرب بسيفه موضعاً فى عنقه كان يؤله ! .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله « الأدميرال بيرد » فى مذكراته عن

ليالى الظلام والزمهرير التى قضاها فى القطب الجنوبي ، فقد ذكر أن رجاله كانوا منشغلين بتوافه الأمور عن الكوارث المحدقة بهم ، وهم يعيشون فى جو درجة حرارته ثمانون تحت الصفر ! قال بيرد : « كان رجالى يختصمون اذا اعتدى أحدهم على المساحة المخصصة لنوم زميل لهم واستقطع لنفسه منها بضع بوصات ! وثمة رجل من رجالى كانت نفسه تعاف الطعام فى مواجهة زميل له اعتاد أن يهضم « اللقمة » ثمان وعشرين مرة قبل أن يزدردا ! ولكننى لأعجب لهذا ، فأنا أعلم أن صفائر كهذه فى معسكر قطبى يسعها أن تسلب عقول أشد الناس تدريبا على الطاعة والنظام . »

وكان يحق للأدميرال بيرد ، أن يضيف الى قوله ذاك ، « ان مثل هذه الصفائر ، فى الحياة الزوجية أيضا ، يسعها أن تسلب الأزواج والزوجات عقولهم ، وتسبب نصف أوجاع القلب التى يعانيتها العالم » .. أو هذا على الأقل ما يقوله الخبراء ، ومنهم القاضى « جوزيف سابات » من قضاة شيكاغو ، فقد صرح ، بعد أن فصل فى أكثر من أربعين ألف قضية طلاق بقوله : « انك لتجسدن التوافه دائما وراء كل شقاء يصيب الأزواج ! » وقال « فرانك هوجان » ، النائب العام فى نيويورك : « ان نصف القضايا التى تعرض على محاكم الجنايات تقوم على أسباب تافهة ، كجدال ينشعب بين أفراد عائلة ، أو اهانة عابرة ، أو كلمة جارحة ، أو إشارة نابية ، أمثال هذه الأسباب التافهة ، هى التى تؤدى الى جرائم القتل . ان الأقلين منا قساة بطبيعتهم ، ولكن نسوالى الخبرات الواهنة الموجهة الى ذواتنا ، وكبرياننا ، وكرامتنا ، هو الذى يسبب نصف ما يعانیه العالم من مشكلات . »

حدثنى « اليانور روزفلت » بأنها حينما تزوجت من الرئيس الراحل ، فرانكلين روزفلت « انتابها القلق يوما . لأن طاهيتها لم تتقن طهو الطعام ، ثم استطردت مسز روزفلت تقول : « ولو ان امرا كهذا وقع لى الآن ، لهزرت كتفى استخفافا ، ونسيت الأمر تماما بعد ساعات . » هذا لعمرى هو تصرف الناضجين .

وقد حدث أن دعيت وزوجتي ، لتناول العشاء في منزل صديق لنا بشيكاغو . وبينما المضيف يوزع علينا الطعام ارتكب خطأ هينا لم لاحظته . وما كنت لأحفل به لو أنى لاحظته ، ولكن زوجته انطلقت أمامنا تعنفه ، قائلة : « انظر يا جون ماذا فعلت ! انك لا تجيد تقطيع اللحم أبدا ؟ ! » ثم التفتت اليها قائلة : « انه يخطيء دائما ، وعلته انه لا يحاول اصلاح خطئه قط ! » وقد يكون هذا الزوج أخطأ فعلا ، ولكنى اكبرته ، لانه استطاع ان يعايش زوجته هذه عشرين عاما ! فانى والحق يقال : افضل ان أتناول شطيرة رخيصة في جو يسوده الهدوء والوئام ، على ان اتعشى ببطة دسمة ، وأستمع في الوقت نفسه الى مثل هذا التعنيف .

وبعد هذا الحادث ، دعت زوجتي لفيفا من الأصدقاء للعشاء في منزلنا ، فلما اقترب موعد وصول الضيوف ، وجدت زوجتي أن ثمة ثلاث مناشف ، لا يتفق لونها مع سائر المناشف الموضوعة على المائدة . وقد حدثتني زوجتي بعد انفضاض الحفلة قائلة : « لقد هرعت توا الى الطاهية ، فوجدت انها احتجزت المناشف لغسلها . وكان الضيوف قد توافدوا ، ولم يكن في الوسع تغيير المناشف ، فأحسست كأننا أوثك ان انفجر من الغيظ . وجعلت أقول لنفسي خائفة : « لماذا تفسد على هفوة كهذه صفاء أمسية بأكملها ! » وفجأة أحسست كأن هاتفا يهتف بى : « ولماذا ادع هفوة كهذه تفسد على صفاء الأمسية ؟ » وقصدت من فورى الى المائدة ، وقد اعتزمت ان أستمتع بالأمسية ، كما أشتهى ، ولقد فضلت ان يظن بى الضيوف الاهمال والتواكل في تدبير شئون البيت ، على ان يظنوا بى سوء الطبع ، وحدة المزاج ، وعلى أية حال . فان احدا من المدعوين لم يلحظ شذوذ المناشف الثلاث » .

هناك حكمة « قانونية » تقول : « ان القانون لا يشغل نفسه بالتوافه » وكذلك لا ينبغى لانسان ان يشغل نفسه بالتوافه ، هذا اذا أراد السلام والاطمئنان .

ان أشد ما نحتاجه للتغلب على هذه التوافه ، هو ان نحول

مجري اهتمامنا وجهة أخرى ، وقد ضرب صديقي « هومر كروي » مؤلف كتاب « كان عليهم أن يشاهدوا باريس » (١) وكثير غيره ، مثلا رائعا في كيفية تطبيق هذا القول . . كان ، وهو عاكف على تأليف احدى قصصه ، يضيق أشد الضيق بصوت مولد الحرارة ، في شقته بنيويورك ، فقد كان هذا المولد يئنز أزيزا متصلا ، يعكر صفوه ، ويشتت أفكاره ، قال لي هومر كروي : « ثم حدث أن ذهبت مع بعض أصحابي الى معسكر خلوى ، وعندما سمعت صوت أغصان الشجر الجافة وهي تتلظى بالنار التي أشعلناها تجاه المعسكر ، الفيت شبيها كبيرا بين صوتها ، وصوت مولد الحرارة في منزلي ، غير أنى أحببت صوت الأغصان وهي تحترق ، ولم أتبرم به ، فما لبثت أن وجدتنى اتساعا ، لماذا أحب هذا الصوت ، وأكره صوت مولد الحرارة ، مع تشابه الصوتين ؟ ومن ثم عولت على أن أروض سمعى على احتمال أزيز المولد ، ولم تمض أيام على هذا العزم ، حتى نسيت اطلاقا ، أن على قيد خطوات من مكتبى مولدا للحرارة يئنز أزيزا متصلا ! » .

وهكذا الحال في كل ما يسبب لنا القلق : اذا نحن بالغنا فى الاهتمام به على تفاهته ، انتابنا القلق من أجله ، واذا نحن لم نعره اهتماما نسيناه اطلاقا .

قال دزرائيلى مرة : « ان الحياة أقصر من أن نقصرها » ، وكتب « أندريه موروا » فى مجلة « هذا الاسبوع Thisweek » يقول : « لقد ساعدتنى هذه الكلمات (يقصد كلمات دزرائيلى) على احتمال أكثر من تجربة مريرة . فنحن غالبا ما نستسمح لأنفسنا بالثورة من أجل توافه ما كان أخلقنا بتجاهلها . ها نحن ، فى هذا العالم ، لا يزيد عمراحد منا عن بضع عشرات من السنين ، وبرغم ذلك ، فاننا ننفق ساعات العمر التى لا يمكن تعويضها فى اجترار أحزان خليقة بأن يطويها النسيان . الا فلنملأ حياتنا بالنشاط

(1) Homer Groy "They Had To See Paris"

الهمر ، والأفكار المجدية ، والأعمال النافعة ، فان الحياة أقصر من أن نقصرها .

ولقد نسي الكاتب « رديارد كبلنج » على المعية وحصافته ، هذه الحقيقة : وهى أن الحياة أقصر من أن نقصرها ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد خاض مع شقيق زوجته غمار أعظم قضية عرفها تاريخ المحاكم فى « فيرمونت » ، وسجلها كبلنج فى كتابه « اقتطاع فيرمونت » (١) .

وهذا هو موضوع القضية : تزوج كبلنج فتاة من « فيرمونت » تدعى « كارولين بالستر » ، وشيد فى بلدة « براتلبورو » بيتا جميلا عاش فيه هو وزوجته ، مؤملا أن يقضى بقية حياته فى دعة وهدوء . وكان « بيتى بالستر » ، شقيق زوجته صديقا مخلصا له . ثم حدث أن اشترى كبلنج أرضا من أراضى « بالستر » ، وقبل اشتراطه بأن يكون له حق حصاد البرسيم منها فى كل موسم . وفى ذات يوم اكتشف بالستر أن كبلنج اقتطع جانبا من الحقل ، وغرس فيه الزهور ، فغلى الدم فى عروقه لهذا الأمر الذى اعتبره اعتداء على حقوقه ، ووجه إلى كبلنج عبارات قاسية مهينة ، فرد عليه كبلنج بمثلها . وما لبثت السحب أن توجهت فوق سماء فيرمونت بأسرها . واعقب ذلك أيام ، أن كان كبلنج مارا بدراجته ، فاعترضه شقيق زوجته فى عربة يجرها زوج من الخيل ، فسقط كبلنج عن دراجته! . . ولم يملك كبلنج ، حينئذ — وهو الذى كتب ذات مرة يقول : « احتفظ أنت بنباتك فى الوقت الذى يفقد فيه كل من حولك ثباتهم » — لم يملك الا أن يفقد ثباته ، واقسم ليرسلن شقيق زوجته الى السجن ! وقامت بين الاثنين قضية كان لها دوى عظيم فى فيرمونت ، وتقاطر الصحفيون من سائر مدن أمريكا الى هذه القرية ، وأذاعوا انباء القضية على العالم أجمع ، واضطر كبلنج آخر الأمر الى أن

(١) Budyard Kipling ; "Vermont Feud"

يرحل هو وزوجته عن أمريكا وأن يفتربا بقية حياتهما : كل هذا بسبب كومة من البرسيم ، يغلها جانب صغير من حقل حوله كبلنج الى بستان للزهور .

الا ما اشد حاجتنا الى أن نمثل بقول الفيلسوف « بيركلير » الذى عاش قبل أربعة وعشرين قرنا : « هيا ننهض أيها الاخوان ، فقد طال جلوسنا فوق التوائه ! » .

واليك قصة من أطرف القصص التى رواها الدكتور « هارى ايمرسون فوزدريك » . قصة معركة كسبتها تارة وخسرتها طورا ماردة من مرده الغابة . كتب ايمرسون يقول :

« على سفح جبل « لونجز بيك » فى « كولورادوا » ، تجثم اطلال شجرة ضخمة ، يقول رجال الطبيعة انها نبتت منذ أربعمائة عام خلت وانها كانت شجرة عندما وضع « خريستوفر كولمبس » قدميه ببلدة « سان سلفادور » ولقد أصيبت هذه الشجرة الماردة فى خلال حياتها الطويلة بالصواعق أربع عشرة مرة ، ومرت بها العواصف العاتية أربعمائة عام متوالية ، ولكن الشجرة الماردة صمدت فى مكانها . ثم حدث أخيرا أن زحفت جيوش الهوام والحشرات على هذه الشجرة الضخمة ، فما زالت بها ، تنخرها وتقرضها ، حتى سوتها بسطح الأرض ، وجعلتها أثرا بعد عين ! لقد امحت ماردة الغابة التى لم تؤثر فيها الصواعق ، ولم تنل منها الأنواء ، امحت من الوجود ، بفعل هوام من الضلالة بحيث يستطيع الانسان أن يسحق احداها بين سباته وابهامه ! » .

الا ترانا مثل هذه الشجرة ؟ أو لسنا ننجو بثتى السبل من الأعاصير ، والبروق ، والرعود التى تعترض حياتنا ، ثم نسلم بعد ذلك قلوبنا لهوام القلق تلتهمها التهاما ، تلك الهوام التى يتسنى سحق الواحدة منها بين السبابة والابهام ؟ ! .

منذ بضع سنوات خلت ، اختريقت غابة « تيتون » الجائمة فى مقاطعة « ويومنج » مع صديقى « تشارلس سايفرد » ، المشرف

الأعلى على غابات « ويومنج » ، وبعض أصدقائه . كنا جميعا في طريقنا الى ضيعة « جون روكفلر » القائمة وسط الغابة . وحدث أن ضلت السيارة التي استقلها ، الطريق ، ووصلت الى مدخل الضيعة بعد ساعة من وصول السيارات التي تقل بقية الأصدقاء . وكان « مستر سايفرد » يحمل مفتاح باب الضيعة ، فانتظرني هناك أمام الباب معرضا نفسه للضحك الشمس ، ولدغات البعوض المنتشر في الغابة ، ساعة بأكملها ريثما وصلت . كان البعوض المنتشر في تلك البقعة يكفى لأن يخرج أشد الناس صبورا عن طوره ، أو يدفعه الى الجنون . ولكنه لم يخرج « مستر سايفرد » عن طوره . فبينما كان ينتظر وصولي ، اقتطع غصنا من إحدى الشجيرات ، وشذبه ، وجعل منه مزمارا . وعندما وصلت .. كيف ترانى وجدته ؟ أكان يكافح البعوض في ضجر وضيق ؟ كلا ! بل وجدته ينفخ في المزمار الذى صنعه بنفسه ، ولقد أخذت منه هذا المزمار ، واحتفظت به تذكارا لرجل يعرف كيف يضع التوافه في مكانها الصحيح !

واذن ، فلكى تحطم عادة القلق ، قبل أن تحطمك ، اليك القاعدة رقم ٢ .

لا تسمح لنفسك بالثورة من أجل التوافه ، وتذكر ان الحياة اقصر من أن نقصرها .

الفصل الثامن

استعن بالاحصاءات على طرد القلق

أذكر عن أيام طفولتي أنني كنت أعاون والدتي يوما في حرث الأرض توطئة لزرعها ، وفجأة انخرطت في البكاء . ودهشت والدتي وسألتني : « ما الذى يبكيك يا ديل ؟ » فأجبتها وأنا أنشج : « اننى أخشى أن أدفن حيا ! » .

نعم ! لقد كانت شتى صنوف المخاوف تملكنى في تلك الأيام . فعندما كانت تهب العواصف ، أو ترعد السماء ، كان القلق يجتاحنى خشية أن يقتلنى البرق أو الصواعق . وعندما كانت تعترض والدى الأزمات المالية ، كنت أخشى الا يصبح لدينا مانقتات به ، وكنت أخشى أن أذهب الى الجحيم عندما أموت ، أو أن يبتر صبى كبير — كان يلعب معى — أذنى كما كان يهددنى دائما ، أو أن تضحك منى الفتيات عندما أرفع قبعتى لأحبيهن ، أو الا ترضى احداهن في المستقبل بأن تتخذنى زوجا ، كما كان القلق يساورنى خشية الا أجد ما أقوله لزوجتى بعد أن يعقد قرانى عليها مباشرة! كنت أرى بعين خيالى أن زواجى قد عقد فى كنيسة ريفية ، ثم ركبت وزوجتى عربية تزينها الزهور فى طريقنا الى مزرعة والدى فى ميسورى . وعند هذه النقطة كنت أتساءل قلنا : كيف ترى ابقى الحديث مرصولا بينى وبين عروسى طوال الطريق ؟ وأذكر اننى قضيت ذات يوم ساعة بأكملها وأنا أفكر فى حل لهذه المشكلة العويصة بينما أنا أسير وراء المحراث ! .

واذ توالى الأعوام ، وجدت أن تسعا وتسعين فى المائة من المخاوف التى يساورنى القلق بشأنها لم تحدث قط . مثال ذلك اننى — كما أسلفت — كنت أرتعد خوفا من أن تقتلنى الصاعقة ، ولكنى أعلم الآن أن احتمال اصابتى بالصاعقة بعيد كل البعد ، فان واحدا

من كل ثلاثمائة وخمسين الف نسمة يصاب بالصاعقة في كل عام كما يقول « مجلس التأمين » ! أما خوفاً من أن أذفن حيا فليس بأقل سخفاً ، ولا احسب أن أكثر من واحد في كل عشرة ملايين نسمة يدفن حيا ! ومع ذلك فقد بكيت يوماً خوفاً من أن أذفن حيا ! والثابت أن شخصا واحداً من كل ثمانية أشخاص يموت بالسرطان ، ولو أنني كنت أريد شيئاً أخشاه وأقلق من أجله ، لتخربت السرطان مثلا موضوعا للقلق ، بدلا من الصاعقة أو الدفن حيا ! .

صحيح أنني أتكلم عن مخاوف الطفولة والصبا ، ولكن كثيرا من الرجال الناضجين لا تقل مخاوفهم سخفاً عن مخاوف الأطفال والصبيان . وفي استطاعتنا أنت وأنا أن نتخلص من تسعة أعشار مخاوفنا في التو واللحظة ، لو أننا كففتنا عن اجترار خواطرنا واستعنا بالحقائق الثابتة ، بالاحصاءات ، لنرى ان كان هناك حقا ما يبرر مخاوفنا .

ان « شركة لويديز » بلندن ، وهي اشهر شركات التأمين في العالم ، قد ربحت ملايين الجنيهات من استقلالها ميل الانسان الى التوجس من أبعاد الأمور احتمالا ! ان هذه الشركة «تراهن» الناس على أن الكوارث التي يساورهم القلق من أجلها ، ويخشون حدوثها ، لن تحدث أبدا ، وان كانت بالطبع لا تسمى هذه العملية « مراهنة » وانما تسميها « تأمينا » ! ولقد ظلت هذه الشركة تواصل عملها بنجاح مدى مائتي عام ، وما لم تتغير طباع الناس ، فستواصل هذه الشركة نجاحها لمدى خمسين قرنا مقبلة ، وستظل تقبل التأمين على الأحذية ، والسفن ، وشمع الاختام ضد الكوارث ، لأن هذه الكوارث التي يتوقعها الناس ، لا تحدث بالكثرة التي يتصورونها . ولو أننا رجعنا الى « قانون المعدلات » لأذهلتنا الحقيقة ، فمثلا ، لو قيل لى أنني في خلال السنوات الخمس المقبلة ، سأخوض غمار معركة طاحنة كمعركة « جتيسبرج » — في الحرب الأهلية — لتولاني الفزع ، ولاسرعت أو من على حياتي ، واكتب وصيتي ، واضع اموري الدنيوية في نصابها ، وأقول لنفسى :

« من المحتمل إلا أخرج حيا من هذه المعركة ، فدعنى أفيد أقصى ما أستطيع الإفادة منه في هذه السنوات القليلة الباقية من عمري » ولو أننا تحرينا الحقائق لوجدنا أن الحياة العادية — بعيدا عن ميادين القتال فيم بين سن الخمسين والخامسة والخمسين لا تقل تعرضا لخطر الموت عن حياة أولئك الذين يخوضون معركة دموية كمعركة جتيسبرج .

والذى أعنيه هو هذا : تدل الاحصاءات الدقيقة على أن نسبة الوفيات في الألف ، فيما بين سن الخمسين والخامسة والخمسين ، تعادل نسبة القتلى في معركة جتيسبرج البالغ عددهم ١٦٣.٠٠٠! . ولقد كتبت عدة فصول من هذا الكتاب في بيت صديقى « جيمس سمبسون » القائم على شاطئ بحيرة « بو » في جبال كندا ، وهناك التقيت بمستر « هيربرت سالنجر » وزوجته ، وهما من أهالى سان فرانسيسكو . وقد لاح لى أن « مسز سالنجر » ، لما تمتاز به من رزانة واتزان — لم تعهد القلق في حياتها اطلاقا . وبينما نحن جلوس ذات أمسية أمام المدفأة التى تتأجج فيها النيران سألتها هل عانت القلق يوما ، فأجابت : « تسألنى هل عانيت القلق ؟ بالله ! لقد كاد القلق يحطم حياتى ! فقد عشت احد عشر عاما في جحيم صنعته لنفسى بيدي . كنت حادة الطبع سريعة الغضب ، أعيش في توتر متصل ، واعتدت أن أستقل « الأوتوبيس » مرة في الأسبوع من « سانت ماتيو » حيث أقيم ، الى « سان فرانسيسكو » لأشتري ما يلزمنى ، فلا يتركنى القلق حتى في خلال هذه الرحلة القصيرة .

« كنت أقول لنفسى : متى غادرت البيت ، ربما نسيت التيار الكهربائى ساريا . ربما اشتعلت النار في المنزل . ربما هربت الخادمة وتركت أولادى وحدهم . ربما خرج الأولاد بدراجاتهم الى عرض الشارع فدهمهم سيارة مسرعة . ويتمكنى القلق المروع ، فأتصعب عرقا ، وأسرع الى محطة « الأوتوبيس » فاستقله وأقفل

راجعة الى منزلى لاسكن نائرة النفس ، فلا عجب ان انتهى زواجى
الأول الى الاخفاق .

« وزوجى الحالى محام ... وهو رجل هادىء الطبع ، قوى
الأعصاب يمتاز بعقلية تحليلية لا يدركه القلق من بين يديه ولا من
خلفه ، فكان اذا رأتى مهتاجة ، تلقى ، يقول لى : هدئى روعك ،
ولننظر فى الأمر معا .. ما الذى يقلقك ؟ فلنرى ان كانت الحقائق
الثابتة تبرر مخاوفك .

« اذكر ، مثلا ، اننا كنا نقود السيارة فى طريق لم يمهدها ، من
مدينة « البوكريك » فى « نيومكسيكو » . قاصدين الى مغاور
مدينة « كارلسباد » حين دهمتنا عاصفة هوجاء ..

« واخذت السيارة تترنح ، وتتخبط ، وافلت زمامها من ايدينا ،
فايقنت ساعتئذ ان السيارة لا بد منزلقة بنا الى احد الخنادق التى
تقوم على جانبي الطريق ، ولكن زوجى جعل يكرر قوله : اننى
اقود السيارة ببطء شديد ، فعلى افتراض انها زلقت بنا السيارة
الى احد الخنادق ، فلن يصيبنا مكروه يذكر ، هكذا تقول الحقائق
الثابتة . فبعث هدوءه الثقة والاطمئنان فى نفسى . وكففت عن
القلق .

وفى ذات صيف ، خرجنا الى رحلة خلوية فى وادى « توكرين »
بجبال كندا ونصبنا خيامنا ذات مساء ، على ارتفاع سبعة آلاف
قدم فوق سطح البحر ، وفجأة دهمتنا عاصفة شديدة هددت باقتلاع
خيامنا وتمزيقها شر تمزيق . وكانت الخيام مشدودة بجبال سميكة .
الى اوتاد خشبية ، فتوقعت بين لحظة واخرى ان ارى الخيمة طائرة
فى الهواء ، وتولانى الفزع . ولكن زوجى قال لى فى هدوء : اسمعى
يا عزيزتى : ان ادلاعا فى هذه المرحلة هم اتباع « بروستر » . وهم
خبراء فى مهنتهم ، وقد ظلوا ينصبون الخيام فى هذه البقاع مدى
ستين عاما . وقد نصبت خيمتنا هذه من قبل مرات فى هذه البقعة
بالذات . ولم تقتلعها العاصفة مرة واحدة ، ولو قدر واقتلعتها
العاصفة الآن فانه يمكننا الاحتماء بخيمة اخرى ، فهديى من روعك

أذن ، اذ ان الحقائق الثابتة لا توجب القلق ، وقد هدأت روعى فعلا ، ونمت ليلتئذ نوما عميقا .

« ومنذ سنوات قليلة خلت ، اكتسح وباء « شلل الأطفال » البقعة التي نسكنها من كاليفورنيا . وفيما سبق ، كان مثل هذا الوباء خليقا بأن يدفعنى الى احضان الهستيريا ، ولكن زوجى اقنعنى بأن أستمسك بالهدوء ، بعد ان اتخذنا الاحتياطات الممكنة كافة ، فأبعدنا أطفالنا عن مواطن الازدحام ، وسألنا « مجلس الصحة » عن مدى خطورة هذا الوباء ، فقال لنا ان أسوأ أوبئة شلل الأطفال التي شهدتها كاليفورنيا ، لم يصب فيه الا ١٨٣٥ طفلا ، فى ولاية كاليفورنيا جميعها ، وان معدل الاصابات فى وباء كهذا يتراوح ما بين مائتين الى ثلاثمائة طفل ، ومع ان هذه الأرقام تدعو للأسف ، الا اننا أحسنا ان أطفالنا فى ما من نسبى من الاصابة بالمرض .

« وكان زوجى لا يفتأ يقول لى كلما اعترانى القلق : هيا نختبر الحقائق الثابتة بالاحصاء » . وهذه العبارة هى التى خلصتنى من تسعة اعشار القلق الذى كنت أعانيه ، وجعلت الاعوام الاثنى والعشرين الماضية من أجمل أيام حياتى وأسعدها .

قال الجنرال « جورج كروك » — ولعله أعظم مقاتلى الهنود فى تاريخ أمريكا كلها — قال فى تاريخه لحياته : « ان معظم القلق ، والاهتياج ، والمخاوف ، التى يعانىها الهنود ، مرجها الى تخيلاتهم ، لا الى أساس من الحقيقة » .

وروى لى « جيم جرانت » ، صاحب شركة « جيمس جرانت للتوزيع » بمدينة نيويورك — التى تصدر عصير العنب ، والبرتقال المعبأ ، الى سائر أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق السكك الحديدية — انه اعتاد ان يعذب نفسه بمثل هذه الأفكار : « ماذا تكون الحال لو تصادم القطار الذى ينقل بضاعتى ؟ ماذا تكون الحال ، لو انهار جسر السكة الحديدية ، فى اللحظة التى يمر القطار

فيها من فوته ؟ » . نعم ان البضاعة مؤمن عليها ، ولكنه كان يخشى ان لم تصل الفاكهة في الوقت المحدد ، ان يقف عملاءه ، ولقد أجهد نفسه من فرط القلق ، حتى خيل اليه أنه أصيب بقرحة في المعدة ، فذهب الى الطبيب ، فأكد له أنه سليم معافى الا من توتر أعصابه ، قال لي مستر جرانت : « لقد أحسست عندما قال لي الطبيب هذا ، كأننا أخرجت من الظلمات الى النور ، وأخذت أسائل نفسي : كم عربية من عربات البضاعة ، استخدمت في خلال العام المنصرم ؟ وكان الجواب : نعم . هو خمس وعشرين ألف عربية ، وعدت أسائل نفسي كم من هذه العربات تحطم لسبب من الاسباب ؟ وكان الجواب : خمس عربات . حينئذ : قلت لنفسي : خمس عربات من خمس وعشرين ألف عربية ! أتدرى ما معنى هذا ؟ معناه أن معدل نسبة الخسارة هو عربية واحدة من كل خمس آلاف عربية ، فعلام القلق اذن ؟ » .

« ولكنى سرعان ما قلت لنفسي : قد ينقض جسر على القطار! وهنا سألت نفسي : كم من العربات خسرت لأن جسرا انقض عليها ؟ وكان الجواب : لا شيء . وهنا قلت أخاطب نفسي : الست من الحق بحيث أتلق من أجل جسر لم ينقض قط ! » .

واستطرد جيم جرانت يقول لي : عندما نظرت الى الأمر بهذا المنظار ، شعرت بسخف القلق الذي يساورنى . . ومنذ ذلك اليوم أبطلت القلق ، فلم أعد أشكو من معدتى قط . » .

عندما كان « آل سميث » محافظا لنيويورك . سمعته يرد على هجمات خصومه السياسيين بقوله : « تعالوا نخبر الحقائق الثابتة » ثم يشفع ذلك بسرد الحقائق .

ففى المرة القادمة التى يساورك القلق فيها ، افعل ما كان يفعله « آل سميث » . . اختبر الحقائق ، وانظر ان كان هناك ما يبرر قلقك ومخاوفك ، وهذا ما فعله « فردريك ماهلستيد » . وهذه هى قصته كما رواها لأحد طلبتى :

« في شهر يونيه عام ١٩٤٤ — أثناء الحرب الأخيرة — كنت أتخذ مكاني في خندق ضيق . على ساحل « نورمانديا » . كنت جنديا ملحقا بالسرية رقم ٩٩٩ بسلاح الاشارة ، وكنا قد فرغنا توا من حفر خنادقنا توطئة للاحتماء بها من الاغارات الجوية ، وما كدت أرقد في ذلك الخندق الضيق ، وهو لا يعدو حفرة ضيقة مستطيلة تشبه القبر من عدة وجوه ، حتى قلت لنفسي : « يالله ! ما أشبه هذا الخندق بالقبر ! » .. وعندما خيم الظلام ، ورقدت لأنام ، أحسست فعلا كأنني في جوف قبر ، فلم أتمالك أن قلت لنفسي : « من يدري ! لعل هذا هو قبري فعلا ! » . ولم تلبث الطائرات الألمانية قاذفات القنابل . أن وفدت على مواقعنا ، وكانت الساعة قد شارفت الحادية عشرة ليلا ، وبدأت قنابلها تنفجر من حولنا كالجحيم ، فتجمدت أطرافي من فرط الرعب ، ولم أستطع أن أدوق للنوم طعما في خلال الليلتين الأوليين .. وما حلت الليلة الرابعة أو الخامسة ، حتى كنت حطاما بشريا ، وأدركت اذ ذاك أنني ما لم أصنع شيئا ، فمصرى حتما الى الجنون ، وهنالك ذكرت نفسي بأن خمس ليال سويا قد انقضت ، وما زلت حيا أرزق ، بل ما زال أفراد سريتنا جميعا أحياء يرزقون ، اثنان فقط جرحى ، لا من القنابل ، بل من شظايا مدافعنا المضادة للطائرات . ومن ثم اعتزمت أن أتوسل الى الكف عن القلق ، بالانشغال بعمل مجد ، فأخذت أبني سقفا خشبيا فوق خندقي ليحميني من شظايا القنابل والمدافع . وسرحت ببصرى في المساحة الشاسعة التي تحتلها وحدتنا ، فاقنعت بأنني لا أقتل حتى يصاب خندقي هذا باصابة مباشرة ، واحتمال اصابته باصابة مباشرة كنسبة واحد الى عشرة آلاف . فلم تمض ليلتان منذ أخذت أفكر على هذا النحو ، حتى هدأت نائرتي ، واستطعت أن أنام حتى في خلال الاغارات الجوية » .

وقد توصلت البحرية الأمريكية بالاحصاءات لتقوية الروح المعنوية بين رجالها . حدثني بحار مسرح من الخدمة انه حين الحق

مع زملائه ، باحدى السفن ناقلات البترول ، انتابه القلق الشديد ، فقد ايقن هو وزملاؤه أنه متى أصيبت ناقلة سفينتهم بتورييد انفجرت وتمزقت أشلاء ، فلا يبقى على ظهرها أحد من الأحياء . ولكن البحرية الأمريكية كان لها رأى آخر ! فقد أصدرت قيادة الأسطول منشورا يتضمن أرقاما ثابتة ، وحقائق واقعة ، جاء فيها ان من كل مائة ناقلة بترول أصيبت ناقلة بالتوريد ، وأن أربعين ناقلة فقط غرقت ، ومن هذه الناقلات الأربعين ، خمس فقط غرقت في مدة تقل عن عشر دقائق ، وهذه فسحة من الوقت كافية لمغادرة السفينة ، والاحماء بقوارب النجاة ، فهل ترى هذا الاحصاء رفع من الروح المعنوية بين بحارة ناقلات البترول ؟ نعم ! قال لى هذا البحار ، ويدعى « مينيسوتا » : « لقد استشعرنا جميعا الهدوء والاطمئنان بعد اطلاعنا على هذا المنشور . فقد أدركنا أن أماننا فرصة للنجاة ، وأن من المحتمل جدا أن نظل احياء حتى لو أصيبت سفينتنا بالتورييد » .

واذن فلكى تحطم عادة القلق ، قبل ان تحطمك ، إليك القاعدة
رقم ٣ :

استعن على طرد القلق بالاحصاءات والحقائق الثابتة سائل
نفسك : هل هناك ما يبرر مخاوفي ؟ وما مدى احتمال حدوث
ما أخشاه ؟ .

الفصل التاسع

ارضى بما ليسى منه بد

كنت العب ذات يوم — وأنا طفل — مع بعض رفاتي في أعلى غرفة مقامة فوق سطح بيت ريفي ، في بلدتي بشمال شرقي «ميسوري» . وبينما كنت أتدلى من فوق الغرفة هابطا . الى السطح ، وضعت قدمي على مصراع نافذة ، ثم قفزت هابطا . وكان في اصبع يدي اليسرى خاتم ، تعلق بدون أن أدري بمسماز ناتئ ، فما ان قفزت حتى أطاح المسماز باصبعي ، فصرخت وقد تملكني الرعب ، وأيقنت أنني ميت لا محالة ! فلما شفيت ذهب عنى هذا الرعب ، ولم يعاودنى قط . وقد تمر على الآن أشهر متتابعة دون أن أذكر أن لى أربع أصابع في يدي اليسرى بدلا من خمس ! .

ومنذ بضع سنوات ، التقيت برجلٍ عهد اليه بالاشراف على مصعد لنقل البضائع ، في مبنى إحدى الشركات بنيويورك . ولاحظت أن يده اليسرى مبتورة من الرسغ ، فسألته ، هل يقلقه فقد يده ، فقلقه : « كلا . انى لا أعير هذا الأمر اهتماما ، ولست متزوجا ، ومن ثم فانى لا أذكر فقد يدي الا حين اضطر الى رتق ثيابى ! » .

ان السرعة التى نتقبل بها الأمر الواقع — اذا لم يكن منه بد — مذهشة حقا . فاننا لا نلبث حتى نوطد أنفسنا على الرضى بهذا الأمر الواقع . ثم ننسأه اطلاقا .

وكثيرا ما تخطر بذهنى عبارة منقوشة على واجة كاندرائية في

امستردام بهولندا ، ترجع الى القرن الخامس عشر ، وهذه العبارة هي : « أرض بما ليس منه بد » (١) .

ولسوف تعترضنى وتعترضك ، على مر الأعوام مواقف لا تسر ، ولكنها محتومة ليس منها بد . ولى ، ولك فى هذه الحالة الخيار : فاما أن نسلم بما ليس منه بد ، واما أن نحطم حياتنا بالثورة والنقمة ، ونفتى فى الأغلب الى انهيار عصبى .

واليك نصيحة حكيمة ينصح بها احد الفلاسفة الذين اعجب بهم ، وهو « وليم جيمس » : « كن مستعدا لتقبل ما ليس منه بد ، فان تقبل الأمر الواقع خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف هذا الأمر الواقع من صعب » .

وقد تكشفت جدوى هذه النصيحة الحميمة للسيدة «اليزابيث كونلى» — القاطنة فى الشارع الرابع والتسعين بمدينة «بورتلاند» ، بولاية «أوريجون» ولكن بعد لاي . وهاهو ذا نص خطاب أرسلته أخيرا :

« فى اليوم الذى كانت امريكا تحتفل فيه بانتصار جيوشها فى شمال افريقيا ، تسلمت برقية من « ادارة الحرب » تقول فيها ان ابن اختى — وكان عزيزا على ، حبيبا الى قلبى — يعد مفقودا وبعد قليل تسلمت برقية أخرى تقول انه قتل .

« وهدى الحزن وضعف كيانى . فقد كنت حتى ذلك الوقت اعتقد ان الأقدار تجاملنى وتترفق بى . كنت ازاول عملا أحبه وأركز فيه نشاطى ، وقد ساهمت فى تربية ابن اختى هذا وتنشئته ، وبدا لى كأنها هذا الشاب قد جمع فى شخصه كل ما يتسم به الشباب من كريم الخلق ، وجميل الطبع ، وطيب الغنصر . وقد أثمرت تربيتى له ورعايتى اياه ، كما يثمر الدقيق النقى الذى تحسن

(١) للصوفية تعبير أروع من هذا المعنى وهو . « اذا لم يكن ما تريد . فأرد ما يكون » وللرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث قريب المعنى وهو . « أرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

عجبه وظهوه « كعكة » حسنة المنظر لذيذة الطعم ، ثم تسلمت هاتين البرقيتين المشنومتين ، فانهارت سعادتي ، وأحسست كأن لم يعد هناك ما يستحق أن أعيش لأجله ، فاهملت عملي ، وأصدقائي ، ولم أعد أحسن للحياة طعما غير طعم العلم .

« ورحت أتساءل على غير هدى : لماذا قدر لابن أختي الحبيب أن يموت ؟ ! لماذا قدر له أن يذوى كالوردة المتفتحة تهصرها يد غشوم ، قبل أن تنعم بالربيع ؟ ! ولم أستطع أن أجد لهذا تعليلا ، ولم أستطع أن أصبر على هذا الرزء على علته ، وكان حزني من الطغيان بحيث عولت على أن انقطع عن عملي ، وأتفرغ لدموعي ولوعتي .

« وعكفت على جمع حاجياتي من مكتبي ، في مقر عملي ، توطئة لاعتزال العمل . وبينما أنا أفعل ذلك ، إذ عثرت على خطاب كنت قد نسيت أمره تماما .. خطاب من ابن أختي كان أرسله الي يعزيني في موت أمي منذ بضع سنوات خلت ، وقد جاء في هذا الخطاب قوله : « أعلم أنك ستفتقدين أمك ، ولكني أعلم كذلك أنك ستقبلين هذا القضاء المحتوم ، وتواصلين الحياة ، أعلم هذا من فلاسفتك في الحياة التي لفتنتي أياها . ولست أنسى مهما نأيت عنك . أنك عودتني الابتسام في مواجهة كل أمر جلل ، وعلمتني الرضى بما ليس من وقوعه بد » .

« وقد قرأت هذا الخطاب مثنى وثلاث .. وفي كل مرة كان يلوح لي كأن ابن أختي يخاطبني ، ويقرأ على ما كتبه ، ثم خيل الي كأنه يقول : « لماذا لاتعملين بما علمتني أياه ؟ أخفى أجزائك تحت قناع من الابتسام ، وواصلى الحياة ، فلا بد مما ليس منه بد » .

« ومن ثم واصلت عملي ، وعدلت عن اعتزاله ، وكففت عن اجترار الحزن ، والمرارة ، والثورة . ورحت أردد لنفسى : « قضي الأمر وليس الي تغييره من سبيل » . والتمست السلوى في كتابة رسائل للجنود في الميدان أشجعهم وأرفه عنهم ، والتحققت بمدرسة

ليلية انشد آفاتا جديدة ، وأصدقاء جددا . واذا أرى مدى التحول الذى طرأ على حياتى أكاد لا أصدق ! فأتى لم أعد أندب الماضى ، وأتحرر على ما فات ، بل غدوت أعيش اليوم لليوم وحده ، بغض النظر عن الماضى أو المستقبل ، تماما كما أرادنى ابن اختى أن أفعل ، وما كان ليظراً على هذا التحول لو لم أسلم بما ليس منه بد .

لقد وعت « اليزابيث كوثلى » الدرس الذى سوف يعيه كل منا ، عاجلا أو آجلا ، ألا وهو « الرضا بما ليس منه بد » . ولا تحسب أن هذا الدرس ميسور الاستيعاب ، فان الملوك على عروشهم لا يفتأون يراجعونه ويذكرونه ، عسى أن يستقر فى أذهانهم . كان الملك جورج الخامس يحتفظ فى غرفة مكتبه بقصر بكنجهام بلوحة مكتوب عليها « أريد أن أتعلم كيف أكف عن البكاء من أجل الحصول على القمر ، ومن أجل ما فات ! » .

وشبيه بهذا ما كتبه الفيلسوف شوينهور : « ان التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها فى رحلتنا عبر الحياة » .

ان الظروف ليست هى التى تمنحنا السعادة ، أو تسلبنا اياها ، وانما كيفية استجابتنا لهذه الظروف هى التى تقرر مصيرنا . واذا كان السيد المسيح قال « ان ملكوت السموات فيكم » ، فان ملكوت الجحيم فى داخلتنا أيضا ! .

ان فى استطاعتنا جميعا ان نتحمل المصاعب والمآسى . بل ان نتغلب عليها . فاننا نملك من القوى الذاتية ما ينصرنا على هذه المصائب ، لو اننا أحسننا استخدام تلك القوى .

كان « يوت تاركينجتون » يقول دائما : « ان فى استطاعتى ان احتمل كل ما تبذلونى به الحياة من المصائب ، الا شيئا واحدا هو العمى » . ثم فى ذات يوم ، وكان « تاركينجتون » قد بلغ الستين من عمره ، أظرق برأسه يتأمل السجادة المفروشة على أرض غرفته ، فشاهد ألوانها وزخارفها تختلط بعضها ببعض فلا يستبين منها شيئا . . . وقصد الى أخصائى فى أمراض العيون ،

وهناك فوجيء بالحقيقة البشعة : انه على وشك أن يصاب بالعمى ، فقد فقدت احدى عينيه البصر ، والثانية بسبيل أن تتبعها ! .. اذن فقد تحقق الشيء الوحيد الذى كان يرهبه ، ويقول انه لا يتوى على احتمالها ! .

فترى كيف استجاب تاركينجتون لهذه المصيبة الفادحة ، هل أحس أن نهايته قد حانت ؟ كلا ! فانه ، لفرط دهشته قد أحس بالسرور ! نعم السرور ! بل اتخذ من هذه المصيبة مسلاة ، ومادة للدعاية . فعندما كان يمر اهل بيته أمامه كان يراهم كأطيانف غير متميزة أو كتبضات من ضباب .. فاذا مر أمام عينيه أضخم هذه الأطيانف هتف متهللا : « مرحبا ! هذا ولا شك هو جدى ! اننى أعجب الى اين يقصد فى هذا الصباح الجميل ! »

فبالله كيف يقهر القدر روحا مثل هذه ؟ الجواب : ان روحا كهذه لا تتهر ! ثم عندما خيم الظلام الشامل على بصر تاركينجتون قال : « لقد وجدت ان فى وسع الانسان أن يتقبل العمى ، كما يتقبل أية مصيبة سواه ، ولو أننى فقدت حواسى الخمس جميعا ، لواصلت الحياة داخل عقلى ، فنحن انما نرى بالعقل ونحيا به ، سواء أدركنا هذه الحقيقة ، أم لم ندركها » .

وقد أجرى تاركينجتون اثنتى عشرة عملية جراحية فى عينيه فى خلال سنة واحدة ، على أمل أن يرتد اليه بصره . وفى كل هذه العمليات الجراحية كان يخدر تخديرا «موضعا» . فهل تراه ثار ونقم ؟ كلا ! فقد كان يعلم أن هذا شيئا لا بد منه ، وكل ما فعله ليخفف عن نفسه عناء الألم هو أن يشارك الآخرين الآلمهم ومتاعبهم ، فقد رفض أن يوضع فى غرفة مستقلة بالمستشفى ، وأصر على أن يرقد فى «عنبر» فسيح يحفل بالمرضى اللذين يعانون مثل آلامه ، وجعل يحاول التخفيف عنهم . وعندما كانت تجرى له احدى العمليات الجراحية ، كان يحاول أن يصور لنفسه — وهو يشعر بكل ما يجرى فى عينيه — كم هو محظوظ ! كان يقول:

« ما أعجب الطب الذى وسعه أن يعالج شيئا دقيقا حساسا كالعين الانسانية ! » .

وخلق بالانسان العادى أن تتهاوى اعصابه لو أنه امتثل لانتى عشرة عملية جراحية فى عينيه ، فضلا عن فقد البصر ولكن تاركينجتون كان يقول : « اننى لا أستبدل بهذه التجربة التى مرت بى تجربة أسعد وأهنا » . فقد علمته هذه التجربة أنه ليس ثمة شىء يصعب على الانسان احتمالها والصبر عليه ، وعلمته — كما علمت الشاعر الانجليزى الاعمى « جون ملتون » من قبله — أنه ليس من البؤس أن تكون فاقد البصر ، ولكن من البؤس أن لا تستطيع احتمال فقد البصر .

قالت « مرجريت فولر » ، احدى زعيمات النهضة النسائية فى « نيوانجلند » ، ذات مرة : « اننى أرضى بكل صروف الدهر » . وعندما سمع الكاتب الانجليزى «توماس كارليل» بقولها هذا ، علق عليه قائلا : « ان هذا والله هو خير ما تفعله » نعم ! والله ان خيرا نفعه أنت وانا هو ان نمثل لما ليس منه بد .

ومهما عارضنا واعترضنا ، وثرنا ونقمنا ، فلن يغير هذا شيئا مما ليس منه بد ، وأنا أقول ذلك عن خبرة وتجربة . فقد رفضت ذات مرة أن لقبّل أمرا محتما واجهنى ، وكنت ولا محالة اذ ذاك أحق فاعترضت ، وثرت ، وغضبت ، وحولت ليالى الى جحيم من الأرق ، وفى النهاية ، وبعد عام من التعذيب النفسى ، امتثلت لهذا الامر المهتم الذى كنت أعلم منذ البداية أنه لا سبيل الى تغييره وما كان أخلقنى أن أردد مع الشاعر « والت هويتمان » قوله :

« ما أجمل أو أواجه الظلام ، والأنواء ، والجوع .

« والمصائب ، والنوائب ، واللوم ، والتقريع .

« كما يواجهها الحيوان ، أو تواجهها من الأشجار الجذوع » .

ولقد أمضيت اثنى عشر عاما من حياتى مع الماشية ، فلم أر

بقرة تبتئس لأن المرعى يحترق ، أو لأنه جف لقلّة الأمطار ، أو لأن صديقها الثور راح يغازل بقرة أخرى ! ان الحيوان يواجه الظلام ، والعواصف ، والجوع ، هادئاً ساكناً ، ولهذا فهو قلماً يصاب بانهيار عصبي ، أو قرحة في المعدة ، كما لم يصب بالجنون قط .

أترانى انصح بأن نطأطء هاماتنا لكل ما يواجهنا من مصائب؟ كلا ! فان هذا هو الاغراق في التشاؤم . فمتى كانت هناك فرصة سانحة لننقذ أنفسنا مما حل بها ، فلننتهزها ، ولنكافح ونجاهد . فاذا كان ما يواجهنا أمراً محتوماً لا مناص منه ، وليس منه بد ، ففي هذه الحالة فاننا : باسم صحتنا ، وسلامة عقولنا ونفوسنا يجب أن نكف عن الكفاح على غير طائل يرجى .

قال لى « هوكس » عميد جامعة كولومبيا ذات مرة انه اتخذ له شعاراً ، هذه الأبيات :

لكل داء في ظل السماء ،

« هنا دواء ، أو ليس هناك .

» فاذا كان دواء فلنجده .

» واذا لم يكن .. فأنى نجده ؟ ! » .

قابلت ، فى خلال تأليف هذا الكتاب ، عدداً من مشاهير رجال الأعمال فى أمريكا ، فسرنى أن أجدهم يمثلون لما ليس منه بد ، ومن ثم يحيون حياة خالية من القلق ، ولو أنهم لم يفعلوا لانسحقوا بقوة الضغط والتوتر ، واليك أمثلة مما قالوه لى :

قال لى « ج.س.بيني » مؤسس سلسلة المخازن الشهيرة باسمه : « لن أقلق ولو خسرت كل دانق أملكه ، لأننى أعلم ما الذى يعود به القلق على . اننى أؤدى عملى على أحسن وجه أستطيع أن أقوم به ، وأترك الباقي لله سبحانه » .

وقال لى هنرى مورد : «ل.ت. تيللر» مدير شركة « كريس لر»

كيف يأمن شر القلق ؟ أجاب : عندما يواجهنى موقف عصيب أتأمله ، فان كان هناك ما يمكن أن أفعله للتغلب عليه فعلته . وإذا لم يكن هناك ما أفعله ، نسيت الأمر اطلاقاً . أنتى لا أقلق قط للمستقبل ، لأننى أعلم أنه ليس فى وسع أحد أن يستشف خبايا المستقبل ، فلماذا أقلق من أجل شيء لم يحدث ، ولا أدرى على أى وجه يحدث ؟ » .

وقد يشعر المستر تيلر بالحرج اذا وصفته بأنه فيلسوف . فهو رجل أعمال ناجح فى عمله ليس الا ، ولكنه ، برغم ذلك : وقف على السر الفلسفى الذى حدث به الفيلسوف « ابيكتيتوس » تلامذته فى روما منذ تسعة عشر قرناً ، فقال : « هناك طريق واحد يفضى الى السعادة ، ذلك هو الكف عن التوجس من أشياء لا سيطرة لارادتنا عليها » .

كانت « سارة برنار » أنموذجاً للمرأة التى عرفت كيف ترضى بما ليس منه بد . فقد لبثت ملكة متوجة على عرش المسرح : وظلت معشوقة الجماهير فى العالم كله مدى نصف قرن من الزمان فلما بلغت الواحدة والسبعين من عمرها ، حدث أن كانت وهى تعبر المحيط الأطلسى على ظهر باخرة ، سقطت على أرض السفينة أثناء عاصفة هوجاء ، فجرحت ساقها جرحاً بالغاً ترتب عليه داء « تسوس العظام » الذى عانت منه الممثلة القديرة الألم المبرح وآمن طبيبها « الدكتور بوتزى » بأنه لا براء لها الا ببتز ساقها ! ولكنه كان يخشى أن تثور ثائرتها ويعصف غضبها ان هو أنهى اليها هذا النبأ الأليم . بل قدر أن هذا النبأ يدفع بالممثلة القديرة بين برائن الهستيريا ، ولكنه أخطأ التقدير ! فقد تأملته لحظة بعد أن أنهى اليها النبأ ، ثم قالت فى هدوء : « اذا كان لا مفر من هذا ، فليكن » ! وعندما سيقت الممثلة على المخدع ذى العجلات الى غرفة العمليات كان ابنها واقفاً يرتقبها وهو يبكى . فرسمت له بيدها إشارة مرحة ، وقالت له : « لا تذهب فسأعود حالا » .

وفي طريقها الى غرفة العمليات ، جعلت تعيد حوار مشهد من احدى تمثيلياتها ، فسألها احد الحاضرين هل تفعل هذا لتبث الشجاعة في نفسها ، فأجابت : « كلا ، بل لأبث الشجاعة في نفوس الأطباء ، فلن أمامهم عملا شاقا ! » .

وعندما تماثلت « سارة برنار » للشفاء ، راحت تطوف حول العالم من جديد ، وتساعد بفنها الجماهير مدى سبع سنوات أخرى .

كُتبت « الزى ماكورميك » ذات مرة فصلا في مجلة «ريدرز دايجست » ، قالت فيه : « عندما نكف عن النعمة على ما ليس منه بد ، ثم يتبقى له بعد ذلك من القوة ما يمكنه من خلق حياة أفضل حافلة بالسعادة » .

ان أحدا منا ليس من القوة بحيث يسعه ان يقاوم ما ليس منه بد ، ثم يتبقى له بعد ذلك من القوة ما يمكنه من خلق حياة مهتلة سعادة . عليك ان تختار احد الشئيين : فاما ان تنحني حتى تهر العاصفة بسلام ، واما ان تتصدى لها معرضا بذلك نفسك للهلاك .

وقد شهدت تجربة من هذا النوع في مزرعتي بولاية ميسوري فقد هبت ريح عاتية على المزرعة ، ولكن الأشجار لم تنحن للعاصفة ، بل تصدت لها منتصبه الأعواد ، فلم تلبث أن تكسرت، وصارت حطاما تذروه الرياح . ان أشجاري ليست لها حكمة الأشجار النامية في غابات كندا ، فقد عهدت أشجار كندا الدائمة الخضرة أن تنحني للعواصف لتمر في طريقها بسلام .

يقول مدربو المصارعة اليابانية المعروفة باسم « جوجتسو » لتلاميذهم : « انحنوا دائما أمام خصومكم كفضن طرى ، ولا تنصبوا كجذوع شجر البلوط ، فيسهل تحطيمكم » .

هل تدري لماذا تحتل اطارات السيارات ، وعورة الطريق ؟ لقد جربت مصانع الاطارات في مبدأ الأمر بأن تصنع اطارات صلبة

صماء « تقاوم » عثرات الطريق ، ولكن هذه الاطارات لم تصمد لتجربة ، ثم صنعت المصانع اطارات مطاطية جوفاء « تلين » امام الصدمات بدلا من أن تقاوم ، فصمدت هذه الاطارات للتجربة وان في استطاعتك أن تعمر طويلا ، وان تستمتع برحلة طيبة هنيئة عبر طريق الحياة ، اذا أنت صانعت الزمن ، وأبدت اللين حيال الصعاب والعثرات .

فما الذى يحدث لك ولى اذا قاومنا صدمات الحياة بدلا من أن نلين حيالها ؟ ما الذى يحدث اذا رفضنا أن ننحنى « كخضن طرى » وأصررنا على المقاومة ، كشجر البلوط ؟ الجواب سهل . سوف نقلق ، وتتوتر أعصابنا ، وتمرض نفوسنا ، فاذا وصلنا بعد هذه المقاومة ورفضنا مواجهة الحقائق فاننا بذلك نرد على أعقابنا ونلجأ الى أوهام من صنع خيالنا ، وهذا هو الجنون !

وقد تحتم على كثير من الجنود ابان الحرب الأخيرة ، اما أن يرضوا بالامر الواقع الذى ليس منه بد ، واما أن يحطمهم التوتر والقلق . ولاضرب لك مثلا « وليم كاسيليلى » من أهالى مدينة « جلنديل » بولاية نيويورك . واليك قصته كما رواها لطلبتى .

« لم البث بعد أن التحقت بحرس السواحل ، ان عهد الى بمهمة من أشد المهمات خطرا ، على ساحل الأطلنطى ، فتد عينت حارسا لمخازن الذخائر والمفرقعات ، وتصوروا أننى كبائع سابق للبسكويت ، اصبح حارسا للذخيرة ! ان مجرد التفكير فى اننى واقف امام أطنان من الديناميت ، يكفى وحده لأن يجمد الدم فى عروقى ، ولم يكن قد مضى على تدريبى على فن حراسة الذخائر سوى يومين ، وقد ضاعفت المعلومات والتنبيهات ، التى تلقيتها خلال هذين اليومين فى بث الرعب فى نفسى ، وفى ذات يوم كثيف الضباب ، صدر الى الأمر بنقل حمولة من الذخائر ، الى احدى السفن المقاتلة ، وقد استعنت على أداء هذه المهمة ، بخمسة من رجال البحرية الأشداء ، ذوى المناكب المريضة ، والأجسام الصلبة ، والظهور القوية ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن

طبيعة المفرعات التي يحملون صناديقها على ظهورهم ، والتي يكى صندوق واحد منها لنسف سفينة بأكملها ، وبعثرتها اشلأء! وكانت صناديق المفرعات تنقل للمى ظهر السفينة بواسطة قضيبين من الأسلاك المتينة يصلان بين المخزن وظهر السفينة ، فجعلت أتول لنفسى وأنا ارتجف خوفا: « ماذا لو قطع أحد هذين السلكين فهوى صندوق المفرعات ؟ وجف ريقى ، وارتجفت ركبتي ، وخفق قلبي ، وفكرت فى الهرب ولكنى لم أستطع الهرب ، فان هذا الهرب يعد خروجا على خدمة الجيش ، جزاؤه العار الذى يلحق بى وبمائلتى ، وقد يكون جزاؤه القتل رميا بالرصاص ! فكان لزاما على اذن ان أبقي ، وظللت أتأمل البحارة الأشداء ، وهم يحملون صناديق المفرعات فى قلة مبالاة ، برغم ان السفينة مهددة بالنسف فى أية لحظة ، وبعد نحو ساعة انقضت على هذا الرعب الجارف الذى أعانيه . بدأت أفكر فى شىء من التعتل ، قلت لنفسى : « هب انه حدث انفجار ومزتك اربا ، فماذا أنت فاعل ؟ انك لن يتاح لك ان ترى ماتؤول اليه حالك ، ثم ان هذه وسيلة سهلة للموت ، أفضل بكثير من الموت بالسرطان مثلا ، وأنت لا تأمل فى ان تخلد فى هذه الحياة ، فكف اذن عن هذا القلق السخيف ، واد العمل الذى عهد به اليك .

« وظللت أحدث نفسى بمثل هذا الحديث ساعة بأكملها ، أحسست بعدها بالراحة والهدوء ، وانجاب عنى القلق وانقشع الخوف ، فقد رضت نفسى ، خلال هذه الساعة ، على الرضا بما ليس منه بد .

« ولن أنسى ما حييت هذا الدرس ، فى كل مرة أميل فيها . الى القلق لأمر ما لايمكن تبديله أهز كتنى وأقول : « انسه ، فلا بد مما ليس منه بد » وقد أجدت هذه الفلسفة العملية على كل الخير حتى بعد ان عدت الى بائع بسكويت كما كنت .

ومرهى ! مرهى ! دعنا نهتف لهذا الرجل بائع البسكويت ؛

فانه يستحق منا كل تقدير .

لعل أشهر مينة في التاريخ ، بعد مينة السيد المسيح مصلوباً ، هي مينة الفيلسوف سقراط ، ولن يفتأ الناس الى ابد الأبدية يطالعون الوصف الرائع الذي وصف به أفلاطون مينة سقراط ، لقد حسد بعض أهالي أثينا سقراط ، وغاروا منه ، وهو الفيلسوف الحافي القدمين ، فكادوا له وحاكموه ، وقرروا أن يقتلوه بالسم ، وحين قدم الساقى كأس المنية الى سقراط قال له : « ارض بما ليس منه بد » وقد فعل سقراط . وتجرع السم ثابت الجنان ، رابطاً بجأش ، فخلدت ميتته كما خلدت حياته .

« ارض بما ليس منه بد » . لقد قيلت هذه العبارة قبل ميلاد المسيح بنحو أربعة قرون ، وما أحوج العالم الذي يجتاحه القلق ، ويعصف به التوتر ، أن يذكرها اليوم ، وكل يوم .

لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية ، كل كتاب ، وكل مجلة ، وكل مقالة عالجت موضوع القلق ، فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة وأجداها أفدتها من قراعتى الطويلة ؟ ها هي ذى ، وانصحك أن تدونها على ورقة تثبتها في صقال مرآتك ، حتى تطلعها كل يوم . . . وقد كتب هذه النصيحة . بل هذا الدعاء ، الدكتور « رينولد نايبير » الأستاذ بمعهد الاتحاد الدينى بنيويورك

« هبنى اللهم الصبر والقدرة » .

« لأرضى بما ليس منه بد » .

« وهبنى اللهم الشجاعة والقوة » .

« لأغير ما تقوى على تغييره يدي » .

« وهبنى اللهم للسداد والحكمة »

« لأميز بين هذا وذاك »

واذن . . . فلكى تحطم عادة القلق قبل أن تحطمك ، إليك

القاعدة رقم ٤ .

ارض بما ليس منه بد .

الفصل العاشر

اجعل للقلق « حدا أقصى »

أتريد أن تعرف كيف تجنى ثروة طائلة من المضاربة في سوق الأوراق المالية ؟ لا ريب أنك تريد ذلك . ولاريب أن ملايين الناس مثلك يريدون ذلك ، ولو اننى اعرف الاجابة عن هذا السؤال لعرضت هذا الكتاب للبيع بثمن خيالى ! لكنى اعرف طريقة سديدة يستخدمها بعض المالىين الناجحين، ويجنون من ورائها ربحا جزيلا فلا اقل من أسوقها اليك . حدثنى عن هذه الطريقة مستر « تشارلس روبرت » الخبير بشئون استثمار المال ، فقال : « حضرت من تكساس الى نيويورك ومعى عشرون ألف دولار ، اعطاها لى بعض اصدقائى لاستثمارها في سوق الأوراق المالية . وكنت اعتقد اننى عليم بدخائل السوق ، واقف على بواطنها ، ولكننى خسرت كل دائق من المال الذى احمله ! نعم ، لقد ربحت بعض الصفقات ، ولكن الأمر انتهى بى الى الخسارة الشاملة .

« لم اكن لأبالى بضياع اموالى الخاصة ، ولكنى استشعرت الأسف الشديد لضياع اموال اصدقائى — برغم أنهم من الثراء بحيث لا تززعهم خسارة كهذه — وعملت ألف حساب لمواجهة اصدقائى بعد أن بددت أموالهم ، ولكنهم — لفرط دهشتى — تقبلوا الأمر بروح الرياضى الذى لا تنال منه الهزيمة .

كانت مضاربتى في السوق تسير وفق المبدأ القائل « كل شيء أو لا شيء » . وكنت اعتمد في المضاربة على الحظ ، وعلى آراء ذوى الخبرة ، لهما انتهيت الى الخسارة السالفة الذكر ، جعلت امعن الفكر في الأخطاء التى وقعت فيها ، وعولت على تلافيتها قبل أن اقلل راجعا الى السوق مرة أخرى ، وسعيت حتى تعرفت على أنجح مضارب في البورصة عرفه العالم ، وهو « برنون

كاسلتز » . وظننت أن في استطاعتي أخذ الخبرة منه ، فقد كان ربحه يتزايد سنة بعد أخرى ، مما يحمل على الظن بأن مثل هذا النجاح المتكرر ليس وليد الحظ وحده .

« وبعد أن سألني برنون بضعة أسئلة عن الطريقة التي أضارب بها ، أنهى الى ما أحسبه أهم مبدأ في المضاربة ، وفي التجارة على العموم . قال : « اننى أقرر حدا أقصى للخسارة في كل صفقة اعتدها . فإذا اشتريت — مثلاً — أسهما قيمة كل منها خمسون دولارا ، أضع في التو حدا أقصى للخسارة مقدارها خمسة دولارات في كل سهم ، أى أنه متى هبطت قيمة السهم بمقدار خمسة دولارات ، فاننى أبيع في الحال ولا أنتظر أكثر من ذلك ممنيا النفس بأن قيمة السهم قد تعود فترتفع . فإذا اتبعت هذه الطريقة وخسرت في نصف صفقاتك ، وربحت في نصفها الآخر فتق أنك رابح آخر الأمر ، لأنك لا تخسر الا مبلغا ضئيلا هو الذى جعلته حدا أقصى لخسارتك ، وهذه الخسارة المحدودة يمكن لأرباحك في نصف صفقاتك أن تغطيها بسهولة » . وقد عملت بهذا المبدأ في التو ، ومازلت أعمل به الى الآن . والحقيقة أنه وفر لى ولعملاى آلاف الدولارات .

« ثم لم ينقض وقت طويل حتى أدركت أن مبدأ وضع « حد أقصى » للخسارة لا تقتصر فائدته على أسواق التجارة والمضاربة وحسب ، بل تتعداها الى المشكلات الشخصية أيضا . . . مثال ذلك اننى اعتدت انتظار صديق لى لتنغذى معا في أحد المطاعم . ولكنه قلما كان يحضر في مواعده ، فكنت أضيع في انتظاره نصف الوقت المخصص لغذائى ، وأخيرا قلت له : « اسمع يا صديقى . ان الحد الأقصى الذى قررت له لانتظارك هو عشر دقائق بعد الموعد المحدد ، فإذا حضرت بعد هذه الدقائق العشر فلن تجدنى في انتظارك » .

وكم وددت لو اننى أدركت هذا المبدأ منذ سنين مضت لأطبقة على ما كان يطرأ على من نفاذ الصبر ، واحتداد المزاج ،

واستشعار الخوف والقلق . لم يخطر لى من قبل أن أحجم عود كل موقف يتهدد طمأنينتى ، وأقول لنفسى : « اسمع ياديل كارنجى ، ان هذا الموقف لا يحتاج الأكثر من « كذا » من الوقت للاهتمام به . ثم بعد ذلك تسقطه من حسابك تماما » .

على أنه يحق لى ان أغبط نفسى قليلا على ما أبديته من حكمة فى معالجة موقف واحد على الأقل . وفى الحق انه كان موقفا خطيرا ، بل أزمة تهددت حياتى جميعا . واليك تفصيل هذه الأزمة : حين بلغت الثلاثين من عمري ، قررت أن أنفق ما بقى من حياتى فى كتابة القصص ، كنت أود أن أكون مثل « فرانك تورييس » أو « جاك لندن » أو « توماس هاردى » وكنت متلهفا على تحقيق هذه الرغبة حتى أننى ارتحلت الى أوربا ومعى قليل من الدولارات — اثناء الأزمة الاقتصادية التى أعقبت الحرب الأولى — وقضيت فى أوربا عامين اكتب قصتى الأولى ، واسميتها « عاصفة ثلجية » (The Blizzarb) والحقيقة أن العنوان جاء مصداقا للسان الحال ، فقد استقبل الناشرون قصتى تلك وهم أبرد من أعتى العواصف الثلجية ! وعندما أنهى الى الناشر الذى قصدت اليه أن قصتى تافهة لا قيمة لها ، وأننى محروم من الموهبة القصصية ونعمة الخيال ، كاد قلبى يتوقف عن الخفقان . وخرجت من مكتبه مشتت الفكر ، وأحسست كأننى واقف على مفترق طرق الحياة ، وأن على أن اتخذ أخطر قرار فى حياتى : أى الطرق أسلك ؟ وماذا أفعل ؟ ومررت أسابيع قبل أن أفيق من ذهولى . ولم أكن فى ذلك الوقت قد سمعت بمبدأ « الحد الأقصى للخسارة » ولكننى اذ أرجع النظر فى موقفى ذاك ، أرى أننى عملت وفقا لهذا المبدأ تماما ، فقد نظرت الى العامين الذين قضيتهما فى كتابة قصتى الأولى كما ينبغى أن انظر اليهما : أى على أنهما تجربة مشرفة . ومن هنا بدأت السير : عدت الى مهنتى الأولى ، أى تعليم البالغين ، وكتابة التراجم ، وتأليف الكتب كهذا الكتاب الذى بين يديك ، فى أوقات فراغى .

فهل ترانى مسرورا لاتخاذ هذا القرار ؟ بلى ! واى ليستخفى السرور متى عادت بى الذاكرة الى الوقت الذى اتخذت فيه هذا القرار ، حتى لاكاد ارقص طريا .. وفى وسعى أن أقول مخلصا: اننى لم اضيع لحظة واحدة فى الندم على اننى لم اصبح مثل « توماس هاردى » !



منذ قرن مضى ، واليوم تنعب فى الغابات القائمة على شاطئ « والدان بوند » ، غمس « هنرى ثورو » قلمه المصنوع من ريش الأوز ، فى الحبر الذى صنعه فى منزله ، ثم كتب فى مذكراته ما يلى : « ان قيمة الشيء انما تقاس بمدى الفائدة التى تعود عليك منه ، ومدى الخبرة التى يجديك اياها » . ومعنى هذا ، اننا حمقى ولاشك اذا دفعنا من صحتنا ، وسعادتنا ، ثمنا يزيد على قيمة الشيء كما فعل الموسيقيان « جليبرت وسوليفان » ! كانت مهمتهما تأليف الموسيقى ، والأغاني المرحبة التى تدخل البهجة والسرور على النفوس ، ولكن معرفتهما بادخال السرور والبهجة على حياتهما الخاصة كانت دون القليل ! لقد أخرجنا طائفة من احب « الأوبرات » الخفيفة التى أمتعت العالم مثل « الصبر » و « بينافور » و « الميكادو » (١) ، ولكنهما لم يسعهما ، مع هذا ، أن يسيطرا على مزاجهما الحاد ، بل قضيا حياتهما فى هم ونكد لقاء ثمن زهيد ... ذلك هو ثمن « سجادة » فقد أمر سوليفان بشراء سجادة للمسرح الذى اشترياه ، فلما رأى جليبرت « فاتورة الثمن » نطح الجدار برأسه كمدا ، وتخاصم الشريكان ، وتخاصيا أمام المحاكم ، وتخاصما طيلة حياتهما ! فكان سوليفان اذا كتب موسيقى إحدى الأوبرات ، أرسلها بالبريد ! الى جليبرت . فاذا فرغ جليبرت من وضع الاغاني التى تتمشى مع الموسيقى أعادها مع « النوتة الموسيقية » الى

(١) Patience. Pinafore. The Mikado.

سويغان بالبريد وكانا قبل خصامهما يستدعيان الى خشبة المسرح لتحبيهما الجماهير ، ولكنهما ، بعد خصامهما ، أصبحا يظهران على المسرح كل في طرف منه ، وكل منهما ينحنى في اتجاه مخالف حتى لا يقع نظره على غريمه ! .

انهما على نقىض « لنكولن » ، لم يجعلا للغضب حدا اقصى ! حدث مرة في خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، عندما كان بعض اصدقاء « لنكولن » يحملان حملات شعواء على أعدائهم ، أن قال لنكولن : « ان لديكم من الاحساس بالغضب والثورة أكثر مما لدى . وقد اكون خلقت هكذا ، ولكنى لا ارى ان الغضب يجدى . ان المرء لا ينبغي أن يضع نصف حياته في المشاحنات . ولو أن أحدا من أعدائى انقطع عن مهاجمتى ، لما فكرت لحظة واحدة في ماضى عدائه لى » .

وكم وددت لو أن لعمتى العجوز « اديث » روح التسامح التى اتصف بها لنكولن ! لقد عاشت مع عمى « فرانك » فى مزرعة مرهقة بالديون ، محجوز عليها ، وكانت الى هذا ، رديئة التربة ، حافلة بالأخاديد ، حتى انها ذاتا الأمرين فى استصلاح هذه الأرض ، واعتصار كل دائق يمكن استخلاصه منها . ثم حدث أن رغبت عمتى فى شراء بعض الستائر لتزين بها بيتها الريفى البسيط العاطل من أسباب الزينة ، فابتاعت هذا « الترف » على حساب بنك التسليف الزراعى الذى يملكه « دان ايفرسول » بمدينة « ماريفيل » بولاية ميسورى ولما كان عمى فرانك يزرع تحت اعباء الديون الطائلة ، فقد أوعز الى « دان ايفرسول » من طرف خفى أن يكف عن اقراض زوجته . ووقفت عمتى يوما على هذا السر ، فنطحت الجدار برأسها ، وظلت تنطح الجدار كلما تذكرته ، حتى بعد خمسين عاما ! وقد روت لى عمتى هذه القصة مرات عدة ، وفى المرة الأخيرة التى زرتها فيها ، وكانت فى السبعين من عمرها ، قلت لها : « صحيح يا عمتى « اديث » ان عمى « فرانك » قد أساء اليك ، ولكن الا تشعرين مخلصا

أن شكواك من أساعته مدى خمسين عاما أمر أكثر من الإساءة
نفسها ؟ » ولكننى كنت كمن يخاطب القمر ، وينتظر الجواب ! .
ولقد دفعت عمى « اديث » ثمنا فادحا لحقدها ومقتها ، دفعت
الثلث من صحتها ، وسعادتها .

* * *

عندما كان « بنجامين فرانكلين » فى السابعة من عمره، ارتكب
غلطة ظل يذكرها حتى بلغ السبعين من عمره ! فقد وقع فى تلك
السن فى غرام « زممار » ! واستولت عليه فكرة الحصول على
هذا « الزمار » ، فذهب الى محل اللعب ، ووضع أمام البائع
كل ما يملك من النقود فى مقابل هذا « الزمار » دون أن يعنى
حتى بالسؤال عن ثمنه ! وقد كتب « بنجامين » الى صديق له ،
عن هذا الحادثة ، بعد أن مضت عليها سبعون سنة ، يقول :
« لقد عدت الى البيت بعد أن ابتعت ذلك الزمار ، والدنيا
لا تسعنى من فرط السرور ، فلما علم اخوتى الكبار بالثمن الذى
دفعته فى هذا الزمار ضحكوا منى ساخرين ، فلم يسعنى الا أن
أبكى حنقا » . ومضت الأعوام ، وأصبح « فرانكلين » شخصية
بارزة ، وسفيرا لأمريكا فى فرنسا ، ولكنه لم ينس أنه دفع ثمنا
باهظا فى زممار زهيد القيمة . على أن الدرس الذى وعاه
« فرانكلين » من هذه التجربة لم يكن ليقوم بهال . فقد أثر عنه
قوله : « كلما كبرت ، واوغلت فى خضم الحياة ، وتأملت تصرفات
الرجال ، رأيت كثيرين جدا يدفعون ثمنا باهظا فى زممار زهيد ،
وانى لأرى أن جانبنا كبيرا من شقاء بنى الإنسان مرجعه الى سوء
تقديرهم لقيم الأشياء » .

حقا لقد دفع « جلبرت وسليمان » ثمنا باهظا فى سجاد تافه.
وكذلك فعلت عمى « اديث » وكذلك فعلت أنا فى كثير من
المناسبات . وكذلك أيضا فعل الفيلسوف الخالد « ليو تولستوى »
مؤلف أروع روايتين فى الأدب العالمى وهما : « الحرب والسلام »
و « أنا كارنينا » تقول دائرة المعارف البريطانية عن تولستوى :

انه خلال العشرين عاما الأخيرة من حياته كان أخلق الرجال في العالم بالتقدير والاحترام . فقبل وفاته بعشرين عاما — من عام ١٨٩٠ الى عام ١٩١٠ — كان المعجبون به يحجون الى بيته ، في سيل لا ينتهى ، ليتملوا من طلعتة ، ويشنفوا أسماعهم بصوته بل ليمتعوا أصابعهم بلمس مسوحة . كانت كل كلمة تخرج من فمه تدون في مذكرة كما لو كانت نبوءة رسول ! هكذا كان شأن تولستوى بصفته العامة ، أما في حياته الخاصة ، فقد كانت تصرفاته وهو في سن السبعين أكثر حمقا من تصرفات « بنجامين فرانكلين » وهو في السابعة ! تزوج تولستوى من فتاة أحبها حبا عنيقا ، وسعدا في زواجهما ، حتى لقد كانا يسجدان لله ضارعين اليه أن يديم عليهما هذه السعادة . ولكن زوجة تولستوى كانت غيورا بطبيعتها ، حتى انها اعتادت ارتداء زى الفلاحات ، والتجسس على حركات زوجها وسكناته ، وتفاقتت غيرتها على مر الأيام ، حتى أصبحت تغار على زوجها من أبنائها أنفسهم ! وقد أمسكت مرة ببندقية وكسرت بها صورة ابنتها بدافع الغيرة ! وفي مرة أخرى راحت تلوى على الأرض وزجاجة السم في يدها مهددة بالانتحار ، بينما انزوى أبنائها في ركن من الغرفة وقد عقد الرعب السنتهم .

فما الذى فعله تولستوى ردا على هذا ؟ انى لا الومه على تحطيمه الأثاث غضبا وحنقا ، فقد كان يلقي من الاستقزاز أشده ، ولكنه فعل أسوأ من هذا : أنشأ مذكرات خاصة صب فيها اللوم كله على زوجته . ذلك كان « مزماره » الباهظ الثمن ! فقد أراد أن تنصفه الأجيال القادمة ، وتصب اللوم كله على زوجته . فلماذا ترى فعلت زوجته ردا على ذلك ؟ لقد مزقت جانبيا كبيرا من مذكرات زوجها وأحرقته في النار . ثم أنشأت مذكرات خاصة صبت فيها اللوم على زوجها ، بل انها كتبت قصة بعنوان غلطة من ؟ « *Whose fault ?* » ووصفت فيها زوجها بأنه شيطان مريد ، وأضفت على نفسها صفات الشهداء والقديسين .

وماذا كان الدافع عن هذا كله ؟ ولماذا أحال هذان الزوجان منزلهما الى ما يشبه مستشفى المجاذيب ؟ لاشك أن هناك أسبابا عدة : منها رغبتهما ، كليهما ، في التأثير عثينا — نحن الأجيال التالية التي أراد منها كل منهما أن تنصفه ، وتصيب اللوم على شريكه — فهل تظن أن أحدا منا يهتم بأن يعرف أيهما كان المصيب وأيها كان المخطيء ؟ كلا ! فأنا وأنت مشغولان بمشاغلنا الخاصة ولسنا نملك أن نضيع دقيقة واحدة في التفكير في آل تولستوى الكرام .

فياله من ثمن فادح دفعه هذان الزوجان من أجل « مزار رخيص » ! لقد قضيا خمسين عاما في جحيم مقيم ، دون أن يفطن أحدهما الى وجوب تقدير الأشياء بقيمتها الحقيقية ، ودون أن يوافق أحدهما الى أن يقول لنفسه « كفى » فيقول لشريكة : « دعنا نضع حدا لهذه الحال ، اننا نسئم حياتنا من أجل توافه لا قيمة لها » .

نعم . اننى اعتقد مخلصا أن تقدير الأشياء بقيمتها الصحيحة سر عظيم من أسرار الطمانينة النفسية ، والراحة الذهنية . كما كما اعتقد أن في وسعنا التخلص من نصف القلق الذى يساورنا في التو واللحظة ، لو أن كلا منا اتخذ هذا المبدأ الذهبى ، مبدأ تقدير الشيء بقيمته الحقّة .

اذن ، فلكى تحطم عادة القلق قبل أن تحطك ، اليك القاعدة رقم (٥) :

عندما يساورك القلق من أجل الحصول على شيء ، اسأل نفسك هذه الأسئلة :

١ — ما مدى الفائدة التي سيعود بها على هذا الأمر الذى يساورنى من أجله ؟

٢ — كم من الوقت اجعله حدا أقصى لهذا القلق ؟

٣ — كم ينبغي أن ادفع ثمنا لهذا الشيء الذى يساورنى القلق من أجله ، ولا أزيد عليه ؟

الفصل الحادي عشر

لا تحاول أن تنشر « النشرة »

استطيع وأنا اكتب هذه العبارة ، أن أتطلع من نافذة غرفتي ، فأرى بعض آثار حيوان « الديناصور » (١) التاريخي في « حديقة منزلي ، لقد ابتعت هذه الآثار التاريخية من متحف « بيودي » التابع لجامعة « ييل » . ولدى خطاب من مدير هذا المتحف يقول فيه « ان هذه الآثار ترجع الى ١٨٠ مليون سنة مضت » وبديهي ان اى أحقى في الوجود ، لا يحلم بأن يعود بخياله القهقري ١٨٠ مليون سنة ليغير أو يبديل شيئاً من هذه الآثار . . . ولكن هذه المحاولة العقيمة ، في رأبي ، لا تنطوي على مثل الحماسة التي يأتيها الكثيرون منا ، حين يلقون بأنفسهم بين براثن القلق ، لأنهم لا يستطيعون تبديل ما حدث منذ ١٨٠ ثانية ! .

ان من المعقول أن تحاول تعديل « النتائج » التي ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية ، أما أن تحاول تغيير الأمر نفسه ، فهذا هو الذى لا يعقل .

وليس ثمة الا طريقة واحدة يمكن بواسطتها ان تصبح الأحداث الماضية انشائية مجددة . تلك هى تحليل الأخطاء التى وقعت فى الماضى ، والاستفادة منها ، ثم نسيانها نسياناً تاماً .

أنا أو من بهذا ، ولكن هل ترانى أملك الشجاعة دائماً لأفعل ما أو من به ؟ ولكى أجيب عن هذا السؤال ، دعنى أسرد لك تجربة مرت بى منذ بضع سنوات مضت . وترتب عليها أن أضعت ثلاثمائة ألف دولار .

(١) الديناصور حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ ، ينتهى لفصيلته

الزواحف ، ويبلغ طوله نحو ثمانين قدماً .

كنت قد وضعت مشروعا ضخما لتعليم الطلبة البالغين ،
وافتحت عدة فصول في مختلف المدن ، وانفقت المال بسخاء في
الدعاية والاعلان ، وقد استغرق قيامي في هذه الفصول كل وقتي
وسلبني كل رغبة في الاهتمام بالناحية المالية من المشروع ، ثم
اننى كنت من السذاجة بحيث غاب عنى اننى في حاجة الى مدير
لأعمالى ، مدرب على تدبير شئون المال .

وأخيرا .. وبعد مضى سنة ، اكتشفت حقيقة مريرة : هى اننى
رغم كثرة « الدخل » ، لم أحقق من الربح شيئا ! . وكنت خليقا ،
بعد أن اكتشفت هذه الحقيقة ، أن أفعل شيئين . الأول : أن أفعل
شيئا مثلما فعل العالم الزنجى « جورج واشنجتون كارفر » ،
حين أفلس المصرف الذى كان يودع فيه كل ما ادخره طيلة حياته ،
وقدره أربعون ألف دولار .. فقد سأله أحدهم ، ان كان قد
عرف أنه خسر أمواله جميعها ، اجاب : « نعم ! سمعت » ثم
انصرف الى التدريس ، وكان شيئا لم يحدث . لقد محا من ذهنه
محاو تاما كل تفكير في هذه الخسارة . حتى انه لم يعد يذكرها
بعد ذلك قط ! .. والشئ الثانى : أن أحلل أخطائى وأخرج منها
بدرس مفيد .

ولكنى لم أفعل شيئا من هذا ، بل أوقعت نفسى في براثن القلق
وعشت أشهرا طويلا في شبه دوار مستمر ، لا أذوق النوم الا
لماما ، ولا اكاد أتناول من الطعام شيئا .. اننى عوضا عن أن
أتعلم من هذه التجربة القاسية درسا ، عدت فكرت الخطأ
نفسه ، ولكن على نطاق أضيق .

وانى ليدركنى الاضطراب ، عندما أسلم بحماقتى هذه ! ...
ولكنى اكتشفت بعد ذلك أن قيامى بتعليم عشرين شخصا كيف
يتجنبون الخطأ ، أيسر من أن اكون أنا واحدا من عشرين شخصا
يتبعون تعليماتى ! .

لكم تمنيت لو أتيح لى ان اكون طالبا في كلية « جورج

واشنطن « بنويورك ، لاتلمذ على « مستر براندوين » ، ذلك
الاستاذ الذى تلمذ على يديه « الن سوندرز » من أهالى مدينة
نيويورك .

فقد حدثنى « سوندرز » ، أن « مستر براندوين » مدرس
الصحة بكلية « جورج واشنطن » علمه درسا لن ينساه أبدا ،
ثم قص على قصة هذا الدرس فقال : « لم أكن ، بعد ، قد بلغت
العشرين من عمرى ، ولكنى كنت شديد القلق حتى فى تلك الفترة
المبكرة من حياتى . . فقد اعتدت أن استعيد أخطائى . وأهتم بها
اهتماما بالغا ، وكنت اذا فرغت من أداء امتحان وقدمت أوراق
الإجابة ، أعود الى فراشى فأستلقى عليه ، ثم أعض أصابعى
وانا فى أشد حالات القلق خشية الرسوب . لقد كنت أعيش فى
الماضى ، وفيما صنعته فيه ، وأود لو أننى صنعت غير الذى كان
وأفكر فيما قلته من زمن مضى ، وأود لو أننى قلت غير الذى
قلت ، وهكذا .

« حتى كنت ذات صباح ، وقد ضمنى وزملائى الطلبة الفصل
وبعد قليل دخل المدرس « مستر براندوين » ، ومعه زجاجة
مملوءة باللبن وضعها أمامه على المكتب . . وتعلقت أبصارنا
جميعها بزجاجة اللبن ، وراحت خواطرننا تتساعل : ما دخل اللبن
فى دروس الصحة التى يلقتها لنا « مستر براندوين » ، و فجأة ،
نهض « مستر براندوين » : وأطاح بزجاجة اللبن يظهر يده ،
فوقعت على الأرض ، وكسرت ، وأريق ما فيها من اللبن ، وصاح
« مستر براندوين » : « لا يبك أحدكم على مافات » .

ثم نادانا الأستاذ واحدا فواحدا لتناول حطام الزجاجة ، واللبن
المراق على الأرض ، وجعل يقول لكل واحد منا : « انظر جيدا . .
اننى أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك ، لقد ذهب هذا
اللبن ، واستوعبته البالوعة ، فمهما تشد شعرك . وتسمح للهم
والكدر أن يمسكا بخناتك ، فلن تستطيع أن تستعيد قطرة واحدة
منه ، لقد كان يمكن بشيء من الحيطة والحذر أن تتلافى اراقة

اللبن ، ولكن . . لقد فات الوقت الآن ، وكل ما تستطيعه أن تمحو أثره وتنساه ، ثم تعود الى عملك بهمة ونشاط .

* * *

واستطرد مستر سوندرز يقول : « ولقد بقيت هذه التجربة ، الصغيرة عالقة بذهنى ، بعد أن ثلاثت منه معلومات الحساب والهندسة ، واللاتينية . بل الحق انها لم تهادتنى في حيائى العملية اكثر مما افادنى أى شىء آخر مما تعلمته خلال السنوات الأربع التى قضيتها في الكلية ، لقد علمتنى أن أحول دون اراقة اللبـن اذا استطعت ، وأن أنسى انه أريق ، اذا لم أستطع الحيلولة دون اراقته . »

وكأنى ببعض القراء يهزون أكتافهم استخفافا حين يرون كيف بالغ المدرس في تجسيم مثل سائر معروف : « لا تبك على ما فات ! » .

وأنا أعلم أنه مثل سائر معروف ، وأنتك ربما قرأته من قبل مئات المرات . ولكن أعلم أيضا أن هذه الأمثال السائرة، تتضمن جوهر الحكمة التى أعقبتها العصور المتوالية ، فان هذه الأمثال السائرة لم تخرج الا بعد أن صهرها الجنس البشرى ، في بوتقات التجارب القاسية ، لو أنك قرأت كل ما كتبه العلماء في مختلف العصور عن القلق ، ما أغناك هذا شيئا عن الحكمة الجوهريـة التى يتضمنها هذان المثـلان السائران : « لا تعبر جسرا حتى تصل اليه » و « لا تبك على ما فات » . فاذا طبقنا هذين المثـلين بدلا من أن نستخف بهما ، لما احتجنا الى كتاب — كهذا — يعلمنا كيف نتقى القلق .

بل الحق ، أننا لو طبقنا معظم الأمثال القديمة ، لعشنا عيشة مثالية لا ينجسها شىء . . على أن المعرفة لا تصبح « قوة » يعتد بها ، حتى توضع موضع التجربة ، وليست غاية هذا الكتاب أن يطلعك على أشياء لم تعرفها من قبل ، وإنما هدفه أن يذكرك

بها تعرفه فعلا ، وان يحفزك على تطبيق ما تعرفه على هياتك .
لقد كنت على الدوام ، أعجب برجل مثل « فرد فوللرشد »
الذى اوتى القدرة على ان يعيد كتابة الحقائق القديمة المعروفة
بطريقة جذابة مشوقة ، حين كان يرأس تحرير جريدة « فيلادلفيا
بولتين » ، حدث انه كان يحاضر طلبة السنة النهائية باحدى
الجامعات فسألهم ؟ « كم منكم مارس نشر الخشب ؟ » فرجع
كثير من الطلبة اصابهم فعاد يسألهم .. « وكم منكم مارس
نشر « نشارة الخشب ؟ » فلم يرفع أحد اصبعه . وعندئذ قال
مستر شند : « بالطبع لا يمكن لأحد ان ينشر نشارة
الخشب » ، فهى « منشورة » فعلا ، وكذلك الحال مع الماضى .
« فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت فى الماضى فاعلموا انكم تمارسون
نشر النشارة ! » :

* * *

عندما بلغ « كونى ماك » لاعب « البيسبول » المشهور ،
الواحدة والثلاثين من عمره ، سألته هل كان يقلق من اجل
المباريات التى خسرها ، فأجاب : « نعم . كنت أقلق فى وقتما
ولكنى تغلبت على هذه الحماسة منذ سنوات عديدة مضت ..
فقد وجدت ان القلق على الماضى لا يجدى شيئا ، تماما ، كما
لا يجديك ان تطحن الدقيق ! » .

نعم ! ليس يجديك ان تطحن الدقيق ، ولا ان تنشر النشارة ،
وكل ما يجديك اياه القلق هو ان يرسم التجاعيد على وجهك ،
او يصيبك بقرحة فى المعدة .

* * *

تناولت العشاء ، أخيرا مع « جاك دمبسى » بطل الملاكمة
القديم المعروف ، فحدثنى عن مباراته مع « تونى » التى خسر
فيها لقب « بطل العالم فى الوزن الثقيل » ، وكانت بلاشك ضربة
لكبريائه .. قال :

« في غمار تلك المعركة أدركت أنني أصبحت عجوزا ، وفي نهاية الجولة العاشرة ، زابلنى الأمل في الفوز اطلاقا ، وان كنت ظللت واقفا على قدمي .. فقد كان وجهي يدمى .. وعيناي لا تبصران شيئا . وشاهدت الحكم وهو يرفع ذراع «جين تونى» معلنا فوزه بالبطولة ، فعرفت أنني لم اعد بطلا ، واتخذت طريقي الى حجرتى وسط حشود المتفرجين . بينما المطر ينهمر بشدة .. وحاول بعض النظارة أن يمسكو بيدي معزين مواسين ، ولحت الدموع تترقرق في مآقي بعضهم الآخر .

« وبعد مضى سنة على هذه الهزيمة ، نازلت تونى مرة أخرى ولكن بلا جدوى .. فقد قضى على الى الأبد . وكم كان من الصعب على أن أبعد عن نفسي القلق الذى جلبه الى اليأس ولكننى قلت لنفسى : اننى لن اعيش فى الماضى ولن أبكى على ما فات لسوف أحتمل هذه الضربة واقفا ، ولن أدعها تطرحنى أرضا » .

وهذا بالضبط هو ما فعله جاك دمبسى ، وكيف ؟ لأنه قال : « لن ألق على الماضى قط » ؟ كلا ! فان هذا كان جديرا بأن يدفعه الى التفكير فى الماضى واستزاده قلته . وانما بتسليمه بهزيمته أولا ، ثم بتحويل ذهنه الى مشروعات المستقبل ثانيا فانه لم يلبث أن افتتح مطعمها فى « برودواى » ، وفندقا فى الشارع السابع والخمسين .. فضلا عن هذا تبرع بجوائز للملاكمة ، وجعل يقيم استعراضات للملاكمة بين حين وآخر .. لقد شغل نفسه بمشروعات انشائية حتى لم يبق له من الوقت ما يتيح له التفكير فى الماضى . قال لى دمبسى : « لقد عشت فى خلال السنوات العشر الماضية عيشة أفضل بكثير من تلك التى كنت أعيشها وأنا بطل العالم » .

* * *

اننى اذ أقرأ كتب التاريخ ، والتراجم ، واتأمل تصرفات الناس فى مختلف المواقف ، تملكى الدهشة من مقدرة بعض الناس على

محو قلقهم ومآسيتهم ، والاستفراق في الحياة كأن شيئا لم يحدث ، لقد زرت مرة سجن « سنج سنج » . فأدهشنى أن نزلاءه لا يقتلون حفا من السعادة عن أقرانهم خارج جدران السجن . . وقد أفضيت بهذه الملاحظة الى مدير السجن « لويس لوز » ، فقال « ان المحكوم عليهم بالسجن حين يأتون الى هنا يحسون المرارة ، وتعمل في نفوسهم الثورة ، فما ان تنقضى بضعة أشهر ، حتى يحو الأذكيا منهم كل تفكير في تعاستهم وسوء حظهم ، ويسلموا بحياة السجن ، ويمضونها في هدوء وسكينة » وقد حدثنى « لويس لوز » عن سجين من نزلاء « سنج سنج » يشتغل بستانيا ، كان يغنى وهو يفرس البذور والأزهار في حقول السجن ، ثم أردف قائلا « ان البستاني على حظ من الذكاء يفوق الكثيرين منا فهو يعمل بقول الشاعر :

« اذا القول قيل أو اللفظ كتب ،
أو خاطر جال أو الفكر وثب ،
فليس يرد القول جهد ولا نصب ،
وليس يعيد الفكر مدمع سكب »

فلماذا تضع الدموع هباء وليس في استطاعتها أن تعيد ماضى وولى ؟ لاشك أننا جميعا ارتكبنا كثيرا من الأخطاء والحماقات ، فمن ذا الذى خلق معصوما من الخطأ ؟ فلا تنحصر على ما فات من أخطائك ، لأن الحسرة ان تجديدك فتىلا ، لأنه ليست هناك قوة فى العالم يسعها ان تعيد الماضى ، أو تغير منه أو تبدل واذكر دائما القاعدة رقم (٦) :

لاتحاول أن تنشر النشارة .

الجزء الثالث في سطور

القاعدة رقم (١) :

انشغل عن القلق بالاستغراق في العمل فان العمل هو
خير علاج للقلق أخرج للناس .

القاعدة رقم (٢) :

لا تهتم بالتوائفه ، ولا تدع صبغائر المشكلات تهدم
سعادتك .

القاعدة رقم (٣) :

كلما ساورك القلق على شيء سائل نفسك « الا يحتمل
الا يحدث هذا الشيء الذي أقلق من أجله اطلاقا ؟ » .

القاعدة رقم (٤) :

أرض بما ليس منه بد ، واذا أدركت أن الفرصة لتغيير
شيء أو تبديله قد تجاوزتك الى غير رجعة فقل لنفسك :
« هكذا أريد للأمر أن يكون ولا يمكن الا أن يكون الأمر
هكذا » .

القاعدة رقم (٥) :

ضع حدا أقصى للقلق . قدر قيمة الشيء ، ولا تعطه
من القلق أكثر مما يستحق .

القاعدة رقم (٦) :

دع التفكير في الماضي ، فليست هناك قوة يسمعها أن تعيد
الماضي ، ولا تحاول قط أن تنشر النشارة .

الجزء الرابع

سبع طرق لخلق اتجاه ذهني
يجلب لك الطمأنينة والسعادة

الفصل الثاني عشر

حياتك من صنع افكارك

منذ سنوات قلائل مضت ، طلب الى في احد برامج الاذاعة ان اجيب على السؤال التالي : « هل في حياتك درس لا ينسى ؟ » وكان الجواب من البساطة بمكان ، فقد قلت على الفور : «الدرس الذي وعيته ولن أنساه ، هو ان للأفكار المسيطرة على المرء تأثيرا عظيما في تكييف حياته » . ان افكارنا هي التي تصنعنا ، واتجاهنا الذهني (Mental Attitude) هو العامل الأول في تقرير مصائرنا . قال اميرسون : « نبني بما يدور في ذهن الرجل ، أبنئك أى رجل هو » . نعم ! فكيف يكون الرجل شيئا آخر غير ما ينبىء عنه تفكيره ؟

واعتمادى الذى لا يتطرق اليه الشك ، ان المشكلة الكبرى التى تواجهنا جميعا هى كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة . فاذا حللنا هذه المشكلة حلت سائر مشكلتنا ، وزالت احداهما فى اثار الأخرى . وقد لخص الفيلسوف « ماركوس أوريليوس » الذى حكم الامبراطورية الرومانية ، هذه المشكلة فى ثمانى كلمات ... ثمانى كلمات يستعها أن تغير مجرى حياتك ، وهى:

- Our Life is What our thour thoughts make it

أى : « ان حياتنا من صنع افكارنا » .

اجل . فاذا نحن راودتنا افكار سعيدة كنا سعداء ، واذا

تملكتنا أفكار شقية أصبحنا أشقياء ، وإذا سادتنا أفكار مزعجة غدونا خائفين جبنا ، وإذا سيطرت علينا أفكار السقم والمرض ، فالأرجح أن نمسى مرضى سقماء ، وإذا نحن فكرنا في الفشل ، اتانا الفشل في غير ابطاء ، وإذا جعلنا نندب أنفسنا ، ونرثى لها اعتزلنا الناس ، وتجنبوا عشرتنا .

قال « نورمان فنسنت بيل » : « انك لست من تفكر انه انت ، وانما انت ما تفكر » (١) .

أترانى ادعو الى اتخاذ موقف ذهنى سلبى حيال كل مايعترضنا من مشكلات ؟ فالحياة لسوء الحظ لا تعفينا قط من العمل ، انما انا ادعو الى اتخاذ موقف ايجابى ، بمعنى ان « نواجه » مشكلاتنا لا ان « نقلق » من اجلها فما الفرق بين مواجهة المشكلات ، و « القلق » من اجلها ؟ دعنى اضرب لك الأمثال :

في كل مرة اعبر فيها اهد شوارعنيويورك المكتظة بالموصلات فائتى « اواجه » ما انا فاعله ، ولا اقلق من اجله .. فالواجهة معناها ادراك كنه المشكلة ، واتخاذ الخطوات اللازمة الايجابية لحلها في هدوء واتزان . اما القلق فمعناه اللف والدوران حول المشكلات في غير وعى ولا ادراك .

وقد يستطيع الرجل ان يواجه اشد المشكلات قسوة وتعقيدا ، بينما هو يفتدو ويروح مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، وقد يرشق زهرة انيقة في سترته !! ولقد رايت بنفسى « لويل توماس » يفعل هذا .. فقد حظيت ذات مرة بالاشتراك معه في تقديم افلامه الشهيرة عن حملات « النبي ولورنس » في الحرب العالمية الاولى . كان هو ومساعدوه قد التقطوا مناظر الحرب في ست من جبهات القتال ، وكان اسم تلك المناظر جميعا ،

(١) "You are not what think but , what you think yor are Norman Vincent Peale.

ما سجل للكولونيل لورنس على رأس الجيش العربي ، واللورد اللبى اثناء غزوة فلسطين . وقد لاقت تلك الاشرطة السينمائية التى كانت تسمى « مع اللبى فى فلسطين ، ولورنس فى جزيرة العرب » ، رواجاً منقطع النظير فى بريطانيا وسائر انحاء العالم ، بل لقد تأجل موسم الاوبرا فى لندن لمدة ستة أسابيع ، حتى يتاح لافلام « لويل توماس » المثيرة أن تعرض فى « دار الاوبرا الملكية - كوفنت جاردن » . فلما لاقت هذه الافلام رواجاً كبيراً فى لندن ، شرع « لويل توماس » فى القيام برحلة ناجحة حول العالم لعرض افلامه . وحين فرغ من رحلته ، أمضى عامين وهو يستعد لاجراء فيلم عن الحياة فى الهند وأفغانستان ، وقد باء هذا المشروع بالفشل الذريع ووجد « توماس » نفسه فى لندن مفلساً معدماً .. وكنت أنا معه فى ذلك الحين . وأذكر أننا كنا نتناول أرخص الوجبات ثمناً فى أرخص المطاعم ، وما كنا لنتناول وجبات على الاطلاق لو لم نقترض ثمنها من « جيمس ماكس » الفنان الاسكتلندى المعروف .

وهدفى من سرد قصة « لويل توماس » أنه رغم غرقه فى الديون ، وبرغم خيبة الأمل التى منى بها .. كان « يواجه » مشكلته ، ولا يقلق من أجلها .. فقد كان يعلم أنه لو امتثل للقلق لسقط من أعين الناس ولقضى عليه ، ومن ثم ، فقد كان يستحضر ، قبل خروجه من بيته كل يوم ، وردة نضرة يثبتها فى عروة سترته ، ويخرج هكذا الى « شارع أكسفورد » مرفوع الرأس ثابت الخطوات .

كان تفكيره ايجابياً ، فرفض أن يستسلم للهزيمة ، وكان قويا فلم تنل منه خيبة الأمل ، وكان حكيماً فاتخذ من هذه المحنة التى مر بها حنكة لا غناء عنها لكل من أراد أن يصل الى القمة .

ان لاتجاهنا ذهنى تأثيراً عجبياً حتى فى قوتنا ، وقد أوضح العالم النفسانى الانجليزى « ج. ا. هادفيلد » هذه الحقيقة

في كتابه الرائع « سيكولوجية القوة » (١) .

قال : أجريت على ثلاثة رجال تجربة لاختبار تأثير الاتجاه
الذهنى في قوامهم ، التى كنت أقيسها بواسطة « دينامومتر »
جعلتهم يقبضون عليه بكلتا يديهم وجماع قوتهم . وقد قسم
هادفيلد التجربة الى ثلاث مراحل ففى المرحلة الأولى اختبر قوة
الرجال الثلاثة وهم فى اكمال وعيهم ، فكان معدل قوتهم ١٠١
رطلا ثم نومهم تنويها مغناطيسيا وأوحى بأنهم غاية فى الضعف
والوهن ، فكان معدل قوتهم ٢٩ رطلا — أى أقل من ثلث قوتهم
العادية ! — وكان أحد هؤلاء الثلاثة رياضيا معروفا ، فلما قيل
له وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسى انه ضعيف ، عقب على
ذلك بقوله : انه يشعر كأن ذراعه نحيلة واهنة كذراع الطفل
الوليد ! .

وفى المرحلة الثالثة أوحى اليهم ، وهم تحت تأثير التنويم
المغناطيسى أنهم غاية فى القوة فأربنى معدل قوتهم على ١٤٢ رطلا!
أى أنهم عندما امتلأت أذهانهم بفكرة القوة ، ازدادت قوتهم فعلا
بنسبة خمسمائة فى المائة تقريبا ! .. هذا هو التأثير العجيب
للانجاء الذهنى .

ولكى أعطيك فكرة عن قوة التنكير (Thought) دعنى
أروى لك قصة من أعجب القصص ، أستطيع أن أوجزها لك ،
رغم أنها طويلة يمكن أن تملا كتابا بمفردها .

فى ليلة قارسة البرد من ليالى شهر أكتوبر ، عقب انتهاء
الحرب الأهلية الأمريكية بفترة وجيزة ، طرقت باب « الأم
وبستر » (٢) — وهى زوجة قبطان بحرى متقاعد كان يعيش فى
بلدة « أمزبرى » بولاية ماساتشوستس — امرأة مشردة ،

(1) J. A Hadfield "Psychology of Power"

(2) Mother Wepster

لا عائل لها ولا مأوى . وفتحت « الأم وبستر » الباب فوجدت نفسها حيال مخلوطة واهنة ، محطة لاتزن أكثر من مائة رطل من الجلد والعظام .. وأوضحت لها « الطارقة » ، وتدعى « مسز جلوفر » أنها تفتش عن مأوى تأوى اليه ليلتها تلك ... قالت لها مسز وبستر : « ولماذا لا تقيمين معى ؟ اننى وحيدة فى هذا المنزل الكبير » .. وكان من المحتمل أن تقيم مسز جلوفر مع المسز وبستر دواما ، لولا أن « بيل اليس » زوج ابنة الأخيرة ، حضر من نيويورك فى اجيزة ، فلما رأى « مسز جلوفر » صاح فى حماه قائلا : « لا أريد أن يأوى هذا البيت المشردين وأبناء السبيل ! » ، وقوله هذا بان القى بالمرأة الشريفة الى عرض الطريق . وكان المطر يهطل مسدرا را ، فوقفت المرأة البائسة تحت المطر الهتون برهة ، ثم درجت فى الطريق الزلقة ، لا تلوى على شىء ! .

والجانب العجيب فى هذه القصة انه قد قدر لهذه المرأة البائسة الشريفة التى طردها « بيل اليس » أن يكون لها من « التأثير الفكرى » فى العالم أجمع ، أكثر مما كان لأية امرأة سواها عاشت على الأرض !! وهى تعرف الآن لدى الملايين من تلاميذها وأبنائها المخلصين باسم « ماري بيكر ايدى » - مؤسسة « العلم المسيهى » (١) .

غير أن هذه السيدة لم تكن تعلم فى ذلك الوقت شيئا من أمور الحياة ، اللهم الا للجوع ، والفقر ، والمرض فقد مهت زوجها بعد زواجهما بوقت قصير ، وهجرها زوجها الثانى هاربا مع امرأة متزوجة ، ثم وجد فيما بعد ميتا فى منزل حقير ، وكان لها ولد واحد ، لكنها ألفت نفسها ، مدفوعة بالفاتمة والمرض والنبؤس الى التخلّى عنه حين بلغ الرابعة من عمره ، ثم فقدت كل أثر له بعد ذلك ، فلم تراه أبدا لمدى واحد وثلاثين عاما ! .

(١) Mary Baker Eddy-Founder of "Christian Science"

ولما كانت « مسز ايدى معتلة الصحة على الدوام ، فقد انسأقت الى الاهتمام بما أسمته « العلاج بقوة العقل » *The science of mind healthing* وقد وقعت نقطة التحول الأساسية فى حياتها فى مدينة «لين» بولاية ماساشوستس فبينما هى تجوب طرقات البلدة ذات يوم ، اذ زلت قدمها ، فسقطت على الأفریز المكسو بالجليد ، وراحت فى اغماء طويل ، وكان من جراء سقطتها هذه ، أن أصيب عمودها الفقرى باصابة بالغة وتوقع لها الأطباء اما الموت العاجل واما الشلل التام الذى يقعدما طيلة حياتها ! .

وبينما « مارى بيكر » راقدة على فراش المرض ذات يوم، اذ فتحت « الكتاب المقدس والهمتها العناية الالهية — كما صرحت هى — أن تقرأ هذه الكلمات للقديس متى « واذا مفلوج يقدمونه اليه مطروجا على فراش ... حينئذ قال للمفلوج : قم احمل فراشك ، واذهب الى بيتك ، فنهض وغادر المكان » .

قالت « مارى بيكر » : ان هذه الكلمات أمدتها بقوة وايمان . وبقدرة داخلية ، حتى انها نهضت من الفراش ، وتمشيت فى الغرفة ! . مهدت هذه التجربة « لمسز بيكر » الطريق الى شفاء نفسها وشفاء الآخرين ، واكسبتها يقينا راسخا . ان علتها لم تكن الا ظاهرة عقلية ، فحين امتلأ ذهنها بفكرة الصحة والقوة غدت صحيحة قوية .

تلك هى التجربة التى مكنت « مارى بيكر ايدى » من أن تصبح مبشرة بدين جديد ، لعله الدين الوحيد الذى بشرت به امرأة ، وذلك هو « العلم المسيحى » .

ولعلك الآن ايها القارئ تقول لنفسك : « ان هذا الرجل ، كارنيجى ، قد انقلب مروجاً لمبادئ « العلم المسيحى » . كلا ؛ فلست من أتباع العلم المسيحى ، ولكنى كلما امتدت بى الحياة .

ازدادت اقتناعا بقوة الفكر ، ومدى تأثيره على الجسد . وأنا
أعرف رجالا ونساء يسعهم اقضاء القلق والمخاوف والأمراض ، بل
يسعهم تحويل مجرى حياتهم تحويلا شاملا عن طريق أفكارهم ،
وقد رأيت بنفسى هذا التحول يطرا على حياة بعض الناس ، حتى
حتى ان مثل هذا التحول لم يعد يبدو لى مستغربا .

وقد حدث تحول من هذا النوع لطالب من طلبتى ، يدعى
« فرانك هويلى » من أهالى « سلنت بول » بولاية مينيسوتا .
حدثنى فرانك بقصته فقال : كنت أقلق من أجل كل شيء . من
أجل نحافتى ، ومن أجل تساقط شعر رأسى ، وكنت أخشى ألا
أستطيع الزواج من الفتاة التى أريدها ، إلا أحياء الحياة التى
أشتهيها ، وكنت أقلق من أجل الأثر الذى أتركه فى الناس ، ومن
أجل ظنى أننى مصاب بقرحة فى المعدة ، ولم أستطيع الاستمرار
فى عملى فتركته ، وازداد بى التوتر ، حتى غدت كهرجل يغلى
وما له من صمام أمان ! ثم آن للرجل أن ينفجر فتنفجر ، وأصبحت
باتهيار عصبى ! . وأسأل الله تعالى أن يقيك الانهيار العصبى ،
فما من ألم يدانى فى قسوته ومرارته الألم العاصف الناشئ عن
توتر الأعصاب :

« وكان الانهيار العصبى الذى أصابنى ، من الشدة بحيث
لم أستطيع أن أكلم أحدا حتى من أهلى ، ولم تعد لى سيطرة على
أفكارى ، بل كان يملكنى خوف قاتل ، حتى كنت أهب فزعا لأقل
صوت أسمعه ، وتجنبت الناس جميعا ، وأصبحت أنفجر باكيا
بين الحين والحين بغير سبب على الإطلاق .

« كانت أيامى المتوالية ، فى ذلك الوقت ، محضا متوالية ،
وأحسست أن البشر جميعا ، بل العناية الإلهية أيضا ، قد
تخلت عنى ، حتى لقد خطر لى أن أقفز الى النهر ، فأضع حدا
لهذا العذاب .

غير أنى تررت هوضا عن الانتحار ، أن أرحل الى فلوريدا ،
مؤملا أن أجد العون فى اختلاف المناظر فلما ارتفعت درجات الحرارة

سلمنى أبى مظلونا وأوصانى إلا أفتحه حتى أصل الى فلوريدا، ووطئت قدماى أرض فلوريدا فى أوج موسم الاصطياف ، فلم أهتد الى غرفة واحدة خالية فى فىندى ، ثم وفقت أخيرا الى غرفة فى داخل « جراج » ، وحاولت بعد ذلك ، أن التحق بعمل على باخرة شحن تعمل خارج « ميامى » ولكنى لم أوفق ، ومن ثم كنت أقضى الوقت كله على الشاطئ . ولقد عانيت فى فلوريدا بؤسا أشد مما عانيت فى بلدتى .

« وفتحت المظلوم الذى أعطانيه والدى ، وقرات فيه : « ولدى : انك الآن على بعد ألف وخمسمائة ميل من بيتك، ومع ذلك لست تجس فارقا بين الحالتين هنا وهناك ، أليس كذلك ؟ أنا أعلم أن الأمر كذلك ، لأنك أخذت معك ، عبر هذه المسافة الشاسعة الشيء الوحيد الذى هو مرد كل ما تعانيه ، ذلك هو نفسك ! لا آفة البتة بجسمك أو عقلك ، ولا شيء من التجارب التى واجهتها قد تردت بك الى هذه الهوة السحيقة من الشقاء ، وإنما الذى تردى بك هو الاتجاه الذهنى الذى واجهت به هذه التجارب فكما يفكر المرء ، يكون . فمتى أدركت ذلك يا بنى ، عد الى بيتك وأهلك ، فانك يومئذ قد شفيت » .

« ولقد اهاجنى خطاب والدى وأغضبنى ، فما كنت أبغى منه النصح والارشاد وإنما كنت أطمع فى الشفقة ، والعطف ، والثناء ، بل وصل بى الغضب الى حد أن قررت ألا أعود الى البيت قط . وفى تلك الليلة ، وبينما أنا أذرع أحد شوارع ميامى، صادفت كنيسة فى طريقى تقام فيها الصلوات ، ولما تكن لى وجهة معينة ، فقد وجدتنى منساقا الى داخلها لأستمع الى المواعظ الدينية التى تلقى ، وكان عنوانها « هذا الذى يقهر نفسه ، أعظم من ذلك الذى يفتح مدينة » . وكاننا كان جلوسى فى معبد من معابد الله ، وانصاتى الى الإنكار نفسها التى ضمنها أبى خطابه تقال بصيغة أخرى ، بمثابة محاة ، محت الاضطراب الذى يطغى على عقلى . فقد وسعنى فى تلك اللحظة ، أن أفكر تفكيرا متزنا

للمرة الأولى فى حياتى . ولقد هالنى اذ ذاك ، ان ارى نفسى على حقيقتها . نعم ! لقد رايتنى اريد اغير الدنيا وما عليها ، فى حين ان الشئ الوحيد الذى كان فى اشد الحاجة الى التغير ، هو تفكيرى ، واتجاه ذهنى .

« وفى اليوم التالى حزمت امتعتى ، ويممت شطر بلدتى . ولم يمض اسبوع بعد ذلك حتى عدت الى عملى . ثم لم تمض بضعة اشهر ، حتى تزوجت من الفتاة التى خشيت ان افقدها . وانا الان رب اسرة سعيدة مؤلفة من زوجتى وخمسة ابناء . لقد لطف الله بى ماديا ومعنويا واخرجنى من هذه المحنة بسلام . وفى الوقت الذى دهمنى فيه الانهيار العصبى كنت اشتغل حارسا لبليا اراس ثمانية عشر عاملا . اما اليوم فانا مشرف على مصنع لانتاج الكرتون ، واراس اكثر من اربعمائة وخمسين عاملا . ان الحياة لتبدو لى الان امتع واحفل ، واحسب اننى الان مقدر قيمة الحياة ونعمها . واذا حاول الان شئ من القلق ان يتسرب الى نفسى كما يفعل مع كل نفس — فانى اقول لنفسى : اضبط اتجاهك الذهنى وزنه ، وسوف يسير كل شئ على ما يرام .

* * *

« واننى لا يسعنى الا ان اغبط نفسى مخلصا على اننى اصبت بالانهيار العصبى ! .. فقد تعلمت مدى سيطرة عقولنا على اجسامنا ، وفى استطاعتى الان ان استنهض افكارى الى العمل فى صالحى — كما اننى ادرى الان ان ابنى كان على حق حين قال: ان التجارب ليست هى سر مرضى ، وانما موقفى منها . واتجاهى الذهنى حيالها هما سر ما الم بى » .

* * *

تلك كانت التجربة التى عاناها « فرانك هوبلى » ولعلك تقنن بعدها بان سلامة عقولنا ، واستمتاعنا بالحياة ، وتقديرنا لنعمها لا تعتمد على ماهيتنا ، او على مقدار ما نملكه وانما تعتمد على

طبيعة اتجاهنا الذهني فحسب . ودعنى اضرب لك مثلاً آخر « جون براون » الذى اعدم شنقاً لأنه احتل الترسانة فى « هاربرز نيرى » وحاول أن يحرض العبيد على الثورة . لقد سيق الى غرفة الأعدام وهو جالس فوق أكتافه ، وجلاده الى جواره ، وكان الجلاذ تلقوا مهتاج الأعصاب ، أما جون براون العجوز ، فكان يشمله الهدوء والاطمئنان ! . . . وحين تطلع الى قمم جبال « بلوردج » فى فرجينيا ، هتف من أعماق قلبه : « يا لها من بلاد جميلة ! ان الفرصة لم تسنح لى من قبل كى أراها فى اكتمال بهائها ! » .

أو خذ مثلاً « روبرت فالكون سكوت » وأصحابه ، وهم أول جماعة من الانجليز ارتادت القطب الجنوبى . فلعمل رحيلهم الى القطب كان اقصى رحلة قام بها انسان . فقد نفذ طعامهم ، ووقودهم ، وعتادهم . ولم يسعهم الاستمرار فى السير بعد أن حاصرتهم عاصفة ثلجية هوجاء ، ظلت تعصف بطرف السكون الجنوبى أحد عشر يوماً لباليها . وكان « سكوت » وصحبه يعلمون أنهم ملاقون حتفهم ، وكانوا قد استحضروا معهم كمية من المخدر لمواجهة الموت ، فما هى الا جرعة كبيرة من المخدر يتناولها كل منهم حتى يستغرق رويداً فى نوم لا يفيق منه أبداً . . . لكنهم تجاهلو المخدر ، وماتوا وهم ينشدون الأغاني والأهازيج المرحة ! وقد علم الناس سميتهم هذه من خطاب وجدته على جثثهم المتجمدة قافلة استكشافية ارتادت القطب بعد ذلك بنحو ثمانية شهور ! اننا لو داعينا الأفكار الانشائية ، المشجعة ، الهادئة ، لاستطعنا أن نستمتع بكل لحظة من لحظات حياتنا ، حتى ولو كنا على فراش الموت ، أو مساقين الى حيل المشنقة ، أو ضارين فى ثلوج القطب الجنوبى .

وقد وقع الشاعر ملتون ، برغم فقد بصره ، على هذه الحقيقة منذ ثلاثمائة عام مضت اذ قال :

« فى وسع العقل أن يخلق ، وهو فى مكانه مقيم

« جحيما من الجنة ، أو نعيما من الجحيم »

ومن الأشخاص الذين تنطبق عليهم كلمات « ملتون » هذه ، « نابليون » ، « وهيلين كيلر » . . لقد حصل « نابليون » على أقصى ما يطمع فيه انسان من المجد ، والجاه ، والسلطان ، ورغم ذلك كله ، فقد قال يوما في منفاه بجزيرة «سانت هيلانة» : « اننى لم أذق في حياتى السعادة الحققة ستة أيام سويا ! » فى حين صرحت « هيلين كيلر » يوما — وهى العمياء ، الصماء ، البكماء — بقولها « لقد استمتعت بمناهج الحياة ، ونعمت بجمالها » ! واذا كان نصف قرن من الحياة على هذه الأرض قد علمنى شيئا ، فذلك « هو أنه ما من شىء على الاطلاق يسعه أن يواتيك بالراحة والاطمئنان سوى نفسك » . . وأنا اذ أقول هذا ، انما أكرر ما سبق أن قاله « ايمرسون » فى ختام مقاله المتع عن « الثقة بالنفس » : « انتصارا سياسيا ، أو ازديادا فى دخلك ، أو شفاء مريض عزيز عليك ، أو عودة صديق حبيب الى قلبك ، أو أى عامل آخر من هذه العوامل « الخارجية » يبعث السرور فى نفسك ، فتحسب أن الأوقات السعيدة قد واتتك أخيرا ولكنى أنصحك الا تتمادى فى هذا الظن ، فلا شىء يسعه أن يجلب لك السعادة الحققة الا نفسك » ! .

وقد حذرنا ، « ابكتيتوس » ، الفيلسوف الروائى ، بأن ازالة الأفكار الخاطئة من العقل اجدى بكثير من ازالة أورام الجسد . الفى ابكتيتوس بتحذيره هذا منذ تسعة عشر قرنا مضت ، ومع ذلك فان الطب الحديث يؤيده . فقد صرح الدكتور « ج . كابتى روبنسون » أن اربعة مرضى من كل خمسة ينزلون بمستشفى « جونز هوبكنز » يشكون أمراضا عضوية تدخلت فى اجتلابها الأعصاب المتوترة ، والضغط الداخلى . واستطرد الدكتور يقول : « ويمكن ارجاع تلك الأمراض عموما الى عجز المرء عن الملاعبة بين نفسه ومطالب الحياة أو مشكلاتها » .

وقد اتخذ « مونتان » الفيلسوف الفرنسى الكلمات التالية

شعرا له في الحياة : « ان المرء لا تضيره الحوادث ، وانما الذي يضره حقا هو تقديره للحوادث .. وتقديرنا للحوادث امر يتروك لنا وحدنا » .

ماذا تظننى - ايها القارىء - احاول ان اقول ؟ .. اترانى انصحك ، متى غرقت في مشكلة من مشكلات الحياة ، توترت لها اعصابك ، واهتاجت لها خواطرك ، وذهب لها تفكيرك كل مذهب ، ان تتخير ، بمحض اختيارك ، الموقف الذهنى الذى تتفه منها ؟ نعم ! هذا بالضبط هو ما اهدف اليه ! ليس هذا وحسب ، بل اننى سوف ابين لك هنا كيف تفعل هذا :

قال « وليم جيمس » العالم النفسانى الذى لم يدانه أحد من العلماء في مضمار علم النفس العملى : « الذى يبدو لنا جميعا ان الفعل يعقب الاحساس ، ولكن الواقع ان الفعل والاحساس يسيران جنبا الى جنب .. فاذا سيطرنا على الفعل الذى يخضع مباشرة للارادة . امكنا بطريق غير مباشر ان نسيطر على الاحساس » .

أو ، بمعنى آخر يريد « وليم جيمس » ان يقول : ليس في استطاعتنا ان نغير شيئا من احساساتنا بمحض ارادتنا ، ولكن في استطاعتنا ان نغير افعالنا ، فاذا غيرنا افعالنا ، تغيرت احساساتنا بطريقة آلية .

ويستطرد « وليم جيمس » فيقول : « ومن ثم ، فان الطريق المفضية الى للسعادة - اذا افتقدت السعادة - هى ان تبدو كما لو كنت سعيدا .. » .

هل وقفت على السر الآن ؟ انه من البساطة بمكان . جربه بنفسك : ارسم على وجهك ابتسامة عريضة ، وارجع كتفك الى الوراء ، واملأ رئتيك بالهواء ، وغن مقطعا من اغنية ، او صفر بنمك ان كنت لاتستطيع الغناء ، او همهم ان كنت لاتستطيع الصفر ، وحينئذ سوف تترك في التو واللحظة ، ما يعنيه «وليم

جيمس » .. وسوف ترى أن من المحال أن تلبث منقبضا كئيبا
وانت « تصطنع » السعادة ! .

أعرف امرأة في كاليفورنيا — أمسك عن ذكر اسمها — يسعها
أن تحو شقاءها جميعا في مدى أربع وعشرين ساعة لو أنها
وقفت على هذا السر . انها أرملة عجوز — وهذا أمر يبعث
على الاكتئاب حقا — ولكن هل تراها حاولت قط أن تتكلف
السعادة ؟ كلا ! اذا سألتها : « كيف حالك ؟ » أجابتك : « اننى
بخير » ، ولكن التعبير المرتسم على وجهها ، والبؤس المظلم من
عينها ، والنغمة التى تحملها كلماتها ، كلها تصرخ فيك قائلة :
« يا الهى ! لو أنك فقط علمت بالأهوال التى مرتت بها ! »
وانها ليبدا عليها كأنها تلومك ، لأنك تظهر السعادة فى حضرتها!
والواقع أن آلاف النساء أسوأ منها حالا . فقد ترك لها زوجها
بعد وفاته ، مالا ، هو قيمة التأمين على حياته ، يكفيها لأن
تعيش عيشة رغدة لينة ، ماتبقى لها من العمر . ولها أبناء
متزوجون يوفرون لها المأوى ، ولكن قلما رأيتها تبتمس ! انها
تشكو على الدوام .. تشكو من ازواج بناتها وفضاظتهم
وانانيتهم .. ومن أن بناتها لا يقدمن لها الهدايا ، فى حين أن لها
من مالها ما يغنيها عن معونة أى انسان .. انها على الجملة ،
مبعث شقاء لنفسها ولعائلتها .

ولكن — هل كتب عليها أن تظل كذلك ؟ هذا هو وجه الأسف!
فى استطاعتها ، لو شأعت ، أن تحيل نفسها من امرأة شقية
تعسة كئيبة ، الى سيدة محبوبة ، لطيفة المعشر ، معززة من
أفراد أسرتها . وكل ما يقتضيه الأمر أن تصطنع المرح ، وأن
توجه ما بقى فى قلبها من حب الى الناس ، بدلا من أن تنفقه فى
الرتاء لنفسها ، وبكاء حظها ! .

واعرف رجلا من « انديانا » ، يدعى « هـ . ج . انجلرت »
يرجع السبب الاول فى بقاءه الى الآن على قيد الحياة الى وقوفه
على هذا السر . فمنذ عشرة أعوام خلت ، مرض مستر انجلرت

بالحمى القرمزية ، فلما شفى منها أصيب بالتهاب فى الكلى ، وقد جرب كل صنوف الأطباء ، بل المشعوذين أيضا ، فلم يجد عند أحد منهم شفاء ، ومنذ وقت قصير مضى ، أصيب ، فضلا عن هذا كله ، بضغط الدم ، وذهب الى الطبيب ، فقال له ان ضغط الدم بلغ حدا من ارتفاع خطير هو ٢١٤ ، وانه يوالى الارتفاع ، فعليه - والحالة هذه - ان يتأهب للاقاة الموت ! .

قال لى مستر انجلرت : « وعدت الى بيتى فى ذلك اليوم ، فتحققت من اننى سددت اقساط التأمين على حياتى ، ثم سألت الله العفو والمغفرة عما بدر منى من ذنوب ، واستغرقت فى خواطرى السوداء الكثيرة .

« لقد أشقيت كل انسان .. أشقيت زوجتى واهلى ، وغرقت انا نفسى فى بحر من الشقاء لا يسير له غور . وانقضى أسبوع ، وانا أجتز خواطرى الكثيرة ، وفجأة قلا تلنفسى : انك تتصرف كأحمق . انك قد لا تموت قبل سنة مثلا ، فلماذا لا تحاول ان تعيش ما بقى لك من العمر فى سعادة ونعيم ؟

« وشددت كتنى ، ورسمت ابتسامة على وجهى ، وجعلت أظهاره كما لو كانت السعادة ملك يمينى . وأعترف اننى صادفت بعض العناية أول الأمر ، فى تكلف السعادة . ولكنى قسرت نفسى على أن أكون مرحا ، مسرورا .. ومنذ ذلك اليوم بوات أستشعر تحسنا فى صحتى ، واستمر التحسن .

« واليوم ، وقد انقضت أشهر طوال على الموعد الذى كان ينبغى فيه أن أوسد اللحد ، أشعر لا بالسعادة ، وبهجة الحياة فحسب ، بل بالصحة والعافية أيضا ، فقد شفيت من ضغط الدم وانى لأعلم شيئا واحدا على اليقين ، ذلك هو نبوءة الطبيب لى بوفاة عاجلة كانت تتحقق فعلا ، لو اننى دأبت على التفكير فى الموت ، واستسلمت لحزن والشقاء ، ولكنى اتحت لجسدى فرصة الشفاء ، بأن غيرت اتجاهى الذهنى من المرض الى الصحة ! » .

هل لى لذا ان اوجه سؤالا : اذا كان مجرد تكلف السعادة ،
والتفكير فى الصحة ، فى وسعه ان ينقذ حياة هذا الرجل ، فلماذا
نصبر ، انا وانت ، لحظة واحدة على انقباضنا ، واحزاننا ؟ لماذا
نجعل انفسنا ، وكل من حولنا ، اشقياء محزونين ، فى حين ان
فى استطاعتنا اجتلاب السعادة بمجرد اصطناعها ؟

* * *

منذ عدة سنونات ، قرأت كتابا صغيرا ترك فى نفسى اثرا
لا يمضى ، عنوانه « كما يفكر الانسان » (١) ، ومؤلفه هو
« جيمس لين الن » . وقد جاء فى هذا الكتاب ما يلى :

« سيجد المرء ، متى غير اتجاهه ذهنى حياى الاشياء والناس
ان الاشياء والناس سيستجيبون لهذا التغير بمثله . . . دع انسانا
يغير اتجاه افكاره ، وسوف تملكه الدهشة لسرعة التحول الذى
يحدثه هذا التغير فى جوانب حياته المتعددة . ان القدرة الالهية
التي تكيف مصائرنا ، موضوعة فى انفسنا ، بل هى انفسنا ذاتها ،
وكل ما يصنع المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور فى فكره ، فكما ان
المرء ينهض على قدميه . وينشط . وينتج بدافع من افكاره ،
كذلك يمرض ، ويشفى بدافع من افكاره ايضا » .

جاء فى الكتاب المقدس ، فى « سفر التكوين » ان الخالق جل
وعلا ، وكل بالانسان السيطرة على الارض وما فيها ، وتلك
عطية عظيمة ، ولكن كل ما اطمع فيه انا هو السيطرة على نفسى
وهسب . . السيطرة على افكارى ، ومخاوفى ، السيطرة على
عقلى وروحى . والعجيب حقا اننى اعلم ان هذه السيطرة فى
متناول يدى فى اى وقت شئت ، فما على الا ان اسيطر على
انفعالى ، الذى تسيطر بدورها على احساساتى .

دعنا اذن نذكر كلمات وليم جيمس هذه : « ان كثيرا مما

(١) Games Lane Allen, "As Man thinketh" published by Fowler & Co. Ltd.

ندخله في حساب الرذيلة ، يسعنا أن نحوله لحساب الفضيلة اذا
غيرنا اتجاهنا الذهني ، وأحللنا الكماح محل الخوف .

فلنكافح من أجل سعادتنا :

فلنكافح من أجل سعادتنا باتباع نهج من التفكير الانساني
السعيد ، واليك هذا النهج ، وعنوانه « لليوم فقط » . . وقد
اجداني هذا النهج كثيرا ، حتى اننى طبعته ووزعته على الناس
بالمئات . لقد كتبه منذ ستة وثلاثين عاما «ساييل بارنريدج» (١)
ولو اننا ، انت وانا ، سرنا وفقا لهذا النهج ، لخلصنا انفسنا من
القلق ، وزدنا حظنا من الاستمتاع بالحياة :

اليوم فقط

١ — لليوم فقط ساكون سعيدا . فقد قال ابراهام لنكولن
وقوله الصدق « ان معظم الناس يصبحون سعداء بمقدار
ما ينتوون بينهم وبين انفسهم » ، فالسعادة تأتى من داخل
النفس ، وليس للمؤثرات الخارجية دخل في اجتلابها .

٢ — لليوم فقط سألثم بين نفسى وبين كل ما هو حادث ،
ولا احاول أن اوفق بين كل شيء وبين رغباتى . سارضى بأهلى،
وعملى ، وحظى على علاتها .

٣ — لليوم فقط سأعتنى بجسمى . سأرعاه ، واروضه ،
واغذيه ، ولا أسىء اليه أو أهمله ، حتى يصبح آلة طبيعة في
يدى .

٤ — لليوم فقط سأحاول أن أهذب عقلى . سأتعلم شيئا
نافعا ، سأقرأ مادة تحتاج الى مجهود ذهنى ، وامعان فكرى ،
واعمل على استيعابها .

٥ — لليوم فقط سأصقل روحي . سأسدى معروفا لشخص

ولا أفصح له عن شخصي ، وسأفعل على الأقل أمرين لا أرغب في أدائها ، كما نصح بذلك وليم جيمس .

٦ — لليوم فقط سأكون محبوبا . وسأبدوا في أحسن هندام ، وأجمل مظهر ، وأتحدث بصوت رزين ، وأتصرف بأدب وكرم ، وأجزل مديحي للناس ، ولا ألوم أحدا أو أفتش على أخطاء أحد ، ولا أحاول أن أوجه أحدا أو سيطر على أحد .

٨ — لليوم فقط سأجرب أن أعيش لهذا اليوم فقط . فلا أواجه كل مشكلات حياتي كلها دفعة واحدة ، ففى وسعى أن أنجز في خلال اثنتى عشرة ساعة أمورا تصبح ضخمة هائلة لو أننى أرجأتها الى آخر العمر .

٧ — لليوم فقط سأصنع لنفسى برنامجا . سأكتب كل ما أود. إنجازة في خلال ساعات اليوم . وقد لا أسير على هذا البرنامج . ولكن سأكتبه على أية حال ، فهو يخلصنى من أمرين : العجلة والاندفاع .

٩ — لليوم فقط ، سأختلى بنفسى نصف ساعة وأسترخى . وفى خلال هذا المدى ، سأتجه بتفكيرى الى الله ، سبحانه ، عسى أن تغدو حياتى أدنى الى الكمال .

١٠ — لليوم فقط ، سأجنب الخوف . وعلى الخصوص الخوف من الا أكون سعيدا . وسأتمتع بكل ما هو جميل ، وسأفنع نفسى بأن أولئك الذين أحبهم يبادلوننى الحب .

فاذا أردت أن تخلق اتجاهها ذهنيا يجلب لك الصحة والسعادة ، فإليك القاعدة رقم (١) :

فكر في السعادة واصطنعها ، تجد السعادة ملك يديك

الفصل الثالث عشر

الذئب الباهظ للقصاص

في ذات ليلة من الليالي التي كنت أحترق فيها غاية (يللوستون) مع بعض أصحابي ، نصبنا مخيمنا تجاه غابة كثيفة الأشجار .
وفجأة برز لنا وحش الغلبة المخيف : الذئب الأسود . وتسلل الذئب الى ظلال الضوء المنبعث من معسكرنا ، وراح يلتهم بقايا طعام يبدو أن خدم الفنادق القائمة في أطراف الغابة لاقوها هناك، وفي ذلك الوقت كان « الماجور مارتنديل » أحد رواد الغابات المغامرين ، يمتطى سهوة جواده ، ويقص علينا أعجب القصص عن الذئبة ، فكان مما قتل : أن الذئب الأسود يسعه أن يقهر أي حيوان آخر يعيش في العالم الغربي ما عدا الثور في الغالب . .
غير أنني لاحظت تلك الليلة ، أن حيوانا ضئيلا ضعيفا استطاع أن يخرج من مكبته في الغابة ، وأن يواجه الذئب غير هيب ولا وجل ، بل أن يشاركه الطعام ذلك هو « النمس » (١) .

ولا ريب في أن للذئب يعلم أن ضربة واحدة من مخلبه القوي تمحو « النمس » من الوجود ، فلماذا لم يفعل هذا ؟ لأنه تعلم بالتجربة أن مناصبة مثل هذا الحيوان الضئيل العذاء لن تعود بالضرر الا عليه هو ، فأكرم له واليق بكبريائه أن يغض الطرف عنه .

ولقد تعلمت هذا أنا أيضا ، فطالما ضيققت الخناق على آدميين من طراز هذا « النمس » فعلمتني التجربة المرة أن اجتلاب عداوة هؤلاء لا تجدى فتيلا ! .

(١) النمس : حيوان صغير في شكل الفأر وحجمه ، أو يزيد قليلا ،
ووسيلته في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه أن يفرغ مادة كريهة الرائحة ، تفكم
الأنف .

اننا حين نمقت اعدائنا ، فانما نتيح لهم الفرصة الغلبة علينا .
الغلبة على راحتنا وطعامنا ، وصحتنا وسعادتنا ، وان اعدائنا
ليرقصون طربا لو علموا كم يسببون لنا من القلق ، وكم يقتصون
منا ! ان مقتنا لهم لا يؤذيهم هم ، ولكنه يؤذينا نحن ، يحيل
ايماننا وليالينا الى جحيم .

من تظنه قائل هذه العبارة ؟ « اذا سولت لقوم انفسهم ان
يسيئوا اليك ، فامح من نفسك ذكراهم ، ولا تحاول ابدا ان تقتص
منهم ، فلو أنك اخترت القصاص ، لآذيت نفسك اكثر مما
تؤذيهم » ؟ ان هذه الكلمات تلوح . كما لو كانت صادرة من
فيلسوف مثلى يخلق بذهنه في اجواز الفضاء ، الا ترى ذلك ؟
ولكن الامر على العكس ! فقد نشرت هذه الكلمات في احد
المنشورات التي توزعها ادارة البوليس في مدينة « ميلووكي » !
كيف تؤذيك محاولة القصاص ؟ بطرق عدة . . . فهي قد
تؤدى بصحتك كما ذكرت مجلة « لايف » اذ قالت : « ان ابرز
ما يميز الذين يعانون ضغط الدم ، هو سرعة انفعالهم ، وامثالهم
للغيظ والحدت » .

ومن ثم ، فأنت ترى ان المسيح عليه السلام ، حين قال :
« احبوا اعداءكم » لم يكن يبغى تقويم الاخلاق وحسب ، وانما
كان تقويم الأبدان ايضا ، وفقا لمبادئ الطب الحديث . وحين
نصح بأن يعفو المرء « الى سبعين مرة سبع مرات » (١) فانما
كان يبين لنا كيف نتجنب ضغط الدم ، واضطراب القلب، وقرحات
المعدة ، وغيرها من الادواء .

اصيبت احدى معارفى اخيرا بداء القلب ، فكان ما نصح لها

(١) النص الذى وردت فيه هذه العبارة في الكتاب المقدس . هو كما يلى
« تقدم اليه بطرس وقال : يا رب كم يخطئ الى اخى وانا اغفر له ،
هل الى سبع مرات (٢٢) قال يسوع : لا اتول لك سبع مرات . بل الى سبعين
مرة سبع مرات » (متى ١٨ : ٢١) .

به الأطباء هو الا تدع الى الغضب سبيلا اليها مهما كان السبب ، فالاطباء يعلمون أن من يشكو داء القلب قد تكفى غصبة واحدة للقضاء على حياته ، بل ان نوبة من الغضب قد قضت فعلا على حياة صاحب مطعم في بلدة « سبوكين » بولاية واشنطن منذ بضعة أعوام ، وأمامي الآن رسالة من « جير سوار ثواب » ، رئيس البوليس في بلدة « سبوكين » يقول فيها « منذ بضعة أعوام ، توفي « وليم فالكابر » ، البالغ من العمر ثمانية وستين عاما ، وهو صاحب مطعم هنا في سبوكين ، لأنه اندفع الى الغضب حين أصر طاهيه على أن يتناول القهوة في فنجانه — أي فنجان سيده ! — فقد أثارت هذه الفعلة غضب صاحب المطعم ، حتى انه اختطف مسدسا وراح يطارد الطاهى قاصدا قتله ، ولكنه خر ميتا بالسكته القلبية ، وما زالت يده قابضة على المسدس ! وقد ورد في تقرير الطبيب الشرعى أن الغضب هو الذى سبب وفاته الفجائية » .

وحين قال السيد المسيح عليه السلام : « أحبوا اعداءكم » فقد كان أيضا يعلمنا كيف نهتم بتجميل مظاهرنا . فانى أعرف نساء — ولاشك أنك تعرف مثلهن — اكتسبت وجوههن بالتجاعيد وانقلبت سمعنهن فغدت بغيضة منفرة ، لا لشوء الا لدابهن على الغضب والانفعال ، وليس ثمة وسيلة من وسائل التجميل المعروفة ، تستطيع أن تعيد النضرة والجاذبية الى وجوههن ، مثل قلب عامر بالعفو ، والرقة ، والحب .

ان الكراهية تحطم قابليتنا للاستمتاع بماكلنا ، وفي ذلك يقول الكتاب المقدس : « لقد يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام » (أمثال سليمان ١٧) .

الا تمتلئ نفوس أعدائنا سرور وارتياحا اذ هم علموا ان كراهيتنا لهم ترهقنا ، وتحطم أعصابنا ، وتشوه مظاهرنا ، وتبعث الاضطراب في قلوبنا ، وربما قصرت آجالنا ، فاذا لم نستطع أن نحب أعدائنا فلا أقل من أن نحب انفسنا ، فلا نعطي لأعدائنا

فرصة السيطرة على سعادتنا ، وصحتنا ، ومظهرنا ، وفي ذلك يقول شكسبير :

« لا تنفخ لعدوك نارا أو تزد جذوتها ! » .

« فقد تؤذيك أنت من النار لفتحها ! » .

وعندما نصحننا المسيح أن ننفو « الى سبعين مرة سبعا مرات » فانما كان ينصحننا باقامة معاملتنا مع الناس على اسس متينة قوية . وامامى الآن خطاب تلقيته من « جورج رونا » بيلدة « ابساللا » بالسويد يقص فيه على قصة عجيبة ، كان « جورج رونا » يشتغل محاميا فى « فيينا » ولكنه هرب الى السويد خلال الحرب العالمية الأخيرة ، ولم يكن لديه مال ، ومن ثم كان فى أشد الحاجة الى عمل ، ولما كان ملما بعدة لغات ، فقد رغب فى أن يعمل وكيفا لبعض الشركات التى تشتغل بالتصدير والاستيراد . وقد اجابت معظم الشركات التى كتب اليها بطلب عملا بالأحاجة بها اليه فى الوقت الحاضر نظرا لظروف الحرب ، وأنها احتفظت باسمه لحين الحاجة اليه . . ولكن شخصا واحدا أرسل الى «جورج رونا» خطابا مختلفا يقول فيه : « مخطيء فيما توهمته عن حقيقة عملى . . بل انك مخطيء وأحمق معا . . وحتى لو كانت بى حاجة اليك لما اخترتك أنت بالذات . فأنت لا تجيد كتابة السويدية ، وقد كان خطابك حافلا بالأخطاء » ! وعندما قرأ « جورج رونا » هذا الخطاب استشاط غضبه ، وثار عواطفه وهم بأن يكتب الى هذا الرجل خطابا قدر أنه سيقتله غيظا . ولكنه توقف برهة ، وقال لنفسه : « انتظر لحظة ! من يدرينى أن هذا الرجل ليس على صواب انها ليست لغتى الأصلية ، ومن ثم فمن المحتمل أن أخطيء دون أن أفطن الى أخطائى ، فاذا كان الأمر كذلك فلا بد من استزادة معرفتى بهذه اللغة قبل أن أسعى للحصول على عمل ، وكون هذا الرجل عبر عن نفسه بطريقة أثارتنى ، لا يغير شيئا من امتنانى له ، إذ دلنى على موطن الضعف فى . . ولهذا يجب أن أشكره على صنيعه » .

ومن ثم مزق « جورج رونا » الخطاب الحافل باللوم والتقريع الذى كان قد أعدده، وكتب بدلا منه ، يقول : « سيدى المحترم - كان جميلا منك أن تتكلف عناء الكتابة الى خاصة وانك لست فى حاجة الى خدماتى ، وانه ليؤسفنى أشد الأسف اننى أخطأت فهم حقيقة الشركة التى تتشرف برئاستكم ، ومبعث هذا الخطأ اننى استفسرت عن عدد من الشركات لأعرض عليها خدماتى ، فأعطنى اسمكم بوصفكم علما من اعلام الميدان الذى تشتغلون فيه . والحق اننى لم أظن الى الأخطاء اللغوية التى وقعت فيها، ولذلك أشعر بالخزى والأسف ، وسوف أعكف على التمكن من اللغة السويدية ، وسأحاول فى المستقبل تصحيح أخطائى لأكون عند حسن ظنك بى . وفى الختام أود أن أشكرك على أن هيات لى فرصة الأخذ بأسباب التحسن والتقدم » .

ولم تمض أيام حتى تلقى « جورج » خطابا من هذا الرجل يسأله فيه أن يحضر لمقابلته ، وذهب رونا لمقابلته .. وحصل على عمل لديه ! .. لقد اكتشف « جورج رونا » بنفسه أن جوابا لينا يسهه ان يدرا الحقد والغضب .

وقد لا نكون جميعا من عفة النفس بحيث يسعنا ان نحب اعدائنا ، فلا أقل ، والحالة هذه ، من أن نحبهم رفقا بصحتنا وسعادتنا نحن ، فهذا ولا شك أولى بذوى الرشيد والحجى ، وقد قال كونفشيوس : « لا يضريك سب ولا ذم ، وانما يضريك سألت مرة « جون ايزنهاور » نجل الجنرال « دوايت ايزنهاور » هل يفعل أبوه أو يغضب ، فأجاب : « كلا ! اننى ما رأيت أبى يفكر فى خصومه لحظة واحدة » .
ان تفكر فيهما! » .

وهناك قول قديم مأثور ، مؤداه ان الأحق هو الذى يغضب، أما العاقل فهو الذى « يرفض » ان يغضب ! .. وتلك بالضبط كانت السياسة التى اتبعها « وليم جاينور » عمدة نيويورك الأسبق . فقد حملت عليه الصحافة الصفراء حملة شعواء

استفزت رجلا معنوها فأطلق عليه الرصاص وأوشك أن يقتله ، وبينما العمدة ممدد على فراشه يصارع الموت ، كان يقول : « في كل ليلة اغفر كل شيء وأعفو عن كل لئسان » ! فتراه كان مثاليا ، مغاليا في المثالية ؟ أم رقيقا متناهيا في الرقة ؟ إذا كنت تراه هذا أو ذاك ، فلنبتغ المشورة عند الفيلسوف الألماني العظيم « شوبنهاور » ، مؤلف كتاب « دراسات في التشاؤم » (٢) فقد كان شوبنهاور ينظر الى الحياة على أنها « مغامرة عقيمة أليمة » وكان اليأس يغمره من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وبرغم ذلك فقد هتف يوما في غمرات يأسه : « في الوسع الا يجتلب أحد عداء أحد » ! .

وقد سألت « برنارد باروتشي » — الرجل الذي كان مستشارا لستة من رؤساء جمهورية الولايات المتحدة ، ولسن ، وهاردنج ، وكولدج ، وهوفر ، وروزفلت ، وترومان — سألته هل انزعج يوما لحملات أعدائه عليه ، فأجاب . « اننى لا أسمح لأحد بأن يزعجنى » ! ولا يسع أحد أن يزعجنا ، أنت ، وأنا ، إذا لم نسمح له نحن بذلك .

لطالما أوقد الانسان الشموع ، على مر العصور، تحية لذكرى أفراد تشبهوا بالسيد المسيح ، فلم يحملوا ضغينة لأعدائهم . وكثيرا ما وقفت في حدائق « جاسير » في كندا أسرح الطرف في أروع الجبال الراسيات في العالم الغربى طرا ، وهو جبل مهيب الطلعة ، بهى النظر ، أطلق عليه اسم « ادith كافل » . تلك الممرضة الانجليزية التى سيقنت تحيط بها هالة القديسين الأبرار الى حتفها رميا بالرصاص على أيدي الجنود الألمان فى الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٥٩ . وما كانت جريمتها غير أنها آوت فى بيتها الذى اتخذته مقاما فى بلجيكا ، عددا من الجنود الانجليز والفرنسيين ، وأطعمتهم من جوع وأمنتهم من خوف ، ودأوتهم من جراح ، ومهدت لهم سبيل الفرار الى هولنده .

(٢) Schopenhaur, "Studies in Pasimism"

وعندما دخل القس الانجليزى الى السجن الحربى الذى زج بها فيه ، فى بروكسل ، ساعة احتضارها ، لم تنطق اديث كافل الا بعبارة واحدة حفرت فيها بعد على رقائق البرونز ، وصور الجرائيت ، وهى : « ان الوطنية وحدها لا تكفى ، بل يجب ايضا الا نحمل حقدا ولا كراهية لمخلوق كائنا من كان » . وبعد مضى اعوام نقل جثمانها الى انجلترا ، واقيمت مراسم الاحتفال به فى كاتدرائية « وستمنستر » . واليوم ينتصب تمثال من صخر انجرائيت فى مواجهة « متحف الصور الوطنى » بلندن National Portrait Gallery ، تخليدا لذكرى هذه المرأة الخالدة التى قالت يوما : « ان الوطنية وحدها لا تكفى ، بل يجب ايضا الا نحمل حقدا ولا كراهية لمخلوق كائنا من كان ! » .

واحدى الطرق المؤدية الى العفو عن اعدائنا ، هى ان ننشغل بقضية اوسع واكبر من دائرتنا الخاصة ، وعندئذ لن نبالى شيئا بما يصيب اشخاصنا من اساءة او عداوة ، لاننا نكون مهتمين اذ ذاك بقضيتنا العظمى ، ولا شيء غيرها . ولاضرب لك مثلا تلك المفاجعة التى اوشكت ان تحدث فى غابات الصنوبر بولاية مسيسبى فى عام ١٩١٨ .. فقد اوشك « لورنس جونز » ، وهو زنجى يشتغل مدرسا وواعظا . ان يشنق على قارعة الطريق ! .

ففى تلك الفترة التى تميزت بجيشان العواطف وتوتر الاعصاب خلال الحرب العالمية الاولى ، سرت اشاعة فى اواسط مقاطعة المسيسبى مؤداها ان الالمان يؤلبون الزنوج على البيض ، ويحضونهم على الثورة ، وكما اسلفت كان « لورنس جونز » زنجيا ، ومن ثم اشيع عنه بأنه يساهم فى حض بنى جنسه على الثورة . فقد سمعه قوم من البيض ، خارج الكنيسة التى يخطب فيها يقول ، الحياة معركة يتحتم فيها لعى كل زنجى ان ينتضى « سلاحه » و « يقاتل » من « أجل بقائه » ! .

« سلاح » ؟ ! « قتال » ؟ ! فى هذا الكفاية ! .. وتسلل القوم الذين استمعوا الى كلام الواعظ الزنجى ، فجمعوا جمهورا

كثيرا عادوا به الى الكنيسة ، وتبضؤوا على الواعظ وأحاطوا رقبته بحبل غليظ ، وجروه في الطريق مسافة ميل ثم وضعوه فوق منصة خشبية مرتفعة ، وأشعلوا عيدان الثقاب ، توطئة لشفقه ثم احراق جثته . وفجأة قال قائل منهم : « فلنر ان كان لدى هذا الزنجى ما يقوله ، دفاعا عن نفسه . . فليتكلم قبل ان يموت » .

وتكلم لورنس جونز وهو واقف على المنصة العالية ، وحبل المشنقة حول رقبته . . تكلم دفاعا عن نفسه وعن « قضيته » . كان قد تخرج في جامعة « أيوا » عام ١٩٠٧ . وقربته أخلاقه الدمثة ، واجتهاده في الدرس والتحصيل ، وبراعته في الموسيقى، من قلوب زملائه وأساتذته على السواء . وبعد تخرجه رفض عملا عرضه عليه صاحب فندق ، كما رفض ، بعد ذلك ، عرضا من مالى كبير بمواصلة دراسة الموسيقى على نفقته ، لماذا ؟ لأنه كان مشغول النفس بقضية يريد أن يكرس لها حياته : لقد قرا سيرة « بوكر . ت واثنجنطون » فألهمته هذه السيرة أن يكرس حياته لتعليم الفقراء والاميين من بنى جنسه . ومن ثم همد الى أشد بلدان الجنوب تأخرا وانحطاطا وهي بلدة تبعد خمسة وعشرين ميلا جنوبى مدينة جاكسون بولاية المسيسيبى ورهن ساعة يده لقاء دولار واحد و ٦٥ سنتا ، وأسس بهذا المبلغ التافه مدرسة في العراء ، وسط الغابات ، وجعل مكتبه من جذع شجرة مقطوعة . . وحين تكلم لورنس جونز ، فى تلك الليلة ، وحبل المشنقة حول رقبته ، قال للجمهور الغاضب الملتف حوله : انه كأمح من أجل تعليم الأميين من بنى جنسه ، بنين وبنات ، وتدريبهم على أعمال الفلاحة ، والصناعة ، والطهو ، وتدبير المنازل ثم تحدث عن الرجال البيض ، الذين ساندوه فى كفاحه على تأسيس « مدرسة الغابات الصنوبرية الريفية » ، فأمدوه بالأراضى ، والأخشاب والأبقر ، والمال ، ليتسنى له الاستمرار فى رسالته التعليمية ! .

وإذا تكلم « لورنس جونز » فى تلك الليلة ، ببيان مؤثر ،

وبلاغة خلافة ، لا دفاعا عن نفسه ، وإنما عن رسالته التي كرس لها حياته ، بدأ الجمهور الغاضب يلين ، وأخيرا صاح عضو متقاعد في حكومة الاتحاد ، كان يقف في ذلك الحشد : « اعتقد أن هذا الرجل يقول الصدق . فأنا أعرف الرجال البيض الذين عدد الآن أسماءهم ، انه يقوم بعمل عظيم ، وأرى أننا ارتكبنا خطأ جسيما . ينبغي علينا أن نساعده لا أن نعدمه » . وخلص العضو المتقاعد قبعته ، وبسطها في يده ، وراح يطوف على الجمهور المحتشد ، فجمع فيها اثنين وخمسين دولارا وأربعين سنتا ، تبرع بها للمدرس الزنجي ، أولئك الناس أنفسهم الذين تجمهروا ليشنقوه ، تقديرا منهم للرسالة الانسانية التي اضطلع بأعبائها ! .

ولقد سئل لورنس جونز ، بعد نجاته من تلك المحنة بسلام ، هل امتلا حقا على أولئك الذين جروه في الطريق ليشنقوه ويحرقوه ، فأجاب بأنه كان مشغولا بقضيته العظمى عن الحقد! وكان مما قاله : « ليس لدى وقت للمقت ، ولا للحشد ، ولا يستطيع انسان أن يضطرنى الى هذا الدرك الأسفل لكي اكرهه ! » .

ومنذ تسعة عشر قرنا خلت ، اشار « ابكتينوس » الى أننا نحصد ما نزرع ، وأن الأتذار تتقاضى منا ، بشكل من الأشكال ثمن الشرور التي نزرعها . ثم قال : « عاجلا أو آجلا سيدفع المرء ثمن ما ارتكبه من الشرور . فمن ذكر ذلك ، فانه جدير الا ينقم على أحد ، أو يلوم أحد ، أو يكره احدا » .

لعل احدا ممن أنجبتهم أمريكا في تاريخها جميعا ، لم يلق من الأيذاء والمقت والخديعة مثما لقي لنكولن ! وبرغم ذلك فان لنكولن ، كما يقول عنه « هندرون » مؤلف سيرته : « لم يزن الناس قط بميزان حبه أو كراهيته لهم . فاذا أساء رجل الى شخصه — أى شخص لنكولن — وكان هذا الرجل أصلح الرجال لتقلد منصب من المناصب أسرع لنكولن الى أن يقلده اياه ، كما لو كان يقلده صديقا .. ولا اخاله عزل رجلا من عمله لانه كان عدوا له ، أو لانه يكرهه » ! .

بل الواقع أن لنكونن أودى ، وأسئ اليه على يد رجال تخدمهم فيما بعد مناصب ذات وجهة وسطوة ، أمثال كاميلان ، وسيثوارد ، وستانتون ، وتشيسن . فان لنكونن كان يرى — كما يقول هندرون — أنه « لا ينبغي لرجل أن يمتدح أو يذم على عمل يؤديه ، لأننا جميعا مسخرون في أيدي الظروف ، والأقدار ، والبيئة ، والتعليم ، والعادات المكتسبة ، والوراثة التي تطبع الناس بطابعهم الحاضر ، وتلصق بهم هذا الطابع الي الأبد » .

ويحتمل أن لنكونن كان مصيبا . فلو أننا ، أنت وأنا ورثنا المميزات الجسمانية ، والذهنية ، والعاطفية التي ورثها أعداؤنا ، فالأرجح أننا كنا نصبح على مثالهم تماما . وقد اعتاد « كلارنس وارد » أن يقول : « بدلا من أن نمقت أعداؤنا دعنا نشفق عليهم ، ونحمد الله على أنه ، سبحانه ، لم يخلقنا على غرارهم . وبدلا من أن نصب الاتهامات ، والوان الانتقام على رؤس أعدائنا ، دعنا نشملهم بالرحمة ، والشفقة ، والمعونة ، والحنو » .

لقد نشأت في عائلة اعتاد أفرادها أن يتلوا آيات من الكتاب المقدس كل ليلة ، ثم يركعوا على الأرض لتقديم الشكر لله . ولا يزال يتردد في سمعي صوت أبي ، في ذلك البيت الريفى في ولاية ميسورى ، وهو يتلو قول المسيح : « أحبوا اعداءكم ، وباركوا لاعدائكم ، واحسنوا الى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويضطهدونكم » .

وقد حاول أبى أن يعيش وفق هذا الابدأ الذى استنه المسيح عليه السلام ، فأناد من ذلك طمأنينة وسلاما ، طالما بحث عنهما ملوك متوجين على غير طائل .

واذن ، فلكى تتخذ اتجاهها ذهنيا يجلب لك الطمأنينة والسعادة اذكر القاعدة رقم (٢) :

لا تفكر في محاولة الاقتصاص من أعدائك ، فأنك ، بمحارتك هذه ، تؤذى نفسك أكثر مما تؤذى أعدائك . وأفضل مثلا يفعل الجنرال ايزنهاور : لا تضع لحظة واحدة في التفكير في أولئك الذين تبغضهم .

الفصل الرابع عشر

لا تنتظر الشكر من أحد

قابلت أخيرا في تكساس رجل أعمال كان يغلى كالرجل من فرط الغضب . وقد قيل لى قبل أن القاه ، انه سيكشف لى عن همه بعد ربع ساعة من لقائه ، وقد فعل ! .. أما تاريخ الحادثة التى أثارته الى هذا الحد ، فيرجع الى أحد عشر شهرا مضت ، وبرغم ذلك فمازال يغلى غضبا منها ، ولا يتكلم الا عنها . واليك تفصيل هذه الحادثة : لقد منح موظفيه ، وعددهم أربعة وثلاثون موظفا ، مكافآت مالية بمناسبة عيد الميلاد ، قدرها عشرة آلاف دولار — أى بمعدل ثلاثمائة دولار تقريبا لكل منهم — فلم يقدم له أحد منهم كلمة شكر واحدة ! قال لى هذا الرجل : « لكم اتحسر على كل سنت اعطيته لهؤلاء الجاحدين ! » .

قال كونفشيوس : « الرجل الغاضب ممتلئ سها » وهكذا كان ذلك الرجل ، حتى أننى رشيت لحاله ! كان فى نحو الستين من عمره ، وشركات التأمين تقدر أننا — فى هذا المعدل — نعيش أكثر بقليل من ثلثى الفرق بين سننا الحالية وسن الثمانين ، وقياسا على هذا ، كان أمام هذا الرجل — على احسن تقدير — نحو أربع عشرة أو خمس عشرة سنة ليحيها ، وبرغم هذا ، فقد ضيع سنة على الأقل من هذا العمر القليل الذى تبقى له ، فى التحسر على حادثة وقعت وانقضت ! .

وكان فى مقدور هذا الرجل ، بدلا من أن يغضب أو يجتر الحسرة والمرارة ، أن يسائل نفسه : لماذا لم يقدم له أحد من مرؤوسيه كلمة شكر ؟ ولماذا قابلوا منته بكل هذا الجحود ؟ فلعله يتبين أنه لم يوف موظفيه حقهم من الأجر ، أو لعله ارهقهم بما هو فوق طاقتهم من العمل ، أو لعلهم لم ينظروا الى منحة عيد

الميلاد على أنها هدية ، بل نظروا اليها على أنها حق مكتسب ، أو لعله كان فظا متعجرفا حتى ان أحدا موظفيه لم يجروا ، أو لم يهتم بشكره ، و لعلهم أدركوا لفة وهبهم هذه المنحة بدلا من ان تأخذها الضرائب ، وان هذه المنحة كانت ستخرج من جيبه على أى حال ! .

ويجوز من ناحية أخرى ، ان موظفيه كانوا أنانيين سييء الأدب .. يجوز هذا ، ويجوز ذاك ، فليس لى علم بالحقيقة أكثر مما لك ، ولكن الذى أعلمه أن الدكتور « صمويل جونسون » كان صادقا فى قوله « الشكر ثمرة لا تنضجها الا الرعاية الفائقة ، ولذلك لا تجدها عند كل الناس ! » . وهذا هو الهدف الذى أسعى اليه : فهذا الرجل ارتكب خطأ لأنه انتظر الشكر وتوقعه ، فدلل بهذا على أنه جاهل بالطبيعة الانسانية .

لو أنك انتذت حياة رجل ، اترك تنتظر منه الشكر ؟ قد تفعل أنت ، ولكن « صمويل لايبينز » ، الذى كان محاميا . ثم قاضيا ، انتذ ثمانية وسبعين رجلا من الكرسى الكهربائى ، فكم من هؤلاء تظن قدم له الشكر ؟ .. لا أحد ! .

ولقد شفى المسيح عليه السلام ، عشرة من المفلوجين فى يوم واحد ، فكم من هؤلاء قدم له الشكر ؟ واحد فقط ! . أما التسعة الباقين فقد انصرفوا دون كلمة شكر ! .

حدثني « تشارلز شواب » ، أنه انتذ مرة صرافا فى بنك ، خسر فى مضاربات البورصة أمولا تخص البنك ، فدفع له شواب المال المنقود ، وبهذا أنقذه من السجن ، فهل شكره الصراف ؟ نعم ! شكره يومئذ ، ولكنه مالبت أن راح يحمل عيله ، ويكيله السباب الوانا !

ترى لو أنك أعطيت أحدا من أقربائك مليون دولار ، هل تنتظر منه الشكر ؟ لقد منح أندرو كارنيجى أحد أقربائه مليون دولار ، ولو قدر له أن ينفذ عنه غبار الموت بعد ذلك بزمن ، لروعه

ان يجد قريبه يسبه ويلعنه ! لماذا ؟ لان كارنجى وهب الجمعيات الخرية ٣٦٥ مليوناً من الدولارات . ووهب قريبه هذا مليوناً واحداً ! .

ان الطبيعة الانسانية ما برحت في الطبيعة الانسانية ، والأرجح انها لن تغير أبد الأبدية . فلماذا لا ننتقلها على علاتها ؟ ولماذا لا نكون واقعيين ، كما كان الامبراطور الرومانى « ماركوس اوريلوس » وهو الذى كتب في يومياته يقول : « سألتنى في هذا اليوم بأشخاص أنايين ، جاحدين ، ولكن هذا لن يدهشنى ، أو يثر حفيظتى ، فلنا لا أكاد أتصور عالماً يخلو من هؤلاء الناس » فلماذا نتحسر على ضياع الامتنان ، وتفتش الجحود بين الناس ؟ انه لأمر طبيعي ، أن ينسى الناس واجب الشكر ، فاذا توقعنا الشكر وانتظرنا ، فنحن جديرون بأن نجر على أنفسنا ما هى في غنى عنه من المتاعب .

أعرف سيدة في نيويورك لاقت تشكو من أن أحداً من أقاربها لا يريد أن يؤنس وحدتها . ولهم العذر : فلو أنك زرتها ، نقضت الساعات الطوال وهى تقص عليك ما قدمت لابنتى أختها حين كانتا طفلتين ، لقد سهرت عليهما حين مرضتا بالحصبة ، والنزلات المعدية والسعال ، وكفلتهما سنوات طوالاً ، وأرسلت احدهما الى مدرسة تجارية ، وزوجت الأخرى ، فهل ابنتا أختها تأتيان لزيارتها شكراً منها لها وامتناناً ؟ نعم ! تأتيان أحياناً ، مدفوعتين بالاحساس بالواجب ، ولكنهما تكرهان هذه الزيارة ! فان خالتهما لا تفتأ تغمزهما بالعتاب المفتح ، وتلمزهما بالملامح المحجب ! وحينما عجزت هذه المرأة عن الجاء ابنتى أختها الى زيارتها أصابها مرض القلب ! . . أترى مرض القلب هذا كان حقيقياً ؟ نعم ! لقد قال الأطباء ان لها « قلباً عصبياً » ومن ثم فلا حيلة لهم فيه .

ان ما تحتاج اليه هذه المرأة حقيقة ، هو الحب ، والرعاية ، والحنان ، ولكنها تسمى هذه الأشياء « شكراً » ولن تظفر هذه

السيدة قط بالحب . مادامت تطلبه ، وتنتظره ، وانما تظفر به حين تكف عن المطالبة به ، وتشرع هي في اغداقه دون أن تنتظر له استجابة ؟

أترانى أقدم نصائح مثالية نظرية ؟ كلا فما هذه الا طريقة عملية يسعنا — أنت وأنا — بواسطتها أن نحصل على السعادة المنشودة . وقد رايت هذه الطريقة تؤتى ثمارها في محيط عائلتي نفسها ، فقد كان أبى وأمى شغوفين بمساعدة المحتاج ، والعطف على المحروم ، وبرغم أننا كنا فقراء ، غارقين دواما في الديون الى آذاننا ، الا أننا كنا نرسل الهبات كل عام الى أحد ملاجئ الأيتام في « ايتوا » ، ولم يزر أبى ولا أمى ، هذا الملجأ قط ، والأرجح ان أحدا لم يشكرهما على أريحيتهما — اللهم ألا من طريق المكاتبات — وبرغم ذلك فقد كان يكفى أبى وأمى سعادة انهما يبذلان العطايا دون أن ينتظرا عليها جزاء ولا شكورا .

وحيثما كبرت ، وخرجت من بيت أبوى ، اعتدت أن أرسل اليهما مبلغا من المال كلما حان عيد الميلاد ، وأوصيهما بأن يرفها عن نفسيهما قليلا . ولكنهما تلمعا عملا بنصيحتى . فمتى ذهبت اليهما ليلة عيد الميلاد، حدثنى كلاهما ، عن فحم الوقود، وأصناف البقالة التى اشتراها وأهدياها الى رجل بائس في البلدة يعول كثيرا من الأولاد بتليل من المال ؟

كان أبى وأمى يطيران فرحا بمنح العطايا ، ولم ينتظرا قط عليها منة ولا شكرانا .

واحسب ان والدى يكاد ينطبق عليه وصف أرسطو للرجل المثالى : « الرجل المثالى يستمد السعادة من اسداء المعروف الى الآخرين ولكنه يشعر بالخزى حين يسدى اليه الآخرون معروفا ، فان من دلائل رفعة الشأن أن يؤدى المرء صنيعا ومن دلائل ضعة الشأن أن يتلقى المرء صنيعا » .

ومن ثم اذا أردنا السعادة ، فلنكف عن التفكير في الشكر أو انتظاره ، ولننعت بقصد الاعطاء ذاته .

ان الآباء ما برحوا على مر العصور يشدون شعرهم حنقا من جحود أبنائهم ، حتى ان « الملك لير » صرح — على لسان شكسبير — قائلا : « ليس أشد ايلاما من ناب حية رقطاء غير ابن جحود ! ولكن .. كيف بالله يشكر الأبناء ما لم نعودهم نحن الشكر ؟ ان الجحود فطرة ، مثله مثل الاعشاب الفطرية . والشكر كالزهرة لا ينبت الا الرى والسقيا فاذا لم نعود ابناءنا اجزال الشكر للآخرين ، فكيف ننتظر منهم ان يشكرونا نحن ؟ .

واحسب ان خالتي « فيولا الكسندرا » مثل رائع للمرأة التي لم تشك قط من جحود أبنائها ... وما زلت اذكر ، منذ كنت طفلا ، ان خالتي فيولا كانت تدعو أمها الى بيتها لتحيطها بأسباب الحنو والرعاية ، وكذلك كانت تدعو حماتها ، وفي وسعى ان اغبض عيني وأتصور هاتين السيدتين العجوزتين جالستين الى المدفأة في بيت خالتي الريفى تتبادلان الحديث في صفاء وانسجام ، وبديهي انهما كانتا تسببان ازعاجا كثيرا لخالتي ، ولكنها لم يظهر عليها قط شيء من الانزعاج فقد كانت تحبهما وتضيفهما على الرحب والسعة برغم ان لها ستة أبناءهم أولى برعايتها واهتمامها . والمهم في الأمر ان خالتي لم تكن ترى في صنيعها ما يستحق الشكر أو الجزاء .

ترى أين تعيش خالتي فيولا الآن ؟ لقد تزلت منذ عشرين عاما ، ولديها الآن خمسة أبناء متزوجون ، ولكل منهم بيته الخاص ، وكل منهم يود لو تقيم أمه في بيته . ان أبناءها يحبونها جدا جدا ، ولا يشبعون قط من رؤيتها ! ايعد هذا من قبيل الشكر ؟ كلا ! انما هو الحب المجرد ، فقد رتع هؤلاء الأبناء في صباهم في بحبوحة من حنان أمهم وحبها ، فلما انعكس الوضع ، وتطلبت أمهم الحب والحنان احاطوها بها .

ودعنا بعد ذلك نقل لك مرة ثانية : ان تعود ابنائنا الشكر . يقتضينا ان نبدأ بأنفسنا فنكون شاكرين ، ودعنا نذكر « ان للجرار الصغيرة آذانا طويلة » ، فلنزن كل كلمة نقولها امام أطفالنا ، ولننطقها بحساب . مثال ذلك — عندما نوشك ، في المرة القادمة ،

ان نقلل من صنيع أحد أمام أبنائنا ، فلنكف عن الكلام ولنحذر من ان نقول : « انظر الى هذه الهدية التى أرسلتها فلانة بمناسبة العيد ! لقد حزمتها بنفسها . ان هذه الهدية لم تكلفها شيئا ؛ » فقد يبدو هذا القول تافها فى نظرنا ، ولكن أطفالنا ينصتون لسا نقول ، ويتطبعون به . والأفضل ، حينئذ ، ان نقول : « لقد قضت فلانة ، ولا ريب ، زمنا طويلا تحاول أن تعد هذه الهدية لنا . اليس هذا جميلا منها ؟ دعنا نرسل لها كلمة شكر » عندئذ يتشبع أطفالنا ، فى غير وعى منهم ، بعادة التقدير والثناء .

فلكى تتجنب القلق من أجل الجحود الذى أصابك ، اليك للقاعدة رقم ٣ :

(ا) بدلا من أن يقلقنا الجحود ، دعنا نتقبله على علاته : ولنذكر أن السيد المسيح سُقى عشرة من الفلوجين فلم يقدم له الشكر منهم سوى واحد ! فلماذا نتوقع من الشكر أكثر مما نال المسيح ؟ .

(ب) فلنذكر أن الطريقة الوحيدة للحصول على السعادة ليست فى توقع الشكر ، وإنما فى البذل بقصد البذل ذاته .

(ج) دعنا نذكر أن الشكر وإيد الرعاية والعناية ، فإذا أردنا لأبنائنا أن يشبوا على عادة الشكر ، فينبغى أن ندرّبهم نحن على هذه العادة .

الفصل الخامس عشر

هل تستبدل مليون ريال بما تملك

عرفت « هارولد أبوت » من سنوات عدة — وهو من أهل مدينة « وب » بولاية ميسوري — اذ لبت مديرا لبرامج محاضراتي أمدا طويلا . وقد التقيت به ذات يوم في مدينة كانساس فأقلني بسيارته . وفي خلال الطريق الى مزرعتي في بلدة بلتون ، بولاية ميسوري ، سألته كيف يتجنب القلق ، فروى لى قصة مشيرة لن انساها ما حييت . قال :

« في ذات يوم ربيع عام ١٩٣٤ ، كنت أسير في شارع «دوفرتي» الغربي بمدينة « وب » فرايت منظرا اذاب كل ما كنت اعانيه من قلق . ولم يستغرق المشهد سوى عشر ثوان ، ولكنى تعلمت في خلال هذه الثواني العشر من فن الحياة ، أكثر مما تعلمت في عشرة اعوام . وكنت في خلال العامين السابقين لهذا الحادث أدير محلا للبقالة افتتحته في مدينة وب . . وقد باءت تجارتي بالكساد ، وفقدت فيها كل ما ادخرته من مال ، بل عمدت ، فوق ذلك الى الاستدانة حتى لقد استغرق تسديد ديوني أكثر من سبعة اعوام ، وكنت قد أغلقت محل البقالة ، قبل ذلك الحادث بأسبوع ، وفي يوم الحادث كنت متجها الى أحد المصارف لأقترض شيئا من المال يعيننى على الذهاب الى مدينة كانساس ، للبحث عن عمل فيها وبينما أنا أسير في الطريق ذاهلا شاردا البال ، قد داخلنى اليأس ، واوشك الايمان ان يفارقتنى . اذ رايت رجلا مبتور الساقين يريد ان يعبر الطريق . . كان يجلس على عارضة خشبية مزودة بعجلات صغيرة وكان يستعين على تسيير هذه العارضة بيديه اللتين أمسك بكليتها قطعتين من الخشب يستند بهما الى ارض الشارع لدفع العارضة الخشبية الى الامام . . التقيت به بعد ان عبر الشارع ، وكان بسبيل رفع العارضة الخشبية التي

يجلس عليها ليعتلى الطوار . فلما أصبح فوق الطوار ، وأدار العارضة الخشبية ليمضى في سبيله ، التقيت عيناه بعيني فابتسم لى ابتسامة عريضة مشرقة ، ثم قال :

« أسعدت صباحا يا سيدى ، انه يوم جميل ، اليس كذلك ؟ »
واذ وقفت متطلعا الى هذا الرجل أدركت كم أنا موفور الثراء ! فان لى سائقين ، واستطيع ان أمشى ! وخجلت مما كنت أستشعره من الرثاء لنفسى ، وحدثت نفسى قائلا : « اذا كان هذا الرجل يسعه ان يكون سعيدا ، مرحا ، مهتئا ثقة بنفسه مع فقد ساقيه ، فأولى بى ان أنصف بهذه الصفات ولى سائقان » ! . وكنت قد انتويت ان اقترض من المصرف مائة دولار ، ولكنى اذ ذاك وانتنى الشجاعة فطلبت مائتين . كما فكرت فى ان أقول للمشرفين على المصرف اننى ذاهب الى كانساس « لأحاول » الحصول على عمل ، ولكنى بعد هذا قلت لهم اننى ذاهب الى كانساس « للحصول » على عمل . ولقد حصلت على القرض ، وحصلت على العمل ! .

« والآن تطالعنى كل صباح فى المرآة هذه الكلمات التى لصقتها بنفسى على صقال المرآة :

« كاد القلق يبددنى هباء

« لأن قدمى افتقدتا حذاء

« الى ان صادفت من يومين

« شخصا بلا ساقين ! .. »

سألت يوما « ايدى ريكنبيكر » ما هو الدرس الذى أفاده من تجربته القاسية مع رفاقة ، حين راحوا يضربون فى المحيط الهادى على غير هدى ، فى قارب من المطاط ، مدى واحد وعشرين يوما . . فقال : « الدرس الذى أفدته من تلك التجربة ، انه ما دام لديك الماء الذى تشربه ، والطعام الذى تطعمه ، فلا ينبغى لك ان تشكو من شىء بعد ذلك » ! .

وقد كتبت مقالة « تايم Time » أخيرا مقالا مؤثرا عن

جندى جرح في معركة « جوادال كانال » . فقد أصيب هذا الجندى بشظية قنبلة في حنجرته استلزمت اجراء سبع عمليات لنقل الدم اليه . وبينما كان الجندى راقدًا على فراشه في المستشفى ، كتب للطبيب ورقة قال فيها : « هل سأعيش ؟ » فأجابه الطبيب بإيجاب ، فعاد الجندى يكتب له : « هل سأتكلّم ؟ » فعاد الطبيب يجيبه بالإيجاب . وعندئذ كتب الجندى يقول : « ألا ما أحمقنى ! علام اقلق اذن ؟ » .

لماذا لا تتوقف — أيها القارئ — في هذه اللحظة وتساؤل نفسك : « علام اقلق ؟ » فربما استكشفت أن ما يثير قلقك أتفه بكثير مما وقع لهذا الحندي .

ان تسعين في المائة من أمورنا يسير في طريقه المستقيم . وعشرة في المائة فقط تشذ عن الطريق ، فاذا أردت أن تكون سعيدًا ، فركز اهتمامك في هذه التسعين في المائة من أمورك ، وتجاهل العشرة الباقية . أما اذا أردت أن تحيل حياتك إلى سعي فوالأمر هين : ما عليك الا أن تركز كل اهتمامك في أمورك الضئيلة التي تنكبت الطريق السوي ! .

انك لتجد هاتين الكلمتين «فكر واشكر» *ThlnkandThark* محفورتين- في كثير من الكنائس الانجليزية التي عاصرت عهد كرومويل ، وما أجدرنا بأن نحفر هاتين الكلمتين على جدران قلوبنا كذلك « فكر واشكر » ، فكر فيما وهبك الله . واشكره على ما وهبك .

كان « جوناثان سويفت » . مؤلف « رحلات جليفر » من أشد الأدباء الانجليز اغراقًا في التشاؤم ، حتى انه كان يرتدى الحداد في أعياد ميلاده ! وبرغم ذلك ، فقد امتدح البهجة والسعادة ، فقال : « ان أفضل الأطباء في هذا العالم هي ثلاثة : الغذاء ، والسلام ، والانشراح » . وفي وسعي أنا وأنت أن نحصل على خدمات الطبيب الثالث — الانشراح — بغير مقابل ، لو أننا ركزنا اهتمامنا في الثروة الوفيرة التي نملكها — الثروة التي تفوق في قيمتها

الروحية والمعنوية كنوز « على بابا » الخرافية ! .
أتراك تبيع عينيك مقابل بليون دولار ؟ وكـم من الثمن ترى
يكـميك في مقابل ساقيك ؟ أو سمعك ؟ أو اولادك ؟ أو أسرتك ؟ .
احسب ثروتك بنـدا بنـدا ، ثم اجمع هذه البنود وسوف ترى أنها
لا تقدر بالذهب الذى جمعه آل روكفلر . وآل فورد . وآل مورجان
مجتمين ! ولكن .. أترانا نقدر هذا كله ؟ كلا . فاننا كما قال فينا
« شوينهور » : « ما أقل ما نفكر فيما لدينا ، وما أكثر ما نفكر
فيما ينقصنا » . وهذه هى آفة العالم اليوم . ولقد أحالت هذه
الآفة نفسها « جو بالمر » الى حطام بشرى ، وكادت تودى ببيته
وأسرته .

قص على جون بالمر وهو من أهالى مدينة باترسون ، بولاية
نيو جيرسى — قصته فقال . « عقب تسريحى من الجيش بقليل ،
انشأت لنفسى محلا واشتغلت فيه بجد ، مواصلا الليل بالنهار .
فسارت الأمور فى مجراها الطبيعى .. الى حين ! فقد وجدت ، بعد
قليل ، أننى لا أستطيع الحصول على الخامات اللازمة لمنتجاتى ..
وخشيت أن يمنى عملى بالكساد فاستسلمت للقلق الذى أحالنى
الى رجل مهدم ، محطم ، دائم الغضب ، حتى أوشتكت — وما علمت
ذلك فى حينه ، وانما علمته فيما بعد — أنى أكاد أفقد بيتى الذى
تظالله السعادة .

وفى ذات يوم ، قال لى شاب من مشوهى الحرب ، كان يعاوننى
فى العمل ! « الا تخجل من نفسك يا جون ؟ انك تواجه الحياة كما
لو كنت الرجل الوحيد فى هذا العالم الذى تشغله المتاعب وتثقله
الهموم ! هب أنك اضطررت الى اغلاق محلك زما .. فماذا
يحدث ؟ انك تستطيع ان تبدأ من جديد متى تحسنت الأحوال ،
ان لديك الكثير مما يستحق منك الشكر ، ومع ذلك فأنت ناغم دائما .
يا لله ! كم أتمنى لو كنت مثلك انظر الى . ان لى ذراعا واحدة ،
ونصف وجهى قد غدا كتلة شوهاء ، ومع ذلك لا أشكو قط . اذا
لم تكف عن نـمـتك . وثورتك ، فأنت جدير بأن تفقد ، لا عمالك

وحسب ، بل صحتك ، وبيتك وأصدقائك كذلك ..
ولقد فعلت في تلك الكلمات فعل السحر ، فقد جعلتني أدرك كم
أنا أحسن حالا من كثيرين غيري ، فصممت منذ تلك اللحظة على
أن أكف عن قلقي ، وأثوب الى نفسي — وقد فعلت » .

وأعرف فتاة تدعى « لوسيل بليك » أشرفت على حافة الدمار ،
قبل أن تتعلم كيف ترضى بحظها من الحياة ، بدلا من أن تستسلم
للقلق من أجل ما ينقصها . وقد عرفت لوسيل منذ كنا ندرس معا
من كتابة القصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا . ومنذ
تسعة أعوام ، واجهتها الصدمة القاسية ، وكانت وقتئذ تعيش
في مدينة « تكسون » بولاية أريزونا . واليك قصتها كما روتها لى :

« كنت أعيش في دوامة لا تكف عن الدوران . كنت أتعلم العزف
على الأرغن في جامعة « أريزونا » ، وفي الوقت نفسه أحضر برنامجا
في الخطابة ، وأعطى درسا في الموسيقى ، وإلى هذا كله كنت
أحضر حفلات الرقص ، والحفلات العامة ، ومباريات ركوب الخيل .

وفي ذات يوم أصبت بداء القلب ، وقال لى الطبيب : « عليك
أن تلازمي فراشك سفة كاملة » . وتولاني الفزع الشديد ،
وتساءلت في مرارة ، « لماذا يحدث لى كل ذلك ؟ ماذا جنيت لأستحق
هذا كله ؟ » لقد بكيت وانتحبت ، وعصفت بى المرارة ، واجتاحتنى
الثورة ، ولكنى لزممت الفراش ، كما نصح لى الطبيب .. الى ان
زارنى ذات يوم جار لى فنان يدعى « رودنف » ، وقال لى :
« لا ريب أنك تظنين أن قضاء عام في الفراش مأساة ما بعدها
مأساة ! ولكنه في الواقع ليس كذلك ، فسوف تتاح لك فرصة
عظيمة للتأمل ، والتعرف على نفسك ، وسوف تكتسبين في خلال
الأشهر القادمة ثروة روحية لا تقدر بثمن » . وامتلات نفسي سكونا
وهذات تلك العواصف الجامحة في صدري ، وبدات أحاول تنمية
احساس جديد بقيم الأشياء . وفي ذات يوم ، سمعت معقبا في
الراديو يقول : « ان كل ما يبديه المرء من تصرفات ليس الا تعبرا
عن الأفكار التى تجول في وعيه » . وكنت قد سمعت هذه الكلمات

مرات عدة من قبل ، ولكنها في تلك اللحظة ، رسخت في أعماق
نفسى ، فاعتزمت عندئذ أن أجعل أفكارى كلها تدور حول ما يعود
على حياتى بالنتفع ، كأفكار السرور ، والسعادة والصحة . ورضت
نفسى على التفكير كل صباح ، عقب قيامى من النوم ، فى الأشياء
التي ينبغى أن أشكر الله سبحانه من أجلها . . كطفلى الحبيبة ،
ونظرى السليم ، وسمعى الصحيح ، وأصدقائى الأوفياء .
وأحسست حينئذ بالانشراح يغمى نفسى ، وتكاثر عدد زائرى ،
لفرط أثناسهم ببشاشتى ، حتى لقد أمر الطبيب بالأى يدخل على
الزوار الأفرادى .

وها قد انقضت تسعة أعوام على ذلك ، وانى لأفيض اليوم
بالشكر والامتنان لتلك السنة التى قضيتها ملازمة لفراشى ، لقد
كانت أسعد سننى حياتى ، ومازلت متشبثة بتلك العادة التى
اصطنعتها فى تلك السنة : عادة احصاء نعم الله على . وانه
ليخجلنى اننى لم أتعلم كيف أعيش حقا ، الا حين خشيت أن
أموت ! » .

منذ مائتى عام مضت قال الدكتور جونسون : « ان اعتيادك
النظر الى أجمل تجربة صادفتها ، ليساوى أكثر من ألف جنيه ! »
ولم يكن قائل هذه الكلمات ، رجلا متفائلا ، كما قد تظن ، وانما
كان رجلا عرف القلق ، وذاق الفقر والجوع مدى عشرين عاما .
وقد أورد « لوجان بىرست سميث » ذخيرة من الحكمة فى كلماته
هذه : « هناك شيئان ينبغى أن نهدف اليهما فى هذه الحياة :
أولا ، أن نحصل على ما نريد ، وثانيا : أن نستمتع به . وان
أكثر بنى الانسان حكمة ، هو الذى يسعه تحقيق الأمر الثانى ! » .

أتريدى يا سيدتى أن تعرفى كيف تجعلين من غسل الأطباق فى
المطبخ عملا مبهجا مثيرا ؟ أقرئى اذن تلك الكتاب الملهم « أردت أن
أبصر » (١) ، لمؤلفته « بورجيلد دال » . وقد عاشت بورجيلد ،

(١) Borngid Dahl : "I Wan Ted to See"

نصف قرن من الزمان ، وهى اقرب الى ان تكون عمياء منها الى ان تكون مبصرة ، وقد كتبت فى مؤلفها هذا تقول : « كنت ابصر بعين واحدة ، وكانت عيني الواحدة، الى هذا، مفضاة بالسحب الكثيفة ، فاذا اردت ان اقرأ كتابا قربته عيني حتى ليوشك ان يلنصق بوجهي » . على انها رفضت ان يشفق عليها انسان . وكانت فى طفولتها توى الى مشاركة الأطفال فى لعبة «الحجلة» فكانت — اذا انصرف زملاؤها الى منازلهم — تركع على الأرض وتدنى عينها من العلامات المرسومة ، وتحفظ اوضاعها وطريقة تقسيمها ، فما لبثت ان برعت فى تلك اللعبة حتى بزت لداتها المبصرات . وكانت تضى وقتها فى البيت بمطالعة الكتب ذات « الحروف » الكبيرة ، فتدنيها من عينها حتى تكاد اهدابها تمس صفحة الكتاب ، وبهذا تمكنت من الحصول على درجتين جامعتين : درجة الليسانس فى الآداب من جامعة مينيسوتا ، ودرجة « الماجستير » فى الآداب من جامعة كولومبيا .

واشتغلت بعد ذلك بالتدريس فى قرية « توين فالى » الصغيرة بولاية مينيسوتا ، ثم ارتفعت فأصبحت استاذة الصحافة والادب فى كلية « اوجستانا » بمدينة « شلالات سىو » فى ولاية داكوتا الرنوبية ، وكانت الى جانب التدريس ، تحاضر بأندية السيدات ، وتذيع من محطات الاذاعة معقبة على الكتب والمؤلفات .

ثم فى عام ١٩٤٣ ، حين بلغت الخمسين من عمرها ، حدثت المعجزة . فقد اجريت لها جراحة فى مستشفى مايو الشهر ، فتضاعفت مقدرتها على الابصار بمقدار اربعين ضعفا . وبهذا فتحت امامها آفاق جميلة مثيرة ، واصبحت تجد البهجة والسرور حتى فى غسل الأطباق فى مطبخ بيتها ، وفى ذلك تقول : « اننى اداعب فتاقيع الصابون واغسل الأطباق ، فأمد يدي الى قاع الطبق لالتقط فقاعة صغيرة ، ثم أجمع الفقاقيع فى قبضتى وأدنيها من الضوء فأرى فيها ألوان قوس قزح تبرى وتلتهم . . وقد

انتطلع من نافذة المطبخ ، فأبصر عصفورا صغيرا يشق طريقه من الفضاء ، وسط الجليد المتساقط ، وأتبين لون جناحيه الرماديين ، ليملأنى السرور ويستخفى الطرب .

ولقد غمرتها فرحة كبرى من جراء ازدياد مقدرتها على الأبصار ، حتى انها اختتمت كتابها بقولها : « يا الهى أشكرك . أشكرك » .

انها تشكر الله لأنها أصبحت تتبين فتايع الصابون ، وجناحي العصفور الطائر ! . أفلا يجدر بى وبك ، أن نخجل من انفسنا؟! اننا نعيش فى جنان مشرقة ، بهية الصور ، مجلوة الحسن ، ولكننا لا نرى ، ولا نقدر ، ولا نشكر !

فاذا أردت أن تقهر القلق وتبدأ الحياة ، فاليك القاعدة
رقم (٤) :

احص نعم الله عليك بدلا من أن تحصى متاعك .

الفصل السادس عشر

انت نسيج وحدك

« أرسلت الى مسز أديث « اولرد » من مدينة « مونت ايرى » بولاية « كارولينا الشمالية » ، رسالة تقول فيها : « كنت فى طفولتى مرهفة الحساسية ، مفرطة الخجل ، وكنت بدينة نوعا ، ولكن وجنتى المكتنزتين باللحم كانتا تظهر اننى اكثر بدانة مما انا عليه فى الحقيقة ، وكانت والدتى تستبج الثياب المحكمة على الجسد . ومن ثم كانت ثيابى كلها طويلة فضفاضة . وقد نشأت عزوفا عن المجتمعات ، منطوية على نفسى . لا اكاد اميل الى شىء من اسباب البهجة والمرح . وحين ذهبت الى المدرسة اول مرة ، لم أجرؤ على مشاركة لداتى نشاطهن الاجتماعى فى الرياضى ، فقد كنت اظن لفرط حيائى وانطوائى ، اننى بدعة فى الخلق .

فلما كبرت ، تزوجت من رجل يكبرنى بعدة اعوام . ولكن حالى لم تختلف وكان اقارب زوجى ، قوما يميزهم الاتزان والثقة بالنفس ، ولطالما حاولوا ان يخرجونى عن تحفظى وانطوائى عن نفسى ، ولكن على غير طائل ، اذ كانت كل محاولة من جانبهم تزيدنى تحفظا وانطواء ، حتى غدوت ، على مر الايام ، عصبية المزاج ، سريعة التأثير ، يكفى رنين جرس الباب لكى يملأ قلبى فزعا ، كنت اعلم اننى اخفقت فى حياتى ، واخشى ما كنت اخشاه . هو ان يعلم زوجى بهذا الاخفاق ، ومن ثم كنت ابذل جهدى لكى ابدو مرحلة مبتهجة . حين اكون معه فى مجتمع عام ، وكان احساسى باننى اتكلف الابتهاج يزيد فى تفاستى وشقائى ، فما ليث الامر ان تفاقم ، ولم اعد ارى خيرا فى اطالة ايامى على قيد الحياة ، وبدأت افكر فى الانتحار .

فما الذى حدث ، وغير مجرى حياة هذه السيدة التاسعة ؟ ملاحظة عابرة ! . فقد استطردت مسز أولرد فى رسالتها تقول : « ثم غيرت ملاحظة عابرة مجرى حياتى جميعا . كانت حماى تتكلم يوما عن ابنائها وكيف درجت فى تنشئتهم ، فقالت فى معرض حديثها : « ومهما يحدث من أمر ، فقد كنت أصر دائما على أن ينطلق ابنائى على سجيتهم ، ويتمشوا مع طبيعتهم » . . ان ينطلقوا على سجيتهم ! تلك هى الملاحظة العابرة ، فقد أوحى الى هذه العبارة على الفور ، اننى درجت على التطبع بطباع لا تلائمنى ولا الائمها ! .

» ولقد تغيرت حياتى فى يوم وليلة ، حين بدأت أنطلق على سجيتى . حاولت أن أدرس شخصيتى ، وأتلمس نواحي القوة ، ونواحي الضعف فيها ، ثم رحلت أحطم العادات المترنمة التى اكتسبتها منذ نشأتى ، فبدأت اتخير من الوان الثياب ما يلائمنى ويتفق مع « الموضة » الشائعة ، ورحلت أسعى لاكتساب أصدقاء جدد ، وانضمت الى جمعية نسائية ، صغيرة فى مبدأ الأمر ، فكان الخوف يملأنى كلما اضطررت الى القاء كلمة ، ولكنى على توالى الكلمات ، اكتسبت الشجاعة والثقة بالنفس . وقد اقتضانى تحويل مجرى حياتى أمدا طويلا ، ولكنى اليوم انعم بسعادة لم أحلم بها قط . ومازلت اليوم أوصى ابنائى بتولى : « مهما يكن من الأمر انطلقوا دائما على سجيتهم » .

* * *

ومشكلة « ارادة الانطلاق على السجية » — كما يقول الدكتور « جيمس جوردون جيلكى » — قديمة قدم التاريخ وأن القدرة على تنفيذ هذه الارادة أو عدم القدرة ، تعزى معظم الأمراض العصبية والعقلية ، والعقد النفسية .

كتب « انجلو باترى » ثلاثة عشر كتابا ، وآلآفا من الفصول والمقالات ، فى تربية الأطفال ، وقد اثر عنه قوله : « ليس انعس من الشخص الذى يتوق الى أن يكون شخصا آخر غير الذى يؤهله

له كيانه الجسمانى ، والعقلى « . وانك لتجد هذه الرغبة فى أن
« يصبح الشخص شخصا آخر غير نفسه » ، متفشية فى هوليوود
على الخصوص ، وقد قال لى « سام وود » المخرج السينمائى
الشهير ، انه يلاقى اكبر العناء فى تعويد الممثلين الناشئين
الانطلاق على سجاياهم ، فمعظم هؤلاء يبغون أن يكونوا
« روبرت تايلور » من الدرجة الثانية ، أو « كلارك جيبيل » من
الدرجة الثالثة ! ويتوسل « سام وود » الى اقناعهم بالعدول
عن تشبههم بقوله : « لقد سئم الجمهور أسلوب هذين المثلين
فى التمثيل ، انه يريد شيئا جديدا » ، ثم أردف « سام وود »
حديثه لى بقوله : « لقد علمتنى التجارب انه لا خير فى قوم
يتشبهون بمن ليس يشبههم » .

وقد سألت أخيرا « بول بوينتون » مدير المستخدمين فى شركة
« سوكونى فاكوم » على الغلطة الكبرى التى يرتكبها طلاب
العمل فى شركته — وهو أفضل من يجيب عن هذا السؤال ، فقد
قابل أكثر من ستين ألف طالب عمل ، وألف كتابا بعنوان « ست
طرق للحصول على عمل » (١) — وقد أجابنى بقوله : « ان
أكبر غلطة يرتكبها طلاب العمل هى أنهم لا ينطلقون على
سجاياهم ، فبدلا من أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وآرائهم ،
يحاولون أن يجيبوا عن أسئلتك بما يظنونه الجواب الذى تريده
أنت . ولكن هذه الحيلة قلما تفلح ، فالناس يعرفون الشخص
الذى يدعى ما ليس فيه ، كما يعرفون العملة الزائفة ! » .

وقد تعلمت ابنة سائق « أوتوبيس » هذا الدرس ، ولكن بعد
تعب . كانت هذه الفتاة تتوق الى أن تصبح مغنية شهيرة . ولكن
منظرها كان يقف عقبة دون تحقيق هذه الأمنية ، فقد كان لها
فم واسع ، وأسنان نائثة بشكل ملحوظ . فلما حاولت للمرة
الأولى أن تغنى فى أحد المنتديات الليلية فى نيوجرسى ، توخت
أن تطبق شفيتها العليا لتغطى بروز أسنانها . فما كانت

النتيجة ؟ لقد جعلت من نفسها أضحوكة وحانت بها الخيبة .
وتصادف ان كان أحد المخرجين السينمائيين في ذلك المنتدى ،
ولمس في صوت الفتاة وطريقة أدائها ما ينبىء عن موهبة فنية ،
فاستدعاها وقال لها : « أنا أعلم تماما ما يدور بخلدك . أنت
تريدين أن تخفى منظر أسنانك اليس كذلك ؟ » وارتبكت الفتاة ،
ولكن الرجل استطرد : « فما الذى يخجلك ؟ أمى جريمة أن
تكون أسنانك ناتئة ؟ لا تحاولى أن تخفى أسنانك ! أفتحى فمك
عن آخره وسوف يعجب بك الجمهور ، وفضلا عن هذا ، فان
أسنانك هذه تميزك بطابع خاص ، وقد تكون يوما مبعث
شهرتك » .

وقد اتبعت « جاسديلى » — وهذا هو اسم الفتاة — نصيحة
الرجل ، وتجاهلت منظر أسنانها ، ولم تعد تفكر منذ ذلك اليوم
الا في ارضاء مستمعيها ، فأصبحت تفتح فاهها ، وتغنى بملء
شديقتها ، حتى غدت نجمة شهيرة من نجوم الاذاعة والسينما ،
وحاول كثير من المغنين فيما بعد أن يقلدوها .

قال العالم النفسانى « وليم جيمس » : « اذا قسنا انفسنا
الى ما يجب أن نكون عليه نتضح لنا أننا أنصاف احياء : . فاننا
لا نستخدم الا جانبا يسيرا من « مواردنا » الجسمانية والذهنية
او بمعنى آخر ، ان الفرد منا يعيش في حدود ضيقة يصنعها
داخل حدوده الحقيقية . انه يمتلك قوى كثيرة مختلفة . ولكنه
عادة لا يقطن لها ، او يخفق في استخدامها » .

انك شئ فريد في هذا العالم ، انك نسيج وحدك . فلا الأرض
منذ خلقت رأت شخصا يشبهك تمام الشبه ، ولا هى في العصور
المقبلة سوف ترى شخصا يشبهك تمام الشبه . وبينك علم
الوراثة بأنك تكونت جنينا نتيجة لتزاوج أربعة وعشرين زوجا

من الكروموزومات (١) ساهم فيها بالنصف كل من والديك . وقد تضافرت هذه الأزواج الأربعة والعشرون على توريتك الصفات التى تتميز بها . ويقول « امران شايينفيلد » فى كتابه « أنت والوراثة » (٢) : « ان كل « كروموزوم » يحمل « جينات » (٣) تعد بالمئات ، لكن واحدا من هذه الجينات ، فى بعض الأحيان يسعه ان يغير حياة المرء تغيرا شاملا » نعم . فالحق أننا مخلوقون بدقة تثير الرهبة ، وتستدعى الاعجاب .

وحتى بعد النقاء أبويك أحدهما بالآخر ، وتزاوجهما ، فان احتمال خروجك أنت بالذات الى حيز الوجود كنسبة ١ الى ٣٠٠.٠٠٠ بليون أى بمعنى آخر لو أن لك ٣٠٠.٠٠٠ بليون اخ وأخت لكانوا جميعا مختلفين عنك مناقضين لك ! .



وفى وسعى ان أحدثك عن موضوع استقلالك بذاتك ، وانفرادك بصفاتك عن ثقة وخبرة ، فقد علمتنى التجارب المريرة ، هذا الدرس لقاء ثمن فادح واضرب لك مثلا على ذلك : عندما ارتحلت عن مزارع « ميسورى » الى نيو يورك . التحقت بالاكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل . اذ كنت أطمع فى أن اصبح

(١) الكروموزومات Chromosomes اجسام صغيرة عضوية متشابهة الشكل ، توجد فى نواة كل خلية من خلايا الحيوان المنوى « فى الرجل » والبويضة « فى الأنثى » ، وعددها فى كل نواة اربعة وعشرون زوجا ، الا أنها تختزل الى النصف فى حالة تكوين الخلايا التناسلية ، والحكمة فى هذا هى المحافظة على عددها فى النوع الانسانى ، ويساهم بنصفها « أى ١٢ زوجا » الذكر ونصفها الآخر الأنثى .

(٢) Amran Shienfeld : "You and Herdity" (٢)

(٣) الجينات Genes هى عوامل الوراثة ، التى تحلها الكروموزومات . ولكل صفة يتصف بها الفرد واحد على الأقل من هذه الجينات فلون العين مثلا ، يسببه « جين » خاص ، وكذلك فى سائر مميزات الانسان .

ممثلا . وراودتني فكرة حسبتها تدنيني من النجاح في امد قصر ، وقد عجبت اذ ذاك كيف لم يظن آلاف الناس الطموحين ، الى هذه الفكرة على بساطتها ؟ قلت لنفسى : على الا ان ادرس كيف توصل نوابغ الفنانين - في ذلك العهد - امثال «جون درو» و « والترهامدن » ، و « اوتيس سينر » الى بلوغ النجاح ، ومتى عرفت الميزات التي يمتاز بها كل منهم ، عملت على ان اجمع في شخصي تلك الميزات جميعا ! يا للسخف ! لقد ضيعت سنين من عمري في محاولة التشبه بغيري من الناس ، قبل ان يخطر لي ببال ان من المحال ان « اكون » شخصا غير نفسي . .

وكان من المتوقع ان تعلمني هذه التجربة درسا لا ينسى ، ولكنها لم تفعل . فقد كابدت مرة اخرى تجربة مشابهة لها بعد فترة اذ شرعت في تأليف كتاب خلته احسن ما اخرج للناس في موضوع « الخطابة العامة وجدواها لرجال الأعمال » ، وكنت استهدف بوضع هذا الكتاب ، ذات الفكرة « الفذة » التي استهدفتها في تعلم التمثيل ! فقد اردت ان « استعير » افكار غيري من المؤلفين واجمعها كلها في مجلد واحد ! ومن ثم استحضرت عددا كبيرا من الكتب التي تبحث في موضوع الخطابة، ورحت اعالج ادماج افكار المؤلفين في مسودات كتابي . ولكني مالبثت ان ادركت سخف تصرفي ، فقد وجدت فيما أنجزته من صحائف الكتاب افكارا متناقضة ، متضاربة ، كقيلة بأن تصرف أي رجل أعمال عن الماضي في القراءة فيه ! ومن ثم ضربت بمجهود سنة كاملة عرض الحائط ، وبدأت من جديد ، وفي تلك المرة قلت لننسى : « ينبغي لك ان تكون « ديل كارنيجي » بما انطوى عليه من نقائص ، وما يحده من حدود » . وهكذا شمريت عن ساعدي ، وفعلت ما كان ينبغي ان افعله منذ البداية : وضعت كتابا في الخطابة العامة ، مستمدا من تجاربي ، وملاحظاتى ، ووجهات نظري بوصفى ممارسا للخطابة العامة .

« كن نفسك » ! تلك هي النصيحة الحكيمة التي نصح بها الموسيقار « ارفنج برلين » زميله « جورج جيرشوين » . فحين التقى « برلين » بـ « جيرشوين » ، كان الأول علما مشهورا من اعلام الموسيقى ، في حين كان الآخر ملحنا ناشئا يشتغل بأجر قدره خمسة وثلاثون ريالاً في الأسبوع ، وقد لمس برلين مواهب جيرشوين فعرض عليه أن يستخدمه لديه بصفة « سكرتير موسيقى » ، على أن يمنحه ثلاثة أضعاف المرتب الذي يتقاضاه ، ثم شفع عرضه هذا بالنصح التالي : « ولكنني أنصحك ألا تقبل ! فانك إن قبلت فستحاول أن تجعل من نفسك « ارفنج برلين » آخراً ، أما إذا دأبت على أن « تكون نفسك » فستصبح يوماً « جورج جيرشوين » الذي لا ثأني له ! » وقد انتصح جيرشوين بهذه النصيحة ، وأصبح على مر الأيام من أشهر الموسيقيين الأمريكيين .

ولقد تعلم « شارلى شابلن » و « ويل روجرز » ، و « جين أوترى » وغيرهم ، هذا الدرس نفسه .
فعندما بدأ شارلى شابلن الاشتغال بالسينما ، أصر المخرج على أن يقوم شارلى بتقليد ممثل فكاهى شهير في ذلك الوقت ، ولكن شارلى لم يصبح ممثلاً ذا شأن الا حين بدأ يمثل على طريقته الخاصة .

وصادف الممثل الفكاهى « بوب هوب » مثل هذه التجربة .
فقد انفق سنين من حياته وهو يمثل الأدوار الغنائية الراقصة ، ولكن ذكره لم ينبه الا حين أخذ يمثل الأدوار التي تصلح له ويصلح لها .

انت نسيج وحدك في هذه الدنيا ، فاغبط نفسك على هذا ، واعمل على الاستزادة مما ركبته الطبيعة فيك من مواهب وصفات .
قال ايمرسون : « سوف ينتهى كل امرئ الى وقت يدرك فيه ان الجسد جهل ، وان التشبه انتحار ، وانه ينبغى للمرء ان يأخذ

نفسه على علاقتها ، ويرضى بها كما قسمها الله له . . . ويعلم أن الأرض على امتلائها بالخيرات ، لن تهبه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد في تعهد الأرض التى تثبت الشعير ، وأن القوة التى أودعها فيه فريدة فى نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها . ولا هو نفسه يحيط بمداهما ما لم يضعها موضع التجربة » .

واذن ، فلكى تتخذ اتجاهها ذهنيا يجلب لك الطمأنينة ، ويجنبك القلق ، اليك القاعدة رقم ٥ :

اعرف نفسك وكن كما خلقك الله ، ولا تحاول التشبه بفرك .

الفصل السابع عشر

اصنع من الليمونة المالحة شرابا حلوا

اثناء اشتغالي بتأليف هذا الكتاب ، ذهبت يوما لزيارة جامعة شيكاغو وسألت مديرها « روبرت هتشينز » كيف يتجنب القلق فأجاب : لقد حاولت دائما أن أتبع نصيحة أسداها لي صديقي « جوليوس روزنوالد » ، اذ قال لي : « حين تجد لديك ليمونة ، اصنع منها شرابا حلوا » .

هذا ما يفعله الرجل العاقل ، أما الأحمق فيفعل العكس : اذا وهبته المقادير ليمونة مالحة ، تقاغس وتخازل ، وقال : « لقد قضى على بسوء الطالع » ، ثم يروح يسخط على الناس والاقدار ويرثى لنفسه .

قال العالم النفساني « الفرد ادلر » ، بعد أن أنفق معظم حياته في دراسة الناس ، وخصائصهم النفسية الكامنة : « ان من أروع مميزات الانسان قدرته على تحويل السالب الى موجب » واليك مثلا على ذلك ، قصة مثيرة للسيدة « ثالما تومسون » قالت : « في خلال الحرب العالمية الأخيرة ، صدر الأمر الى زوجي بالانتقال الى احد معسكرات التدريب في صحراء « موجيف » بولاية نيومكسيكو . وصحبته الى مقره الجديد ، ولكن سرعان ما كرهت هذا المكان وازدريته . كان زوجي اذا خرج الى معسكر التدريب في الصحراء ، خلفني وحيدة نهبا للضيق والضجر . فقد كانت حرارة الجو فوق ما أحتمل ، ولم أكن أجد من أحادثه أو أسامره . فالكسيكيون والهنود الحمر لا يتكلمون الانجليزية . وكان الطعام الذي أطمعه ، والهواء الذي أستنشقه محملين بذرات الرمال . وبلغ بي الشقاء مبلغا كبيرا حتى انني كتبت لوالدي خطابا قلت لهما فيه : انني عقدت العزم على ترك زوجي والعودة اليهما . ورد أبي على خطابي هذا بسطرين فقط — سطرين سأذكرهما ما حبيت ، لأنهما

غيرا مجرى حياتى تماما . وهذان السطران هما : «من خلف قضبان سجن ، تطلع الى الأفق اثنان من المساجين ، فاتجه أحدهما ببصره الى وحل الطريق ، اما الآخر فتطلع الى نجوم السماء ! » . . وقد قرأت هذين السطرين وأعدت قراءتهما مرات ، فخلجت من نفسى ، وعولت على أن أتطلع الى « نجوم السماء » . وما هى الا فترة وجيزة حتى عقدت صداقة وطيدة مع كثير من أهالى تلك المنطقة ، وبادلونى هم ودا بود ، فما كنت اكاد ابدى اعجابى بشيء من منسوجاتهم ، او اوانبهم الخزفية حتى يسارعوا الى اهدائه الى . ورحت ادخل على نفسى البهجة بتأمل مغيب الشمس فى جوف النصحراء ، كما أخذت أشغل وقت فراغى بالتقاط الأصداف من الرمال التى كانت يوما قاعا للمحيط .

فما الذى أحدث فى نفسى هذا التغير ؟ ان صحراء «موجيف» لم تتغير . كما ، لم يتغير الهنود الحمر ، ولكنى أنا التى تغيرت ، أو تغير اتجاهى ذهنى ، وبهذا استطعت أن احول تجربة الية الى مغامرة مثيرة تعمر بسيرتها حياتى . بل لقد كانت تلك المغامرة من الاثارة بحيث دفعتنى الى تأليف قصة عنها بعنوان « قضبان لامعة » (١) وكنت أعنى بها تلك القضبان التى تطلعت من ورائها ، فرأيت نجوم السماء ! .

الا أنك يا « ثلما » لم تكنسفى الا حقيقة قديمة عرفها الاغريق قبل مولد المسيح بخمسمائة عام ، حين قالوا : « أفضل الاشياء اصعبها منالا » وأعاد « هارى ايمرسون فوزديك » صياغة هذه الحقيقة فقال : « ليست السعادة فى السرور ، وانما هى فى الظفر » نعم ! الظفر الذى نحسه حين تثمر اعمالنا . . حين نحيل الليمون المالح الى شراب . . حلو .

زرت مرة مزارعا سعيدا فى فلوريدا ، وسعة أن يحيل ليمونة ، لا مالحة فحسب ، بل « مسومة » ايضا ، الى شراب سائغ .

(١) Theima Thompson "Beigh Ramparst"

فعندما اشترى مزرعته ، ولم يكن رآها من قبل روع حين وجد تربتها مجدية قاحلة لا تصلح للزراعة ، ولا تصلح حتى للرعى ! فكل ما ينمو فيها ليس إلا أعشابا فطرية ، تقطت بها الحيات السامة التى ألفاها منتشرة فى أرضه ! .. وفجأة خطرت للرجل فكرة ، رآها وسيلة لتحويل « السالب الى موجب » . فبدأ بتعهد تربية الحيات السامة المنتشرة فى مزرعته ! وقد زرت هذا الرجل منذ بضعة اعوام ، فرأيت أفواجا من السائحين تتقاطر عليه لتشاهد أول مزرعة من نوعها فى العالم : مزرعة لتربية الحيات ! ونجح فى عمله نجاحا باهرا ، وكسب ثروة طائلة من استخلاص سموم حياته ، وتصديرها للمعامل كى تستخرج منها الأمصال المضادة لسوم الحيات ، ومن بيع جلود حياته بأسعار خيالية ، لتصنع منها أحذية السيدات وحقائب اليد ، ثم من بيع لحوم هذه الحيات بعد حفظها فى علب ، وتصديرها الى عشاق هذا اللون من اللحم فى جميع أنحاء العام .

* * *

لقد ارتحلت شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا فى أنحاء أمريكا ، فصادفت كثيرا من النساء والرجال وسعهم أن يحيلوا « السالب » الى « موجب » . وقد صور « وليم بوليثو » هذه المقدره بقوله : « ليس أهم شئ فى الحياة أن تستثمر مكاسبك ، فان أى أب له يسعه أن يفعل هذا ، ولكن الشئ المهم حقا فى الحياة هو أن تحيل خسارتك الى مكسب ، فهذا أمر يتطلب ذكاء وحذقا ، وفيه يكمن الفارق بين رجل عاقل ورجل أحمق » .

قال « بوليثو » هذه الكلمات بعد أن فقد احدى ساقيه فى حادث قطار ، ولكنى أعرف رجلا آخر فقد ساقيه جميعا ، ووسمه مع ذلك ، أن يحيل السالب الى موجب ! ذلك هو « بن فورستون » ، وقد قابلته مصادفه فى مصعد أحد الفنادق بمدينة « أتلانتا » بولاية « جورجيا » . فما ان خطوت داخل المصعد ، حتى لقيت رجلا مبتورا الساقين ، ولكنه مشرق الوجه ، ضاحك الشعر ، يجلس فى

ركن المصعد ، على كرسى ذى عجلات . فلما توقف المصعد عند الطابق الذى يقطنه ، سألتنى الرجل ببشاشة ولطف أن أفسح له الطريق ليخرج بكرسيه ، ثم قال ووجهه يفيض اشراقا : « آسف يا سيدى لازعاجك » . فلما غادرت المصعد الى غرفتى لم أستطع أن أفكر فى شيء آخر ، سوى هذا العاجز المشرق الوجه ، ومن ثم تصدت اليه ، وطلبت اليه أن يروى لى قصته ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

« فى أحد ايام عام ١٩٢٩ ذهبت لأقطع بعض جذوع الأشجار ، لأقيم منها فى حديقتى عمدا تتساند عليها أغصان نبات «الفاصوليا» . وحملت هذه الجذوع فوق سيارتى ، واتجهت الى دارى . ونجأة سقط احد هذه الجذوع تحت عجلات السيارة ، فى نفس اللحظة التى كنت انتنى فيها الى منعطف جانبى ، فتعثرت العجلات فى الجذع المتين ، وانقلبت السيارة ، وراحت تتدحرج حتى اصطدمت بشجرة ضخمة . وقد أصبت من جراء هذا الحادث برضوض فى سلسلتى الفقرية ، وشلل فى ساقى ، الأمر الذى استدعى بترهما . كنت فى الرابعة والعشرين حين وقع لى هذا الحادث ، ومن يومها لم أخط خطوة واحدة على الأرض ! » .

وعدت أسأله بأية شجاعة واجه هذه المسألة ، فأجابنى بأنه لم تكن له شجاعة فى ذلك الوقت ، فقد ثار فى وجه القدر ، وراح يغلى كالرجل الذى يوشك على الانفجار ، ولكنه بمضى السنين ، كان يجد أن ثورته لا تجديه الا امعانا فى الشتاء . قال : « وأدركت أخيرا أن الناس كانوا رحماء بى ، حائنين عى ، فوجدت أن أقل ما ينبغى لى حيالهم هو أن أكون رحيما بهم ، حانيا عليهم » . ثم سألته هل يحس ، بعد انقضاء هذا الزمن الطويل ، أن تلك الحادثة كانت مأساة مروعة ، فأجاب على الفور : « كلا ! فانى سعيد بحدوثها » . ثم روى لى أنه بعد أن تغلب على ثورة نفسه بدأ ينسج لنفسه دنيا حافلة ، فقد شغف بالمطالعة ، وبدأ يسيغ الأدب الرائع ، وقد طالع فى أربعة عشر عاما نحو من ألف

وأربعمئة كتاب ، ففتقت له هذه الكتب آفاقا جديدة ، ومآزت حياته بهجة لم يكن يحلم بها ، وقد شغف فضلا عن هذا بالموسيقى ، وأصبح يجد فيها روحا ومتمعة بعد أن كان يجد فيها سآما وملالا . وكانت أهم حسنات هذا الحادث ، كما قال لى ، أنه وجد أمامه متسعا من الوقت للتأمل ، قال : لقد « وسعنى للمرة الأولى فى حياتى أن أتأمل أمور العالم ، وأشعر شعورا صحيحا بقيم الأشياء ، وقد وجدت أن الأشياء التى كنت أضفى عليها كثيرا من الأهمية ، وأجاهد للحصول عليها لم تكن لها فى الحقيقة بالأهمية التى علقها عليها » .

وكنتيجة لاعتياده المطالعة اتجه ميله الى السياسة ، فدرس المسائل العامة ، وراح يلقي الخطب من مقعده ذى العجلات . . واليوم يشغل « بن فورستون » — وهو ما زال تعيد كرسيه ذى العجلات — منصب وزير الخارجية فى ولاية جورجيا .

* * *

لقد اشتغلت طوال الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة بتعليم البالغين فوجدت أن أهم ما يشكو منه أكثر هؤلاء أنهم لا يتموا دراستهم الجامعية ، وهم يعتبرون هذا نقصا فادحا . وأنا أعلم أن هذا ليس الا وهما . فقد عرفت آلفا من الرجال الناجحين لم تتعد دراستهم المرحلة الثانوية ، ولهذا كنت اتص دائما على طلبتى قصة رجل ناجح عرفته ، لم يتم حتى المرحلة الابتدائية من الدراسة ، فقد نشأ فى فقر مدقع ، فلما مات أبوه اكتتب أصدقاؤه لنتفقات كنهه ودفنه ، واشتغلت أمه عقب وفاة أبيه فى مصنع لانتاج المظلات ، فكانت تقضى فى العمل عشر ساعات من يومها ، ثم تعود الى بيتها بأجزاء المظلات لتواصل العمل حتى الساعة الحادية عشرة ليلا . وحدث أن اشترك الغلام فى رواية تمثيلية نظمها ناد للقلمان ، فوجد فى التمثيل شيئا مثيرا حفزه على أن يدرس فنون الخطابة واللقاء ، وجرته دراسته للخطابة الى معترك الحياة السياسية

فما أن بلغ الثلاثين من عمره حتى انتخب عضواً في المجلس التشريعي لولاية نيويورك . غير أنه لم يكن يجد في نفسه الاستعداد لتحمل هذه المسئولية . بل لقد صرح لى أنه لم يكن يدرى من أمور المجلس التشريعي شيئاً . . . كان يدرس مشروعات القوانين التي تعرض على المجلس ، ويعطى صوته لها أو ضدها ، ولكنه ان فهم منها شيئاً فكما يفهم شيئاً مكتوباً بالهيراوغليفية ! ولقد اجتاحه القلق حين عين عضواً في لجنة من لجان المجلس خاصة بالفابات ، ولم تكن قدمه قد وطئت أرض إحدى الفابات من قبل ! واجتاحه القلق مرة أخرى عندما عين عضواً في لجنة المصارف ، وهو الذي لم يسبق له قط أن عامل أحد المصارف ! ولقد صارحنى بأنه كاد يستقيل عن طيب خاطر من المجلس التشريعي ، لولا أنه كان يخجل من الافضاء لأمه بنياً اخفاقه ! وفي غمرة يأسه قرر أن يعكف على الدراسة والتحصيل ست عشرة ساعة في اليوم وأن يحيل «ليمونة» جهله الى «ليمونادة» سائفة من المعرفة والعلم ، فاستطاع بمجهوده أن يستحيل من سياسى محدودة شهرته بحدود ولايته ، الى سياسى ذى شهرة قومية ، لقد وصفته جريدة « نيويورك تيمس » بأنه « اقرب المواطنين الى قلوب اهالى نيويورك » . . . ذلك هو « آل سميث » .

وما انقضت عشر سنوات على « آل سميث » بعد أن عكف على تنفيذ البرنامج التعليمى الذى اختطه لنفسه . حتى أصبح أشبه بموسوعة حية تعتمد عليها حكومة ولاية نيويورك . وقد انتخب محافظاً لنيويورك أربع مرات متتالية ، وفي عام ١٩٢٨ رشحه الحزب الديمقراطى لرياسة الولايات المتحدة : وقد منحته ست جامعات ، من بينها جامعتا كولومبيا وهارفارد ، الدرجات العلمية الفخرية ، وهو الذى لم يتعد المرحلة الابتدائية من دراسته .

حدثنى آل سميث فقال ان شيئاً مما حدث ما كان ليحدث لو أنه لم يعكف على العمل ست عشرة ساعة كل يوم ليحيل « السالب » الى « موجب » ! .

وكلما ازددت تعمقا في دراسة الأعمال العظيمة التى انجزها بعض

مشاهير الناس ، ازدادت ايماناً بان هذه الاعمال كلها كان الدافع اليها نقائص حفز اصحابها على القيام بها . ثم جنى ثمراتها المباركة .

نعم ! فمن المحتمل ان الشاعر « ملتون » لم يكن ليكتب هذا الشعر الرائع لو لم يكن اعمى . . وان بتهوفن لم يكن ليؤلف مثل هذه الموسيقى العظيمة لو لم يكن اصم . والارجح ان « تشايكوفسكى » لو لم يكن شقياً معذباً في زواجه ، حتى انه فكر في الانتحار ، لما لحن سيمفونية العظيمة . . ولو لم يكن دستويفسكى ، وتولستوى ، معذبين في حياتهما الخاصة لما كتبا قصصهما الخالدة .

وقد كتب تشارلس داروين — العالم الذى غير نظرة الناس الى الحياة ومنشئها — يقول : « لو لم اكن مريضاً طريح الفراش ، لما انجزت من الاعمال ما انجزت » .

وفي اليوم الذى ولد فيه داروين في انجلترا ، ولد دنسل آخر في كوخ حقير قائم على غابات « كتوكى » وقد نبه ذكر هذا الوليد الآخر بسبب نقائصه . ذلك هو « ابراهام لنكولن » . فلو انه نشأ في اسرة ارستقراطية . ونال درجة جامعية ، وسعد في حياته الزوجية ، فمن المرجح انه لم يكن ليلقى خطبته الخالدة خلال مسرعة « جتيسبرج » — في الحرب الاهلية الأمريكية — ولا تصيدته الاخاذة التى القاها حين اعيد انتخابه رئيساً للولايات المتحدة ومطلعها : « بقلب لا يحمل شراً لانسان ، مفعم بالحب للجميع . . الخ » .

قال « هارى ايمرسون فوزديك » في كتابه « القدرة على الانجاز (١) » : « من اين اتتنا الفكرة القائلة ان الحياة الرغدة ، المستقرة ، الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات تخلق سعاداء الرجال او عظماءهم ؟ ان الامر على العكس . فالذين اعتادوا الرثاء لانفسهم ، سيواصلون الرثاء لانفسهم ، ولو ناموا على الحرير

(١) Harry Emerson Fosdick "The Power to See it Through"

وتقلبوا في 'الدمقس' ، والتاريخ يشهد بأن العظمة والسعادة أسلمتا قيادهما لرجال من مختلف البيئات ، منها الطيب ، ومنها الخبيث ، ومنها التي تميز بين الطيب والخبيث ، حين حملوا المسؤولية على اكتافهم . ولم ينتبذوها وراء ظهورهم ! » .

وهب أننا أصابنا اليأس ، فأفقدنا كل أهل في احالة حياة الكثرة الى حياة عذبة صافية . فهناك سببان يدفعاننا الى المحاولة ، فقد نكسب كل شيء ، ولكننا من المؤكد ان نخسر شيئاً :

١ — السبب الأول : أننا قد ننجح في محاولتنا .

٢ — والسبب الثاني : أنه على فرض اخفاقنا ، فان المحاولة ذاتها — محاولة استبدال « السالب » بالموجب — ستحفزنا على التطلع الى الأمام بدلاً من الالتفات الى الوراء ، وستحل الأفكار الانشائية في أذهاننا محل الأفكار الهدامة ، وتولد فينا طاقة من النشاط تدفعنا الى الانشغال بالعمل ، فلا يغدو أماننا متسع من الوقت للتحسر على الماضي الذي ولى وانتهى .

* * *

بينما كان عازف الكمان العالمى « أول بول » C e Bوليم يقيم إحدى حفلاته الموسيقية في باريس ، انقطع فجأة وتر من أوتار كمانه ، فما كان من العازف البارع الا ان واصل العزف على الأوتار الثلاثة الباقية ! .

هكذا يجب ان نتخاض معركة الحياة . لا تهتم لنقطع الوتر بل واصل العزف على الأوتار الباقية .

لو كان الأمر بيدي لحفرت هذه الكلمات التي قالها «وليم بوليثو» على لوحات من البرونز وأودعت في كل مدرسة لوحة منها :

« ليس أهم شيء في الحياة ان تستثمر مكاسبك ، فأى ابله يسعه ان يفعل هذا ، ولكن الشيء المهم حقاً هو ان تحيل خسائرك الى مكاسب ، فهذا امر يتطلب ذكاء وحذقاً ، وفيه يكن الفارق بين

رجل عاقل ورجل أحمق » .

واذن ، فلكى تتخذ اتجاها ذهنيا يجلب لك الراحة والسعادة ،
اتبع القاعدة رقم ٦ :

عندما تلقى المقادير بين يديك ليمونة ملحة ، حاول ان تصنع
منها شرابا سائفا حلوا .

الفصل الثامن عشر

كيف تبرأ من « السوداء » (١) في أسبوعين

عندما شرعت في تأليف هذا الكتاب ، أعلنت عن جائزة قدرها مائتا دولار لأحسن قصة واقعية بعنوان « كيف تهرت القلق » واخترت للفصل فيما يرد من القصص ثلاثة حكام . هم « ايدى ريكيكر » رئيس « شركة أيسترن للخطوط الجوية » والدكتور « ستيوارت ماكيلاند » رئيس جامعة لنكولن التذكارية ، و « ه ، ف . كالتبورن » المعقب السياسى بمحطات الإذاعة . وقد تلقينا ضمن ما تلقيناه من قصص ، قصتين تنافس احداها الأخرى ، روعة وجمالا ، حتى ان الحكام لم يستطيعوا المفاضلة بينهما ، فقسمنا الجائزة بالتساوى بين صاحبي القصتين ، واليك احدى هاتين القصتين ، وقد أرسلها « س ، و ، برتون » الموظف « بشركة سيارات هويزر » ، والقاطن في رقم ١٠٦٧ الشارع التجارى ، مدينة سير نجفيلد ، بولاية ميسورى .

« كان آخر عهدى بأمى وأنا فى التاسعة من عمرى ، فقد خرجت من البيت ذات يوم ، منذ تسعة عشر عاما فى صحبة شقيقى الصغيرين ، الى غير عودة . ولقى أبى مصرعه بعد ذلك بثلاث سنوات ، فقد حدث أن ابتاع هو وشريك له مقهى فى بلدة صغيرة ، وانتهب الشريك فرصة غياب أبى عن البلدة فى رحلة متعلقة بالعمل فباع المقهى . وقبض ثمنه نقدا ، ثم احتفى ! وتلقى أبى برقية من صديق له ينبئه فيها بالخبر ، ويرجوه أن يسرع بالعودة ، وفى أثناء هروله فى الطريق وقد أذهله النبا ، لقى حتفه فى حادث سيارة .

(١) « السوداء » أو « الملانخوليا » Melancholy مرض تطلقى فيه الكآبة على نفسية المريض ، فتملكه الأفكار السوداء ، ويستولى عليه اليأس ، وترسم مظاهر مرضه هذا على وجهه فبين فيه الوجوم وتعلو تسماته التجاعيد

وكلت عماتي - على املاقهن ، وتقدم السن بهن ، وتمكن المرض منهن - ثلاثة من اخوتي ، اما انا وشقيقي الاصغر ، فلم يكفلنا احد ، بل تركنا لرحمة اهل البلدة ، وكنت فيما مضى ارتعد فرقا من ان اصبح يتيما ذات يوم ، فما بالك وقد غدوت لا يتيما وحسب ، بل مشردا ايضا ؟ ! واشفقت على واخي اسرتان من الاسر المقيمة ببلدتنا ، فكلفت احدهما اخی ، وكفلتني الأخرى ، وما لبثت الاقذار ، بعد ان اتخذت مقامى بين افراد الأسرة ، ان تنكرت لعائل الأسرة ، ففقد عمله ، ومن ثم ناعت هذه الرقيقة الحال بنفقات ايوائى ، فسرحتنى بمعروف .

« ودعائى ، بعد هذا « مستر لوفتين » لأعيش معه وزوجته فى مزرعتها التى تبعد احدى عشر ميلا عن البلدة وكان «مستر لوفتين» عجوزا فى السبعين ، الزمه المرض فراشه فلا يبرحه . وقد استدعانى اليه حال وصولى الى منزله ، وقال لى ان فى وسعى ان اقيم فى منزله ، واشاطره زوجته العيش ما دمت لا اكذب ، ولا اسرق ، ولا اعصى له امرا . وقد غدت هذه الوصايا الثلاث شريعتى ، لم اجد عنها قط . وارسلنى مستر لوفتين الى مدرسة القرية ، فلم يمض اسبوع على ذهابى اليها حتى وجدنى ماكنا فى البيت ، وانا ابكى وانتحب وسألنى عن السبب ، فقلت له ان تلاميذ المدرسة يسخرون منى ، ويتندرون على ، ويلقبوننى باليتيم ، واننى اكبح غضبى ، واتمالك نفسى عن مقاتلتهم بجهد جهيد . فطيب « مستر لوفتين » خاطرى وازجى الى نصيحة ذهبت بكر ما كتبت اهلته من شقاء ، بل احوالت اعدائى الى اصدقاء اوفياء . قال لى : « أتدرى يا « رالف » ان زملاءك سوف يكفون عن السخرية منك ، والهزاء بك ان انت ابديت بهم اهتماما ، وعملت على مساعدتهم قدر استطاعتك ؟ جرب ، وسوف تلمس النتيجة بنفسك » وقد جريت وولست . رحبت اساعد زملائى على كتابة ما صعبر عليهم من الموضوعات الانشائية ، وكتبت بنفسى مناظرات باكملها لطلبة مناظرين ، ولخصت كتبنا فى مذكرات موجزة وهبتها لبعض زملائى ،

وانفقت ليالى ساهرا ، لأساعد تلميذة على استيعاب دروس
الرياضة .

« ثم غزا الموت جيراننا ، فعدا على مزارعين ، وهجر مزارع
ثالث زوجته الى غير عودة ، فتطوعت لمعاونة هؤلاء الزوجات
الثلاث اللواتى فقدن من يعولهن ، كنت أمر بديارهن قبيل ذهابى
الى المدرسة وبعد ايامى منها ، فأحتطب لهن ، وأحلب لهن الأبقار ،
واسقى الزرع . ولكن سرتنى النتيجة وازدهتنى . فقد غسدت
محمودا بعد أن كنت مذموما ، وأصبحت صديقا وفيا لكل انسان
في محيطنا . وقد أظهر أهل القرية طيب شعورهم نحوى حين
سرحتنى « البحرية » في أعقاب الحرب . فقد توافد لزيارتى في اليوم
الأول لوصولى أكثر من مائتى مزارع ، قطع بعضهم في سبيل
الزيارة أكثر من ثمانين ميلا ! اننى لن أنسى ما حييت هذا الدرس ،
ولن أنسى قط اننى حين انشغلت بمساعدة الناس ، واسداء العون
لهم ، استبدلت بشقائى سعادة ، وبمخاوفى ثقة ، وبقلقى أمنا
واطمناننا » .

مرحى ، مرحى .. لقد عرف مستر برتون كيف يكسب الأصدقاء ،
وعرف أيضا كيف يقهر القلق ويستمتع بالحياة .

* * *

لبث الدكتور « فرانك لوب » ، من أهالى مدينة « سياتل »
بولاية « واشنطن » مريضا بداء المفاصل ثلاثا وعشرين سنة .
وبرغم ذلك ، فقد قال عنه « ستوارت هوايتهاوس » ، المحرر
بجريدة « سياتل ستار » : « الحق اننى لم أر رجلا مثله منكرا لذاته ،
مستمتعا بحياته » ، فكيف ياترى وسع هذا المريض الطريح الفراش
أن يستمتع بحياته ؟ انراه استمتع بها بالشكوى ، والنقمة ،
والثورة ؟ أم استمتع بها بالبراء لنفسه ، ومطالبته كل من حوله
بالاهتمام به ؟ كلا ، بل باتخاذها في الحياة شعارا : « أنا في الخدمة »
(ch Diem) فقد عكف على جمع أسماء وعناوين المرضى أمثاله ،

التسرية والترفيه الى مئات المرضى الملازمين لفراشهم ، فضلا
مشجعة لهم ، ومقوية لعزيمتهم . بل انه في الواقع نظم « جمعية »
اعضاؤها من المرضى الملازمين لفراشهم ، وهدفها تشجيع المرضى
بعضهم لبعض عن طريق تبادل الرسائل ، وانتهى الأمر بهذه الجمعية
ان غدت منظمة قومية اسمها « جماعة المتعدين » تنتظم آلافا من
المرضى . وقد استطاع « الدكتور لوب » وهو ملازم لفراشه ، ان
يبدج الرسائل بمعدل الف واربعمئة رسالة سنويا ، تحمل اسباب
التسرية والترفيه الى مئات المرضى الملازمين لفراشهم ، فضلا
عما كان يتيح لهم من التسهيلات لاقتناء الكتب ، واجهزة الراديو
وغيرها

فما هو الفرق الأكبر بين « الدكتور لوب » وكثيرين غيره من
المرضى ، فضلا عن الأصحاء ؟ الفرق هو هذا : كان « الدكتور لوب »
يحب بين جوانحه بالشفقة والحب .. لا لنفسه بل لغيره من
المرضى ، ومن ثم عكف على الترفيه عنهم بقدر طاقته ، دون أن
يرجو لنفسه شيئا .

واليك أعجب حقيقة قالها رجل من علماء النفس المبرزين هو
« الفرد أدلر » . فقد اعتاد هذا العالم النفسى أن يقول لمرضاه
المصابين بالسوداء (الملائخوليا) : « فى وسعكم ، أن تبرؤا من
مرضكم فى أسبوعين اذا جربتم هذه الوصفة : حاولوا فى كل يوم
أن ترفهوا عن شخص واحد » . وقد يبدو هذا القول صعب
التصديق ولهذا أستطرد فاعتبس شيئا مما أورده الفرد أدلر فى كتابه
الرائع : « ما الذى تعنيه لك الحياة » (١) يقول أدلر : « لا يخرج
مرض السوداء فى الحقيقة عن أى نقمة وتقرير موجهان الى الغير ،
وان كان المريض به يبدو كما لو كان يوجه هذه النقمة وهذا التقرير
الى نفسه ، استدرارا لعطف الناس واجتلالا لاهتمامهم . وكثيرا
ما يبدأ المريض بالسوداء فى سرد ذكرياته بقوله : « أذكر اننى فى

(1) Alfred Adler, «What life should Mean to You»

طفولتى كنت أرغب فى الاستلقاء على الأريكة ، ولكنى وجدت أذى مستلقيا عليها ، ولم يحمله على مفارقتها سوى بكائى ونحيبى .. .
وقد يلجأ بعض المرضى بالسوداء الى الانتقام بقتل أنفسهم ، ولهذا يحتم على الطبيب أن يقطع عليهم سبل الأعدار التى ينتحلونها
للإقدام على الانتحار . وطريقتى الخاصة فى تخفيف حدة التوتر عن هؤلاء المرضى تتلخص فى اقتراح اقترحه عليهم وهو : « لا تفعلوا شيئا لا ترغبون فى عمله » وقد يبدو هذا الاقتراح غاية فى البساطة ولكنه فى الواقع يمس متاعبهم فى صميمها ، فلو استطاع المريض منهم أن يفعل ما يريده هو ، فلن يلوم أحدا غيره ، ولن يبقى أمامه مجال للانتقام من أحد ! .

« وقد يحدث أن يجيبنى المريض ، اذا طلبت اليه أن يفعل ما يريده بقوله : ليس هناك ما أريد أن أفعله » ، ولكننى أكون مستعدا لهذه الاجابة ، لطول ما سمعتها ، فأقول له : « اذن لا تفعل ما لا تريده » وأحيانا يقول لى المريض ، اذا سألته ماذا يريد : « أريد أن أمكث طوال الوقت فى فراشى لا أبرحه » واعلم أننى ان أقررت على الرغبة ، فسوف يتخلى عنها تمثيلا مع رغبتى فى السيطرة ، وان أنا انتقدت هذه الرغبة ، فسوف يقيم على حريا عوانا ، ولذلك أقره دائما على رغبتى ! وثمة خطة أخرى أهدف من ورائها الى تغيير مجرى حياة المريض مباشرة فأقول له : « انك تستطيع ان تبرأ فى خلال أسبوعين اذا جريت هذه الوصفة : حاول أن ترفه فى كل يوم عن شخص واحد » واستجابات المرضى لهذه النصيحة تستحق التأمل والنظر . فمن تائل يقول : « لقد فعلت هذا طيلة حياتى » وهو فى الحق لم يفعله بتاتا ! .. الى آخر يعد بأن يفكر فى الأمر ثم لا يفكر . وقد أقول لأحدهم : « يمكنك استغلال الوقت الذى تستغرقه فى استجلاب النوم فى التفكير فى أسعاد شخص ، وبهذا تتقدم سريعا نحو الشفاء » ثم حين ألقاه فى اليوم التالى أسأله : « هل فكرت فيما اقترحته عليك بالأمس ؟ » فيقول : « لقد استسلمت للنوم فى اللحظة التى لامست فيها الفراش . فلم يكن لدى الوقت للتفكير » !! وقد يجيب أحد المرضى بقوله : « لا أستطيع ان أفكر فى شيء من هذا ، فاننى شديد النلق » فأقول له :

« لا تكف عن القلق ، ولكن فكر بين الفينة والفينة في اسعاد شخص »
وقد يسألنى أحدهم : « لماذا اسعد الآخرين ؟ ان الآخرين
لا يحاولون اسعادى ! » . فأجيبه : « ان صحتك تتطلب ذلك .
وسوف يعانى الآخرون مثلما تعانى اذا لم يحاولوا اسعادك » وأنا
أبتغى من وراء هذا كله ان احول اهتمام مرضاى الى الغير ، فمتى
اندمج المريض في جماعته ، واصبح مع أفرادها على قدم المساواة
يعاونهم ويسانداهم ، فقد برىء ، وعندى ان أهم ما أوصى به الدين
هو حب الجار ومعاونتة . والشخص الذى يحجم عن معاونة غيره
خليق بأن تنصب عليه المتاعب والمشكلات . ان كل ما تتطلبه الحياة
من الفرد هو ان يكون عاملا منتجا ، محبا للناس ، فعلا في الحب
والزواج .

* * *

على ان « مسز وليم مون » — مديرة « مدرسة مون » لأعمال
السكرتارية بنيويورك — لم تحتاج الى أسبوعين لكى تبعد عن نفسها
الملاخوليا عن طريق اسعاد الآخرين ، بل انها لم تحتاج الا ليوم
واحد واليك تفصيل قصتها كما روتها لى :

« منذ خمسة اعوام ، اجتابنى احساس عنيف بالتعاسة والشقاء ،
فقد اختطف الموت زوجى بعد سنوات قلائل من زواجنا السعيد ،
وتزايدت تعاستى عندما اقتربت اجازة عيد الميلاد ، فلم أكن قد
قضيت من قبل اجازة عيد ميلاد ، جيدة . وقد دعانى بعض الأصدقاء
لقضاء عيد الميلاد معهم ، ولكنى لم أكن أستشعر للعيد بهجة ،
وخلت أننى ساكون عبئا ثقيلاً عليهم ، ومن ثم رفضت الدعوة .

« وفى اليوم السابق لليلة الميلاد رانت على الكأبة ، وثقلت وطأة
الهم ، فخرجت فى الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم من مكتبى بالمدرسة ،
ورحت اضرب فى الشارع الخامس على غير هدى ، مؤملة ان أوفق
فى اقصاء شئ من تعاستى . وكان الشارع يفيض بالجماهير الفرحة
المستبشرة ، وبالوان الزينة والحفاوة بالعيد ، التى أعادت الى ذهنى

ذكرى الأيام السعيدة الخالية . وشق على أن أعود الى مسكنى وأخلو فيه لنفسى ، وأحاطت بى الحيرة ، فلم أدر ماذا أفعل ولم أنمالك دموعى التى راحت تغمر عينى ، وتفيض على وجنتى وبعد ساعة أو نحوها وجدت نفسى فى مواجهة موقف « الأتوبيس » ، وذكرت اننى وزوجى طالما استهوانا ركوب « الأتوبيس » دون أن تعلم بوجهته اجتلابا للمرح والسرور فركبت اول « اوتوبيس » صادفنى ، فلما عبر بى نهر « الهدسون » ، سمعت السائق يقول : « هذه هى نهاية المطاف يا سيدتى » ولم أعرف حتى اسم البلدة التى انتهت إليها ، ولكنى ألقيتها آمنة هادئة . وبينما انا أنتظر قدوم « الأتوبيس » النالى ليعود بى الى بيتى ، خطر لى أن اتجول بعض الوقت فى شوارع البلدة . ومررت فى طريقى بكنيسة ، وطرقت سمعى تراتيل عيد الميلاد المنبعثة منها ، فدلقت إليها . وألقيتها عامرة بالناس ، فأتخذت مكانى فى الصف الأخير دون أن يلحتنى أحد . وكانت الأضواء الملونة المنبعثة من شجرة عيد الميلاد تشرق وتلمع كالنجوم السابحة فى سنا القمر . وكأنما تضافر سحر الموسيقى الهادئة ، والتراتيل الخائفة ، والجوع الشديد الذى كنت أحسه — إذ لم أكن تناولت سوى وجبة الافطار — على بث الاعياء فى أوصالى ، وغلبنى النعاس ، فنمت .

« وعندما استيقظت لم أدر أين انا .. ووجدت أمامى طفلا وطفلة أتيا ولا ريب لمشاهدة شجرة عيد الميلاد ، وسمعت الطفلة تقول لأخيها وهى تشير الى : « أترى بابا نويل ، أهو الذى أحضر هذه السيدة ؟ » وتملك الخوف الطفلين عندما استيقظت، ولكنى طيبت خاطرهما ، ولاحظت أنهما يلبسان ثيابا رثة فسألتهما عن والديهما أين هما فقالا : « ليس لنا والدان ! » والحق اننى خجلت ساعتئذ مما كنت أحسه من شقاء ! وأخذت بيدهما ، فاشتريت لهما بعض الحلوى والهدايا .. ولشدة ما دهشت إذ وجدت أن احساسى بالوحدة والشقاء قد تبخر . لقد وهبنى هذان اليتيمان السعادة التى فقدتها منذ أشهر ، ولم

يسعنى الا احمد الله على ان رعى طفولتى ، واعاد على اعياد الميلاد فى صباى ، فى حمى والدين شفوقين رحيمين ! . لقد أسدى الى هذان اليتيمان فى ذلك اليوم اكثر ما أسديته لهما ، وعلمتنى هذه التجربة ان السعادة اخذ وعطاء ، فاذا اعطينا السعادة اعطيناها .

* * *

وانى ليسعنى ان املا كتابا كاملا بخص اناس نسوا انفسهم فاكثبوا الصحة ، والسعادة ، والاطمئنان ، ولاضرب لك مثلا « مارجزيت تايلريبتس » احدى شهرات النساء فى امريكا . و « مسز بيتس » كاتبه روائية ، ولكن واحدة من رواياتها المتعة لا تعادل فى روعتها تلك القصة الحقيقية التى حدثت وقائعها لها يوم اغار اليابانيون على « بير هاربور » . كانت « مسز بيتس » مريضة بداء القلب منذ سنتين ، وكانت تلازم فراشها اثنتين وعشرين ساعة كل اربع وعشرين ساعة ، وكانت اطول مسافة يسعها ان تقطعها سيرا على قدميها لا تزيد على محيط حديقتها الصغيرة ، وحتى فى اثناء هذه « الرحلة » القصيرة كان يتحتم عليها ان تستند الى ذراع وصيفتها . قالت لى « مسز بيتس » انها كانت خليفة بان تقضى ما بقى من حياتها ملازمة لفراشها ، لولا ان اغار اليابانيون على « بيرل هاربور » ! ولندعها تروى القصة بنفسها :

« عندما وقعت الاغارة على « بيرل هاربور » . استحال الامر فى بلدتنا الى فوضى واضطراب لا نهاية لهما ، وانفجرت احدى قنابل اليابانيين بالقرب من بيتى فألقتنى قوة الانفجار من فراشى! واسرعت بسيارات الجيش تخرج من معسكرى « هيكام » و « سكوفيلد » ، ومطار « خليج كانو » تحمل زوجات رجال الجيش والبحرية واطفالهم الى المدارس العامة بعيدا عن الخطر واتصل « الصليب الاحمر » بكل من لديه مكان خال ليؤوى بعضا من هؤلاء الزوجات والاطفال . وكان رجال الصليب الاحمر يعلمون ان فى بيتى آلة تليفون ، فانفقوا معى على ان اجعل من

بيتي ما يشبه مكتبا للاستعلامات .. وأطلعونى على أماكن زوجات وأطفال رجال الجيش والبحرية ، وطلبوا الى ان أطلع عائلتهم على أماكن اقامتهم . ولم البث ان علمت ان زوجى « الكوماندر روبرت رالى بيتس » سليم معافى فحاولت ان أسرى عن الزوجات اللائى لم يعرفن هل سلم أزواجهن أم لاقوا هنتهم ، كما رحلت أواسى أولئك اللواتى فقدن أزواجهن . وكن كثيرات .. فقد جاء فى التقارير الرسمية عن هذه الاغارة ان ٢١١٧ ضابطا وجنديا فى البحرية والجيش قتلوا ، و ٩٦٠ رجلا عدوا مفقودين ! وكنت فى مبدأ الأمر أجيب عن المحادثات التليفونية التى انهالت على وأنا مستلقية فى فراشى ، ثم رحلت أجيب عنها وأنا جالسة فى الفراش ، وأخيرا زحمتى العمل ، وشملنى التأثير حتى اننى نسيت مرضى بتاتا ، ونهضت من فراشى . ومن يومئذ لم أعود الى الفراش قط الا فى موعد النوم كغيرى من الاصحاء ! .. اننى ادرك الآن انه لو لم يهاجم اليابانيون « بيرل هاربور » لكن الأرجح ان امضى ما تبقى من عمري طريحة الفراش .. ولقد كنت وأنا فى فراشى ، انعم بالراحة طبعاً ، والقى كل اهتمام ورعاية من الآخرين ، ولكنى ادرك اليوم اننى لهذا كنت أفقد رويدا مقدرتى على الاهتمام بنفسى .

« ولقد كانت مأساة « بيرل هاربور » من أشد المآسى فجيرة فى تاريخ أمريكا ، ولكنها بالنسبة لى ، كانت نعمة من أفضل النعم ، فقد أمدتنى بقوة لم أحلم بمثلها قط ، وحولت انشغالى بنفسى الى انشغال بالآخرين ، فلم يعد لدى وقت لأفكر فى نفسى أو حتى لأهتم بها » .

ان تلك أولئك الذين يهرعون الى عيادات الاطباء النفسيين يسعهم ، على الأرجح ، ان يشفوا أنفسهم بأنفسهم الى الانشغال بالآخرين . اترانى أتيت بهذه الفكرة من جعبة ذكرياتى ؟ بل انها أشبه بما يقوله العالم النفسانى « كارل يونج » :

« ان تلك عدد مرضاى لا يشكون من أمراض نفسية معلومة

محددة ، بقدر ما يشكون من « فراغ حياتهم » وظلوا من البهجة والمتعة .

ولعلك الآن ، أيها القارئ ، تقول لنفسك . « حسنا . ان هذه القصص لا تمسنى فى قليل أو كثير ، فلو اننى التقيت بيتيمتين ليلة عيد الميلاد ، أو لو اننى كنت فى « بيرل هاربور » يوم الاغارة عليها ، لفعلت عن طيب خاطر مثلما فعلت « مسز مون » و « مسز بيتس » ، ولكن الأمر معى يختلف فأنا أحيا حياة متشابهة ، كل يوم فيها كأي يوم سواه ، ولا شئ فيها يمكن أن يسلك فى باب المأسى أو الفواجع ، فكيف يسعنى أن أسعد الآخرين وأخذ بيدهم ؟ ولماذا ؟ وما الذى يعود على من وراء ذلك ؟ » .

الحق أنه سؤال فى موضعه ، واليك الجواب عنه : مهما تكن حياتك متشابهة متشاكلة الايام ، فانك على التحقيق تقابل «ناسا» كل يوم فما الذى تفعله معهم ؟ .. خذ ساعى البريد مثلا ، انه يقطع مئات الأميال كل يوم حاملا اليك بريدك ، فهل تكلفت يوما عناء البحث عن مسكنه لترى كيف يعيش ؟ وهل سألته مرة أن يطلعك على صور اولاده ، ليشعر بالسرور والزهو ؟ وهل سألته ان كانت قدماه قد كلتا من السعى ، أو ان الملل داخله من عمله المتشابه ؟

وقل مثل هذا القول عن صبى البقال ، وبائع الصحف ، وماسح الأحذية .. هؤلاء آدميون تثقل عليهم ، ولا ريب ، الهموم والمشكلات ، وتراودهم الأحلام والآمال ، وهم بلا شك ، يتحرقون لهفة الى أن يشاركهم الناس حمل همومهم ويشاطرونهم آمالهم ، فهل حققت لهم شيئا من هذه الرغبة ، وهل أبدت اهتمامك يوما بحياتهم الخاصة ؟ هذا هو ما عنى .. ليس عليك أن تصبح « فلورنس تيتنجيل » ولا أن تغدو مصلحا اجتماعيا لكى تساهم فى تحسين أحوال الناس .. أبدا بمن تقابلهم كل يوم .

ثم تسألني : وما جدوى ذلك كله ؟ جدواه السعادة والرضا ، واكتساب الثقة بنفسك . وقد كان أرسطو يسمي هذا الضرب من معاونة الناس « الانانية المستنيرة » وقد قال «زورد ستار» : « ان معاونة الناس ليست واجبا محتوما . ولكنها متعة تزيدك صحة وسعادة » وقال « بنجامين فرانكلين » : « عندما تسعد الناس تسعد نفسك » .

وكتب « هنرى س . . لنك » مدير مكتب الخدمات السيكولوجية بنيويورك . يقول : « ان السعادة لا تتأتى الا عن طريق انكار الذات ورياضتها على التضحية » . واعلم ان الانشغال بالناس لن يجديك خلاصا من القلق وحسب ، ولكنه سيعينك أيضا على اكتساب أصدقاء جدد والاستمتاع بأوفر قسط من المتعة .

تسأل : كيف ؟ لقد سألت مرة « وليم ليون فيلبس » الأستاذ بجامعة « ييل » هذا السؤال نفسه ، فأجاب :

« اننى لا اذهب قط الى فندق أو دكان حلاق ، أو حانوت يقال ، دون أن أقول شيئا سارا لكل من القاه . شيئا يمس الشخص بوصفه شخصا لا مسمارا فى آلة تدور ! وأحيانا أجامل الفتاة التى تبغنى حاجتى فى أحد المحال بامتداح هندامها واطراء طريقتها فى تنسيق شعرها . وفى احيان أخرى أسأل الحلاق : الا يمل الوقوف على قدميه طول النهار ؟ ثم أستفسره كيف . لماذا اختار الحلاقة مهنة ، وكم من الزمن مضى عليه وهو يزاولها ، وكم « راسا » مرت بين يديه منذ بدء اشتغاله ، وأعاونه على العد والاحصاء ! . وقد وجدت أن ابداء الاهتمام بالناس يجعل وجوههم تشع بالسعادة ، وقلوبهم تخفق بالسرور . اذكر اننى فى ذات يوم كان شديد القئظ ، دلفت الى مركبة الطعام فى أحد قطارات « شركة نيوهافن للسكك الحديدية » لتناول الغذاء . . وكانت المركبة المزدحمة تكاد تشتعل من فرط الحرارة . . ورايت أن توزيع الطعام علم ، طالبيه يجرى متباظنا متوانيا . فلما جاعنى

الخدّام ليتلقى طلباتى ، قلت له : « لا شك أن الطهارة اليوم يعانون
الأميرين من وطأة الحر ولفحة النار في المواعد » . وبدأ الخدّام
يسبب ويلعن ، حتى لاح لى كأننى أثرت غضبه ، وأخيرا هتف :
« يا الهى » لقد ظللت خادما في هذه المركبة تسعة عشر عاما سويا ،
ورأيت فيها الراكبين يأتون الى هنا فيشكون من رداءة الطعام ،
ومن توانى الخدمة ، ويسخطون على الحر الشديد ، ولكننى لم أر
من سبقك الى اظهار عطفه على الطهارة المساكين ، الذين تكاد
تصهرهم حرارة الجو ووقدة النار في المواعد . أسأل الله يا سيدى
أن يكثر من أمثالك « نعم لقد دهش الخادم لآنى نظرت الى الطهارة
على أنهم آدميون ، لا مجرد « تروس » تافهة في منظمة السكك
الحديدية . أن ما يبتغيه الانسان هو اهتمام الناس به بوصفه
شخصا . وأنا اذ القى في الطريق رجلا يجركلبا جميلا ، أبدى
اعجابى بجمال الكلب ، فاذا جاوزت الرجل وادرت نظرى اليه
خلسة رأيتة يربت بحنو على ظهر كلبه ، أو يقبله ، فاننى حين
امتدح الكلب أنها امتدح ذوق الرجل ، وتوفيقه في الاختيار ! .

« وقابلت يوما ، وأنا في انجلترا . راعيا ، فأبدت اعجابى
بالكلب الذى اتخذه لحراسة ماشيته ، وسألته أن يقص على كيف
درب كلبه على الحراسة . فلما انصرفت ، أرسلت نظرى خلسة
الى الرجل ، فوجدته يحمل كلبه على كتفه . ويداعيه ويربت على
ظهره ، لقد وسعنى يومئذ أن أدخل السرور على الراعى ، وعلى
الكلب ، وعلى نفسى ! » .

فهل تصور أن رجلا مثل « وليم فيلبس » يوزع محبته على
الناس ذات اليمين وذات الشمال ، يمكن أن ينتابه القلق ، أو
يحتاج يوما الى معونة تقدم اليه من شخص تافه مثلى ؟ كلا على
التحقيق ! فلماذا لا تكون مثله ؟ .

اذا كنت ايها القارىء ، من الجنس الخشن . فأرح نفسك من
قراءة القصة التالية ، انها لا تهيك في شىء ، فهى قصة فتاة شقية
الجات، عددا كبيرا من الرجال الى التقدم لطلب يدها ! وقد أصبحت

تلك الفتاة اليوم جدة ، وقد أمضيت ليلة في ضيافتها وضيافة زوجها منذ بضعة أعوام خلت .

كنت مدعوا لالقاء محاضرة في البلدة التي تعيش فيها ، وفي الصباح التالي حملتني بسيارتها خمسين ميلا لأدرك القطار العائد الى نيويورك . . وفي خلال تلك الرحلة اتصل بيننا الحديث عن اكتساب الأصدقاء ، فقالت لي : أود يا مستر كارنيجي أن أفضي اليك بشيء لم أفض به الى سواك ، حتى ولا لزوجي « (أعود فأحذر الجنس الخشن من القراءة ، لأن هذه القصة لن تلد لهم كما يقدررون !) لقد حدثتني بأنها نشأت في عائلة في فيلادلفيا أفتها الكبرى هي الفتر المدقع . قالت : « كانت مأساة صباى وشبابى هي الفقر الذى يخيم علينا . فما كان يسعنى أن أرفه عن نفسى ، كما تفعل لداتى في البيئة التي أعيش فيها . ولم تكن ثيابى قط من القماش الجديد ، لا ، ولا كانت تساير « الموضة » الشائعة . ومن هنا ضربت على الذلة ، وتملكنى الخجل ، حتى اننى كنت أدع دموعى تسيل ، كلما أويت الى فراشى . وأخيرا ، وفي غمرة يأسى خطر لى أن أداب على سؤال أى شخص تضمنى واياها مائدة واحدة ، عن نفسه ، وعن تجاربه ، وآرائه ومشروعاته في المستقبل ، وما كنت أبغى من وراء هذه الأسئلة ابداء الاهتمام بمحدثى ، وانما أردت أن أحول بينه وبين التفرس في ثيابى المتواضعة ! ثم حدث شيء عجيب : فاننى لطول ما استمعت الى أقوال محدثى الكثيرين ، اعتدت الاهتمام بما يقولون ، فكنت أستغرق في الاستماع اليهم ، حتى أنسى ، أنا نفسى ، ثيابى ومدى تواضعها . . ولكن أعجب العجب هو هذا : لقد اشتهر عنى اننى « مستمعة طيبة » ، أشجع محدثى على الحديث عن أنفسهم لامتعمهم بالسعادة ، وأدخل على قلوبهم السرور . . ومن ثم أصبحت ، على مر الأيام ، أشهر فتاة في المحيط الذى أعيش فيه ، وتهافت الشباب على طلب يدى ! » .

هل سمعتم أيتها الفتيات ؟ ! تلك طريقة ناجحة لإصطياد الأزواج فعليكن بتجربتها !

واخال الكثيرين ممن يقرأون هذا الفصل سيقولون لأنفسهم
« هذا الحديث عن الاهتمام بالناس ، واسعادهم ، ان هو الا
حديث سخافة ان هو الا وعظ ديني متنكر . لا ياعم ! يفتح الله !
انا اولا ، وليذهب الآخرون الى الجحيم » .

ان كان هذا رأيك فليكن . ولكنك ان حسبت انك مصيب .
فكانها تزعم ان كل الانبياء ، والفلاسفة ، الذين تعاقبوا على مر
العصور — كالسيح ، وكونفشيوس ، وبوذا ، وأفلاطون ،
وارسطو ، وسقراط ، وسانت فرانسيس — كانوا مخطئين .
وعلى اية حال ، ان كنت تنأى عن تعاليم الانبياء والمصلحين
الدينيين ، فتعال نسأل النصيحة اثنين من الملحدين . ودعنا نبدأ
بالاستاذ « هوسمان » بجامعة كامبردج ، لقد التقى في عام ١٩٣٦
محاضرة في جامعة كامبردج عنوانها « الشعر : اسمه وطبيعته » ،
قال فيها : « لعل أعظم الحقائق التي وردت على لسان انسان ،
هى التى انطوى عليها قول السيد المسيح : « من وجد حياته
يضيعها ، ومن اضاع حياته من أجلى وجدها » .

نعم ، لقد سمعنا واعظا كثيرين يقولون مثل هذا القول ولكن
« هوسمان » ليس واعظا ، وانما هو ملحد ، متشائم ، فكر في
الانتحار أكثر من مرة ، وبرغم ذلك كله ، فقد أحس ان الرجل
الذى يقصر تنكيره على نفسه ، لا ينال من الحياة شيئا يذكر ، بل
أحرى به ان يكون شقيا تمسا ، أما الرجل الذى ينسى نفسه في
معاونة غيره فيصيب متعة العيش .

فاذا لم يكن لقول « هوسمان » تأثير عليك ، فلنسأل النصيحة
اعظم ملحد أمريكي في القرن العشرين ، وأعنى به « ثيو دور
دريزر » . لقد سخر « دريزر » من الأديان جميعها ، ووصفها بأنها
أساطير الأولين ، وقصص من نسيج الخيال ، وقال عن الحياة
« انها قصة يرويها أبله ، لا مفرى لها ، ولا معنى » . ولكن
« دريزر » برغم ذلك يقول : « اذا شاء الرجل أن يستخلص من

الحياة المتعة ، فعليه أن يساهم في اجتلاب المتعة للآخرين . فان
متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ، ومتعة الآخرين تعتمد
على متعته » .

فاذا اردنا ان نجتلب المتعة للآخرين — كما يقول « دريزر »
— فالأخلق بنا ان نعجل ، فان الوقت يمر . . ولن يمر أحدنا من
هذا الطريق — طريق الحياة — سوى مرة واحدة .

واذن ، فاذا أردت أن تقصى عنك القلق ، وتكسب الطمأنينة
والسعادة ، فاتبع القاعدة رقم ٧ :

انس نفسك وصب اهتمامك على الآخرين . اصنع في كل يوم
عملا طيبا يرسم الابتسامة على وجه انسان .

الجزء الرابع في سطور

سبع طرق تعينك على اتخاذ اتجاه ذهني

القاعدة رقم ١ :

فلنعمر أذهاننا بخواطر الطمأنينة والشجاعة ، والصحة .

القاعدة رقم ٢ :

فلنتجنب القصاص من أعدائنا ، لأننا ان فعلنا آذينا
انفسنا أكثر مما نؤذي أعدائنا .

القاعدة رقم ٣ :

(أ) بدلا من ان نفكر في الجحود دعنا نسلم به

(ب) ليست السعادة في توقع الشكر على ما بذلناه ،
وانما في البذل ذاته .

(ج) الشكر غرس يروى ويتعهد بالسقي ، لكي ينمو
ويتعرعر .

القاعدة رقم ٤ :

احص نعم الله عليك .

القاعدة رقم ٥ :

الأخلق بنا الا نتشبه بأحد ، فان التشبه انتحار .

القاعدة رقم ٦ :

اجتهد ان تصنع من الليمونة المالحه شرابا سائفا .

القاعدة رقم ٧ :

فلننس انفسنا ، ولنحاول ان نوفر السعادة لغيرنا .

الجزء الخامس

القاعدة الذهبية لقهر القلق

الفصل التاسع عشر

كيف قهر أبى وأمى القلق

أسلفت اننى نشأت فى إحدى مزارع ميسورى ، وأن والدى — شأنهما شأن معظم المزارعين فى ذلك الوقت — كانا يعيشان عيشة بسيطة متواضعة . كانت والدتى ناظرة مدرسة ريفية ، وكان أبى مزارعا أجيرا يتقاضى اثنى عشر دولارا فى الشهر ، فاضطرت أمى ، لكى تدبر نفقات معاشنا ، أن تصنع لى ثيابى بنفسها ، بل أن تصنع كذلك الصابون الذى نغتسل به ، ونغسل ثيابنا .

وقلما كنا نتعامل بالنقود ، بل كنا نستبدل بالزبد والبيض حاجتنا من الدقيق ، والسكر ، والبن ، وغيرها . والى أن بلغت الثانية عشرة ، لم يكن مجموع ما أنفقه فى العام كله يزيد على خمسين سنتا (أى نحو ستة عشر قرشا) . فلما ذهبت الى المدرسة، كنت أقطع فى اليوم ميلا بأكمله سيرا على قدمى ، ولا يحول دون هذه الرحلة اليومية تراكم الجليد ، أو هبوط درجة الحرارة الى الثامنة والعشرين تحت الصفر . وحين بلغت الرابعة عشر ، بدأت أستغنى عن الجوارب ، فكنت فى خلال أشهر الشتاء أحس كأن قدمى قدتا من الثلج ، ولم يكن يخطر لى قط أن هناك من ينعم بقدمين دافئتين فى الشتاء ! .

وكان والدنا يعملان جاهدين . كالعبيد المسخرين ، ست عشرة ساعة فى اليوم ، وبرغم ذلك فقد كان يثقلنا الدين ، ويحالفنا سوء الطالع على الدوام . ولقد دأبت الفيضانات المتعاقبة على اغراق محصولتنا ، وتحالف مع الفيضانات المتوالية وباء الكوليرا،

الذى كان يفتك بماشيتنا هاما بعد عام . وى نحدى السنين رحمنا
الفيضان من شره ، فنها غرسنا من القمح واشتدت أعواده ،
وأطمعنا الماشية حتى سمئت واكتنز لحمها ، ولكن سوء الطالع
كان لنا بالمرصاد ، فقد كسدت سوق الماشية فى شيكاغو ، ولم
يعد بيعها علينا بأكثر من ثلاثين دولارا مكسبا صافيا ! نعم . كانت
هذه الثلاثون دولارا ثمرة عام كامل من التعب ، والنصب ،
والاجهاد ! .

ويعد أيام طويلة من المجهود المضنى ، والعمل الشاق ، الفينا
انفسنا لا معدمين فحسب ، بل مرهقين بالديون الفادحة ايضا ،
وانتهى الأمر بأن رهنت مزرعتنا . ولقد طالما أذاقنا المصرف ،
الرهونة لدية أرضنا ، صنوفا من الهوان ، وفنونا من الاذلال ،
وطالما هددنا بانتزاع ملكية الأرض التى هى مورد رزقنا الوحيد ،
وكان أبى اذ ذاك فى السابعة والأربعين من عمره ، وقد قضى فى
العمل المضنى أكثر من ثلاثين عاما ، فلما انتهى به الأمر الى
الدين ، والهوان ، وقع فريسة القلق وانهارت صحته ، وفقد شهيته
للطعام ، وتناقص وزنه ، وأثاب الطبيب والدتى أن أبى فقد الرغبة
فى مواصلة الحياة ، وكثيرا ما سمعت والدتى تقول — اذا تأخر
أبى عن موعد عودته — انها تشفق أن تسمى اليه فتجد جثته
متدلية من طرف جبل غليظ ! وفى ذات يوم جدد المصرف وعيدة لأبى ،
بانتزاع مزرعتنا ، فلما مر أبى فى طريق عودته الى البيت بجسر
فوق النهر الثانى بعد المائة ، أوقف عربته وترجل ، ووقف ذاهلا
شاردا ، يتأمل مياه النهر المنسابة تحته . وكأنها يهم بأن يلقى
نفسه بين أحضانها فيضع حدا لتعابه ومشكلاته . . ولكن الشئ
الوحيد الذى حال بينه وبين القاء نفسه فى اليم ، كما حدثنى أبى
بعد ذلك بأعوام ، هو اعتقاده الراسخ بأن الله سبحانه وتعالى
لا بد متبع العسر يسرا .

وكان أبى على صواب . فقد جاء الفرج بعد الكرب ، وعاش
أبى ، من بعد ذلك ، فى رغد من العيش مدى اثنين وأربعين عاما

الى أن مات في عام ١٩٤١ وهو في التاسعة والثمانين من عمره ، ولم تكن أمى خلال سنى الكساح تطلق قط ، بل كانت تداوى متاعبها بالصلاة والتعبد . واذكر أن أحب آيات الكتاب المقدس لدى أمى وأبى كانت قول المسيح عليه السلام « في بيت أبى منازل كثيرة أنا امضى لأعد لكم مكانا .. حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا » (يوحنا ١٤ من ١ الى ٥) فكان أبى وأمى يتلوان هذه الآية ، ثم يركعان ويبتهلان الى الله أن يهبنا رحمته ويشملنا برعايته .

قال وليم جيمس ! وقد كان استاذا للفلسفة بجامعة هارفارد: « ان أعظم علاج للقلق ، ولا شك ، هو الايمان » .

ولا يتحتم أن تتعلم في « هارفارد » لتدرك هذه الحقيقة ، فقد أدركها والدائ في بيئتها الريفى المتواضع ، فما استقطعت الفيضانات ولا الديون ، ولا النوازل أن تنال من روحها القوية ، المستبشرة ، الظاهرة ، ويسعنى الآن أن أستمع فيتردد في أذنى صوت أمى وهى تنزّم بالأغنية التالية ، وهى تدبر شطون المنزل:

الأمان ، الأمان .. يالروعة الأمان
اذ يسكب في نفوسنا الرحيم الرحمن
اليك اللهم ادعو أن تحيطنى بالأمان
فياضا ، غامرا ، تملأ القلب والجنان

وكانت مشيئة والدتى أن أكرس حياتى لخدمة الدين وكثيرا ما فكرت جديا في أن أصبح مبشرا في بلد أجنبى ، ولكنى حين ذهبت الى الجامعة ، طرأ على تغير كبير ، فقد درست علم الأحياء ، والعلوم المختلفة ، والفلسفة والاديان المقارنة ، وقرأت كتبا كثيرة في تفسير الكتاب المقدس فبدات أشك في الكثير مما اكده الانجيل . ورحت أرتاب في العقائد المتزمنة التى يعظنا بها وعاظ الريف ، وتنازعتنى الحيرة ، واصبحت — على حد قول « والترهوتيمان » — « شغوفنا بالتقى والاستطلاع ، تتراحم في

دخيلتى أسئلة لا حصر لها « لم ادر ماذا اصدق وبأى شىء أوؤمن ، ولم ار فائدة ترجى من الحياة ، فكففت عن الصلاة والعبادة ، وأوشكت أن اكون جاحدا ملحدا ، يرى الحياة تسير بلا غاية والى غير مقصد ، واحسب البشر مجردين من الأهداف السامية . مثلهم مثل حيوانات « الدينوسور » العملاقة التى كانت تجوب الأرض منذ مائتى مليون سنة ، وأن النوع الانسانى مصيره الى انقراض يشبه انقراض حيوان « الدينوسور » .

عرفت من دراستى أن الشمس تفقد حرارتها رويدا ، وأنها متى فقدت مقدار عشرة فى المائة من حرارتها هلك كل كائن حى على وجه الأرض ، فرحت أهزا بفكرة وجود اله قادر رحيم أوجد السموات والأرض ، وخلق الانسان ، وركب فيه الفضائل ، وزوده بالأخلاق القويمة ، وكدت اصدق أن السموات والأرض ، بل الكون بما فيه من بلايين الشمس والكواكب الدوارة فى الفضاء المظلم المعتم ، انما خلقتها قوة غاشمة عمياء ، أو لعلها لم تخلق خلقا ، وانما وجدت وجودا ازليا كوجود الزمان ، والمكان .

افترانى توصلت الآن الى حلول لتلك الأسئلة ، وشفاء لتلك الريب والشكوك التى تنازعتنى فى صباى؟ كلا ! فما من أحد وسعه أن يفسر لغز الكون ، وسر الحياة ، فما نحن الا محوطين بالالغاز والأسرار من كل جانب ، فألية جسدك سر من الأسرار — وكذلك الكهرياء التى تستضىء بها فى بيتك ، والأزهار التى تزين حديقتك ، وللخضرة التى تتطلع اليها من نافذتك : بل لقد رصد « تشارلس كيثرنج » — المهندس العبقري المشرف على معامل أبحاث شركة « جنرال موتورز » ثلاثين ألف دولار سنويا ، من جيبه الخاص ، « لكلية انطاكية » Antioch College عساها أن توفى الى معرفة سر اخضرار الزرع ! وقد صرح بقوله اننا اذا عرفنا كيف يحول الزرع ، ضوء الشمس والماء وثانى اكسيد الكربون الى سكر يتغذى به ، لوسعنا أن نغير وجه المدينة تغييرا شاملا غير أن جهلنا بأسرار أجسامنا ، ومظاهر الكون المحيطة بنا ، يمنعنا من استخدامها

والاستمتاع بها . ولم يعد جهلى بأسرار الدين يمنعى من الاستمتاع بالحياة الروحية السامية التى يهبئها لى الدين ، فقد وعيت آخر الأمر حكمة « سانتايانا » البليغة : « لم يخلق الانسان فى الحياة ليفهمها وانما خلق ليحياها ! » .

لقد عدت الآن . . كنت على وشك أن أقول اننى « عدت » الى الدين . . ولكن هذا التعبير لا ينطبق فى الواقع على حقيقة ما حدث والأصح أن أقول اننى « اتخذت » نظرة جديدة الى الدين . فلم تعد تهمنى الخلافات التى تفرق المسيحيين شيعا ومذاهب ، وانما يهمنى الآن ما يسديه الى الدين من نعم ، تماما كما يهمنى النعم التى تسديها الى الكهرياء ، والغذاء الجيد ، والماء النقى ، فهذه تعيننى على أن احياة حياة رغبة ، ولكن الدين يسدى الى أكثر من هذا ، انه يمدنى بالمتعة الروحية ، أو هو يمدنى — على حد قول وليم جيمس — « بدافع قوى لمواصلة الحياة الحافلة ، الرحبة السعيدة ، الراضية » . انه يمدنى بالامان والأمل ، والشجاعة ، ويقضى على المخاوف والاكتئاب والقلق ، ويزودنى بأهداف وغايات فى الحياة . ويفسح أمامى آفاق السعادة ، ويعيننى على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتى .

لقد كان الفيلسوف « فرانسيز بيكون » على حق حين قال : « ان قليلا من الفلسفة يجنح بالعتل الى الإلحاد ، ولكن التعمق فى الفلسفة خلىق بأن يعود بالمرء الى الدين » .

* * *

وانى لأذكر الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى الى غير رجعة ، فان أحدث العلوم — وهو الطب النفسى — يبشر بمبادئ الدين . ماذا؟ لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى ، والاستمسك بالدين . والصلاة ، كهيئة بأن تقهر القلق ، والمخاوف ، والتوتر العصبى، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى نشكوها . نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك . وقد قال تائلهم الدكتور « ا . ا . بريل »:

« ان المرء المتدين حقا لا يعانى قط مرضا نفسيا » .

لقيت « هنرى نورد » قبل وفاته ، فتوقعت ان ارى عليه سيماه رجل منهوك القوى من فرط الجهد الذى بذله فى انشاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات فى العالم . غير انى فوجئت حين وجدته غاية فى الرزانة والهدوء ، وآية فى الاتزان والاطمئنان برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره . فلما سألته هل عانى من القلق شيئا ؟ اجاب : « كلا فانى اعتقد ان الله ، سبحانه ، تقدير على تصريف الأمور ، وأنه تعالى ، فى غير حاجة الى نصيحة منى ، ولهذا فأنا اترك له تصريف أمورى بحكمته جل وعلا ، فعلا ما اذا يتولانى القلق ؟ » وعندى ، ان اطباء النفس ليسوا الا وعاظا من نوع جديد . فهم لا يحرضوننا على الاستمساك بالدين توقيعا لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وانما يوصوننا بالدين توقيعا للجحيم المنصوص فى هذه الحياة الدنيا . جحيم ترحات المعدة ، والانهار العصبى ، والجنون . واذا شئت امثلة على ما يعظ به علماء النفس واطباؤها ، فالأفضل ان تقرأ مؤلف الدكتور « هنرى س . لك » « العودة الى الدين » (١) .

اسلفت فيما سبق ان المحكمين الذين اخترتهم ليفصلوا فى القمص الواقعية التى روى فيها كاتبوها كيف قهروا القلق ، وجدوا عناء كبيرا فى المفاضلة بين قصتين رائعتين ، فقسمت الجائزة المخصصة لأحسن قصة بين هاتين القصتين مناصفة . اما القصة الاولى فقد سبق ذكرها ، واليك القصة الثانية . . انها « لا تستطيع العيش بغير الدين » . وسوف اطلق على هذه المرأة تروى تجربة عانتها امرأة لقيت الأمرين قبل ان تهتدى الى انها اسم « مارى كوشمان » ولو ان هذا ليس اسمها الحقيقى ، فان لها ابناء وأحفادا قد يسوءهم ان يروا قصتها مذاعة على الناس . . واليك القصة :

(١) H enry S. Link. "The Return to Religion".

« في أشد أوقات الأزمة الاقتصادية حرجا ، كان زوجى يتقاضى ثمانية عشر دولارا في الأسبوع . وكثيرا ما كنا نحرم من هذا الراتب على ضآلته لتغيب زوجى عن العمل بسبب مرضه . ولم نلبث أن فقدنا البيت الصغير الذى شيدهنا بأيدينا ، وأصبحنا ندين للبقال بمبلغ خمسين دولارا . وكان لنا خمسة أبناء ننفق على غذائهم وكسائهم ، فاشتغلت بغسل الثياب لجيراننا ، واعتدت أن أشتري الثياب المستعملة لأكسوا بها أبنائى . وانتابنى في تلك الفترة المرض فضلا عن القلق . وفي ذات يوم ، اتهم البقال — الذى ندين له بخمسين دولارا — ابنى البالغ من العمر أحد عشر عاما بسرقة قلمين من الأقلام الرصاصية . وأنهى الى ولدى خبر هذه التهمة وهو يبكى الما . وكنت أعلم أن ولدى أمين ، مرهف الاحساس ، وان التهمة أذلته أمام الناس وجرحت كبريائه . فكانت تلك الحادثة بمثابة القشة التى قصمت ظهر الجمل ، ورحت افكر فى الشقاء المرير الذى نعانيه دون بارقة أمل فى تحسن الاحوال . ولا اشك فى اننى انتابنى من فرط القلق جنون مؤقت ، حدا بى الى فعل ما فعلت . . فقد تممت الى نوافذ غرفة النوم فأغلقتها ، واحكمت سد أعقابها ، وسألتنى ابنتى الصغيرة وهى ترقبى : « ماذا تفعلين يا اماه ؟ » فقلت لها : « هناك تيار هوائى أريد أن أمنعه » . ثم فتحت صنابير الغاز بالموقد . . واذ رقدت ، وأرقدت جوارى ابنتى الطفلة — وكنا فى ضحى النهار — الفيتها تقول لى : « اليس هذا عجيبا يا اماه ؟ اننا لم نستيقظ من النوم الا من وقت قصر ! » فقلت لها : « لا بأس من اغفاءة قصيرة » . وأغمضت عيني وأنا أسمع حفيف الغاز ينساب من صنوبر الموقد ، واحسه يملأ خياشيمى . بالله ! . اننى لن انسى ما حييت رائحة الغاز ! . وفجأة احسست كأنى أسمع شيئا من الموسيقى ، وانصت لقد غاب عنى أن اطفئ « الراديو » الموضوع فى المطبخ . فقلت فى نفسى : لا بأس من ذلك ولا ضرر . غير اننى لم البث أن سمعت صوتا ينبعث من جهاز « الراديو » يترنم بهذه الكلمات .

« يا له من صديق عيسى المسيح ،
يمسح عنا حزننا وأسانا ،
« ما أجمل أن ننهي بلسان فصيح ،
« الى الله ، في صلاتنا ، شكوانا ،
« لله كم من طريق ، تنكبناه ، صحيح ،
« لله كم من عذاب زاد بلوانا .
« لأننا لم ندع بلسان فصيح :
« اللهم يا ربنا سدّد خطانا » .

واذ أنصت الى تلك الأنشودة ، أدركت اننى ارتكبت غلطة مروعة ، ودأبت على ارتكابها طيلة حياتى ! تلك هى اننى أخوض معارك الحياة جميعها وحدى ، دون أن أتخذ من الله سبحانه وتعالى ، سنداً ومعيناً ، ولم أبته فى صلاتى همى وشكواى . وقفزت من فراشى ، وأغلقت صنوبر الغاز ، وفتحت الأبواب والنوافذ على مصاريعها ، ورحت أنتحب وأصلى . وابتهل الى الله طيلة ذلك اليوم . على اننى لم أطلب العون من الله ﷻ بل رحمت أزجى له الشكر مدراراً على ما وهبني واختصني : خمسة أبناء كلهم صحيح معافى جسداً وعقلاً . وعاهدت الله الا أجدد نعمته من بعد ذلك . وقد حفظت عهدي . وحتى بعد أن بعنا منزلنا ، وانتقلنا الى مسكن حقير استأجرناه لقاء خمسة دولارات فى الشهر ، حمدت الله على أن منحنا ماوى ناوى اليه . وأحسب أن الله أتابني على حمدي وشكري ، فقد تحسنت الأحوال ، لا فى يوم وليلة ، ولكن ما أن خفت وطأة الأزمة الاقتصادية حتى وسعنا أن نكتسب شيئاً من المال ، فقد حصلت على عمل كباثة للجوارب فى منتدى ليلى كبير ، وسعى أحد ابنائى الى العمل ليعين نفسه على متابعة الدراسة ، فاشتغل فى مزرعة ، يحلب ثلاث عشرة بقرة ليلاً ونهاراً واليوم ها هم ابنائى قد شبوا عن الطوق ، وتزوجوا ، وأصبح لى ثلاثة أحفاد صغار . واذا أستعيد ذكرى ذلك اليوم الذى فتحت فيه صنوبر الغاز أحمد الله وأكرر الحمد ، على اننى أوقفت سريان الغاز فى الوقت المناسب ، فما كان أخلقنى أن أفقد كثيراً من متع

الحياة ، لو أنتى مضيت فى تلك الفعلة الشنعاء الى نهايتها .. وما اكاد اسمع الآن عن شخص ييفى من فرط الشقاء ، أن يزهد روحه حتى أود أصيح به : « كلا . بريك لا تقدم .. فان أطك لحظات حياتنا لا تعمر الا قليلا ، ثم يعقبها الضياء ! » .

* * *

تدل الاحصاءات فى أمريكا على انه فى كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار ، وفى كل مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون ، ومعظم حوادث الانتحار — وكثير من حالات الجنون على الأرجح — يمكن أن يقطع دابرها اذا أصاب هؤلاء الناس شىء من الأمان والاطمئنان ، وسكينة النفس التى يجلبها الدين ، وتجلبها الصلاة .

يقول الدكتور « كارل يونج » — أعظم الأطباء النفسيين فى هذا الجيل — فى كتابه : « الرجل العصرى يبحث عن روح » (١) .

« استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية ، أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر .. أى الخامسة والثلاثين أو نحوها — لا ترجع فى أساسها الى افتقارهم الايمان ، وخروجهم على تعاليم الدين ، ويصبح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض ، لأنه حرم سكينة النفس التى يجلبها الدين — أى دين — ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى الا حين استعاد ايمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيته على مواجهة الحياة » .

وقال وليم جيمس : « الايمان من القوى التى لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقدتها نذير بالعجز عن معاناة الحياة » .

(١) Dr. Carl Jung, (Modern Man in Search of a Soul)

وكان خليقا بابلهما غاندى — أعظم قادة الهند منذ عهد بوذا
ان يعجز عن معاناة الحياة لو لم تشدد أزره الصلاة . تسألنى
كيف عرفت هذا ؟ نعم عرفته لأن المهاتما غاندى نفسه قال « بغير
الصلاة كان يتحتم أن أغدو معتوها منذ أمد طويل » .

وآلاف من الناس يسعهم أن يقولوا مثل هذا القول عن أنفسهم،
ومنهم أبى . الذى أسلفت أنه حاول الانتحار غرقا فما منعه
الا إيمانه بالله .

ربما كان من المحتمل انقاذ آلاف الناس المعذبين الذين يتصايحون
منذ هذه اللحظة فى مستشفيات الأمراض العقلية ، لو أنهم طلبوا
العون من العناية الالهية ، بدلا من أن يخوضوا معارك الحياة
وحدهم بلا سند ولا نصير .

**حين تستنفذ الخطوب كل قوانا او تسلبنا الكوارث كل ارادة ،
غالبا ما ننجح فى غمرة الياس ، الى الله . فلماذا بالله نتنظر حتى
يتولانا الياس ؟ لماذا لا نجد قوانا كل يوم بالصلوات ، والحمد ،
والدعاء ؟**

فى خلال الأعوام السبعة التى أمضيتها فى تأليف هذا الكتاب،
جمعت مئات الأمثلة ، والقصص الواقعية ، التى تدور حول رجال
ونساء وسعهم أن يقهروا القلق والخاوف بالصلاة . ودعنى أقدم
هنا قصة نموذجية ، أرسلها الى فتى يائس ، كسير القلب هو
« جون أنطونى » الذى يشتغل الآن بالمحامة فى مدينة « هوستون »
بولاية تكساس . وهى :

« كنت أشتغل ببيع الكتب لحساب احدى المؤسسات . وكنت
خبيرا بعملى ، مدريا عليه . فقبل أن أقصد الى عميل لأبيعه كتيبى ،
كنت أجمع المعلومات عن مركزه الاجتماعى ، وطبيعة عمله ، ونوع
هواياته ، فاذا قابلته استخدمت المعلومات التى جمعتها بحنكة
ومهارة ولكن شيئا ما كان يجرى على غير ما يرام ، فاننى نادرا
ما أفلحت فى بيعتى ! »

« وتولاني اليأس ، وزدت جهدى ضعفا أو ضعفين ، ولكن مبيعاتى لم تكن تكفى لتغطية نفقاتى . واجتاحنى خوف داخلى وأصبحت أخشى مقابلة العملاء ، فاذا حدث أن ذهبت الى مكتب عميل ، استبد بى هذا الخوف الداخلى حتى لأزرع المنطقة التى يسكن فيها العميل ، جيئة وذهابا أفكر وأتدبر قبل أن أقدم ، ماذا استنفذت معظم شجاعتى ، واراندى فى هذا التجول ، عدت أدرجى الى مكتب العميل ، وطرقت بابه على وجل ، وأنا ادعو الله الا يكون موجودا ! .

« وهددتنى المؤسسة التى اشتغل لحسابها بأنها سنكف عن توريد الكتب الى ما لم أزد مبيعاتى . وارسلت الى زوجتى التى تركتها ورائى حين ارتحلت عن بلدى ، تضرع الى أن أمدها بالمال لتسدد حساب البقال ، وتمسك رmqها ورقمق ابنائى الثلاثة . وعصف بى القلق ، وازداد يأسى يوما بعد يوم ، ولم أدر ماذا أفعل . . كنت قبل ذلك قد أغلقت مكتب الحمامة فى بلدى ، ثم رأيت أننى قد فشلت فى عملى الجديد ، ولم أعد أجد من المال ما أذفع به أجر الفندق الذى أنزل فيه . بل لم أعد أجد أجر السفر لأعود أدرجى الى موطنى ، وحتى لو وجدت المال ، لسا أسعفتنى شجاعتى بالعودة الى بلدى ومواجهة أهلى بعد أن منيت بخسران مبين .

« وذات يوم من تلك الأيام السوداء ، عدت الى غرفتى بالفندق محطما ، كسير الفؤاد ، مكتئبا ، فلم أجد لدى ما أطعمه سوى زجاجة من اللبن الساخن . وأدركت فى تلك اللية لماذا يقدم بعض الناس على فتح نوافذ منازلهم ثم يتذفون بأنفسهم منها . . وكنت جديرا بأن أحذو حذوهم فى تلك اللية لو أننى أوتيت بعض الشجاعة ! . . ثم خطر لى أن أتجه الى الله ، وأبئه شكواى . فرحت أصلى ، وأضرع اليه ، سبحانه ، أن ينير بصيرتى ، ويسدد خطاى فى هذا الظلام الكثيف الذى يكتنبنى من كل جانب ، وأن يوفقتى فى عملى عسى أن أجد من المال ما يمسك رmq زوجتى وأولادى .

« وما ان فرغت من صلاتى وضراعتى حتى حدثت معجزة : ..
فقد زال عنى توتر أعصابى ، وتلاشت مخاوفى ، وانقضى قلقتى ،
واستشعرت شجاعة ، وأملا ، وإيمانا .

« وبرغم انه لم يكن لدى من المال ما أسدد به أجر الفندق ،
أو أسد رمقى ، فقد أحسست بالسعادة وآويت الى فراشى فنمت
نوما هادئا عميقا لأول مرة منذ أعوام .

« وفى صباح اليوم التالى ، ألفت نفسى أندفاعا الى
مكتب العملاء . ودنوت من مكتب العميل الاول وطرقت بابه بيد
ثابتة لا ترتجف . واذ دلفت الى المكتب قلت للعميل وأنا رافع
الراس ، واضح الثبرات مشرق الوجه : « أسعدت صباحا يا مستر
سميث .. أنا « جون أنتونى » مندوب « الشركة الأمريكية للمكتب
القانونية » . وأجاب العميل مبتسما بدوره وهو ينهض عن كرسيه
مصانحا : « نعم . نعم . أنا مسرور برؤياك ، تفضل بالجلوس » .
وعقدت فى ذلك اليوم من الصفقات أكثر مما كتبت أعقد فى أسبوع
كامل ! وعدت أدرجى فى المساء فخورا مزهوا كالبطل الظاهر .
لقد أحسست كأننى خلقت من جديد ، والحق اننى كنت خلقت جديدا ،
لأننى اتخذت اتجاها ذهنيا جديدا . ولم أطمع فى تلك الليلة زجاجة
من اللبن الساخن ، بل تعشيت لحما محمرا ، وخضرا ، وفاكهة ..
ومنذ ذلك اليوم اتخذت صفقتاى طريقها نحو القمة .

« لقد خلقت ، فى تلك الليلة الظلماء — التى مضى عليها الآن
واحد وعشرون عاما — خلقتا جديدا فى فندق صغير ببلدة « أماريللو »
بولاية تكساس ، لأننى وعيت الرابطة التى تربطنى بالله — سبحانه
وتعالى . — فما أسهل أن يهزم الرجل الذى يقاتل بمفرده ، أما
الرجل الذى يتخذ من الله سندا ونصيرا فلن يهزم أبدا » .

وقد وعت هذا الدرس نفسه « مسز بيرو » من أهالى مدينة
« هايلاند » بولاية « إلينوى » ، حين واجهتها مأساة الية ..
واليك قصتها كما روتها لى :

« في ذات ليلة دق جرس التليفون في منزلي ، ولبت يدق فترة من الزمن قبل أن تواتيني الشجاعة لأرفع المسماع ، وقد ملئت رعبا . كنت أخشى أن ينقل الى « التليفون » نبأ وفاة ولدى الطفل الذى كان مريضا في المستشفى ، بالحمى الشوكية ، وصح ما توقعته ! فان المستشفى كان يطلب حضورنا على الفور .

ولن أستطيع وصف المحنة التى عانيتها وزوجى ، ونحن جالسين في غرفة الانتظار بالمستشفى ، حتى يستدعينا الطبيب . فلما نودى علينا أخيرا وذهبنا الى غرفة الطبيب كان التعبير المرتسم على وجهه كائنا لخلع أفئدتنا رعبا ، وزادتنا كلماته رعبا على رعب . فقد قال لنا : ان فرصة النجاة أمام ولدنا ضئيلة ، وانه لا يمانع في ان نستشير طبيبا آخر اذا ارتأينا ذلك .

« وفي طريق عودتنا انهارت أعصاب زوجى ، ورأيته يلوح بقبضته في الهواء قائلا : « اننى وحق السماء لا أستطيع ان اسلم ولدى للموت ! » .. وهل رأيت رجلا يبكى ! انه منظر لا يسر! . واذا صادفتنا اول كنيسة في الطريق ، أوقفنا السيارة ، ودلفنا اليها . وهناك ركعت ، والدموع تسيل على خدى مدرارا ، ولم ازد على قولى : « لتكن مشيئتك يا ربى » ولم أكد اللفظ هذه الكلمات ، حتى احسست الهدوء يشملنى ، وشعرت بالسكينة تملأ نفسى : وفي خلال عودتنا الى البيت لم أفتأ أردد هذه الكلمات « لتكن مشيئتك يا ربى » ! ونمت تلك الليلة نوما عميقا . ولم تمض أيام حتى اتصل بنا الطبيب ، وقال ان صحة ولدنا تتحسن باطراد . ثم شفى وعوفى من بعد ذلك ، وهو الآن في الرابعة من عمره .

اعرف رجالا ينظرون الى الدين نظرتهم الى شىء مقصور على النساء ، والأطفال ، والوعاظ ، ويتباهون بانهم « رجال » يسعهم ان يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين .. فما أشد الدهشة التى تتولاهم حين يعملون ان معظم « الرجال » — أى الأبطال المشاهير — يتضرعون الى الله كل يوم ان يساندهم ويؤازرهم .

خذ مثلا البطل « جاك دمبسى » . . لقد أخبرنى بأنه لا يأوى الى مضجعة قبل ان يتلو صلواته ، ولا يتناول طعاما حتى يحمد الله الذى وهبه اياه ، وأنه لا يفتأ يردد الصلوات والدعوات أثناء تدريبه على الملاكمة ، وقبل كل جولة يخوضها .

وحدثنى ادوارد ستيتينيوس المدير الأعلى — سابقا — لشركة « جنرال موتورز » وزير خارجية أمريكا السابق ، أنه كان يصلى ويبتهل الى الله أن يهبه الحكمة والسداد ليلا ونهارا .

وعندما كان « البطل » ايزنهاور فى طريقه طائرا الى انجلترا ليتولى قيادة جيوش الحلفاء فى الحرب الأخيرة ، كان الشئ الوحيد الذى اصطحبه معه هو الكتاب المقدس .

وقال لى « البطل » الجنرال « مارك كلارك » انه كان يقرأ الكتاب المقدس ، خلال سنى الحرب كل يوم ، ثم يركع على ركبتيه ويصلى لله .

لقد أدرك هؤلاء « الأبطال » الحقيقة التى قالها « وليم جيمس » : « ان بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فاذا نحن اخضعنا أنفسنا لأشرفه — سبحانه وتعالى — تحققت كل أمنياتنا وآمالنا » .

وكثيرون من هؤلاء « الأبطال » قد تحققوا بأنفسهم من صدق قول الدكتور « الكسيس كاريل » ، مؤلف كتاب « الانسان ، ذلك المجهول » (١) وأحد الحائزين على جائزة نوبل .

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت الى يومنا هذا . وقد رأيت ، بوصفى طبيا ، كثيرا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزا وتسليما ، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من علهم . ان الصلاة كمعدن « الراديوم » مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط . . وبالصلاة يسمى الناس الى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون « القوة » التى تهيم على

(١) Dr. Alexis Carrel, "Man the unknown"

الكون ، ويسألونها ضارعين ان تمنحهم قبسا منها يستعينون به على معاناة الحياة . بل ان الزراعة وحدها كفيلا بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد احدا تضرع الى الله مرة الا عاد التضرع عليه باحسن النتائج .

وقد عرف الأمير بيرد معنى «ربط النفس بالقوة العظمى المهيمنة على الكون» ، ومعرفته تلك هي التي مكنت له سبيل الخروج من المحنة القاسية التي خاضها ، والتي روى قصتها في كتابه «وحيد» .

فقد قضى في عام ١٨٣٤ ، خمسة اشهر في كوخ مظمور وسط الثلوج في المنطقة المتجمدة الجنوبية ، وكان الشخص الوحيد على قيد الحياة جنوبى خط العرض الثامن والسبعين . . وكانت العواصف الثلجية الهوجاء تزار حواليه ، والظلام اللانهائى يضرب عليه نطاقا موحشا ، وقد وجد ، فضلا عن هذا ، أنه يتسمم تدريجيا بغاز « اول اكسيد الكربون » المتصاعد من موقده . فماذا عساه يفعل ؟ كان العون الذى ينشده على مبعده ١٢٣ ميلا من موقعه ، ولن يتسنى لأحد أن يصل اليه قبل مضى أشهر طوال ، لقد حاول جهده ان يصلح موقد الغاز ، وجهاز التهوية ، ولكن الغاز الخائق ظل يتسرب ويملاً خياشيمه ، فاستلقتى على الأرض فاقد الوعى ، لا يستطيع أن يأكل « او ينام ، وأصابه من الوهن ما أعجزه عن الحركة ، ولطالما استشعر أنه لن يأتى عليه اليوم التالى الا وهو فى عداد الأموات . ورسخ و اعتقاده أنه ملاق حتفه فى كوخة ذاك ، ولن يعرف أحد الى جثته سبيلا ، فما الذى انقذ حياته ؟ فى ذات يوم ، تحامل على نفسه — فى غمرة من اليأس الجاثم عليه — وتناول مذكراته ، وحاول ان يدون فلسفته فى الحياة فكتب : «ليس الجنس البشرى وحيدا فى هذا الكون » وكان وهو يكتب تلك العبارة يفكر فى النجوم المنبثة فى السماء ، وفى الكواكب والأجرام الدوارة فى أملاكها بدقة ونظام ، وفى الشمس التى لا تحرم شبرا من الأرض نورها ودفئها ، والتى لن تلبث — مهما يطل الغياب — أن تشرق على تلك البقعة النائية ، الموحشة ، فى أقصى جنوبى

الأرض .. ذلك الاحساس بأنه ليس وحيدا هو الذى أنقذ حياته ! .
نرى لماذا يجلب الايمان بالله ، والاهتمام عليه ، سبحانه
وتعالى ، الأمان ، والسلام ، والاطمئنان ؟ سادع وليم جيمس
يجب على هذا السؤال : « ان أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة
لا تعكر قط هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذى
عمق ايمانه بالله ، حقا ، عصى على القلق محتفظ أبدا باتزانه ،
مستعد دائما لمواجهة ما عسى ان تأتى به الأيام من صروف » .

فلماذا لا نتجه الى الله اذا استشعرنا القلق ؟ ولماذا لا نؤمن
بالله ونحن فى أشد الحاجة الى هذا الايمان ؟ ولماذا لا نربط انفسنا
بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟

ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة ، والابتغال ، أنك لست
متدينا بطبعك ، أو بحكم نشأتك ، وثق بأن الصلاة سوف تسدى
اليك عوناً أكبر مما تقدر ، لأنها شئ « عملى » فعال ، تسألنى
ماذا اعنى بقولى ؟ انها شئ عملى فعال ؟ أعنى بذلك أن الصلاة
يسعها أن تحقق لك أموراً ثلاثة لا يستغنى عنها انسان سواء كان
مؤمناً أو ملحداً .

١ — فالصلاة تغنيك على التعبير بأمانة ودقة عما يشغل نفسك،
ويثقل عليها . وقد بينا فيما سلف أن من الحال مواجهة مشكلة
ما دامت غامضة غير واضحة المعالم ، والصلاة ، أشبه بالكتابة
التي يعبر بها الأديب عن همومه . فاذا كنا نريد حلاً لمشكلاتنا ،
وجب أن نجريها على السنن الواضحة المعالم ، وهذا ما نفعله حين
نبث شكوانا الى الله .

٢ — والصلاة تشعرك بأنك لست منفرداً بحمل مشكلاتك
وهومك ، فما أقل من أن يسعهم احتمال أثقل الأحمال ، واعسر
المشكلات ، منفردين ، وكثيراً ما تكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس
بذواتنا : فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس إلينا ، ولكننا يسعنا أن
نذكرها للخالق عز وجل ، فى الصلاة . ه الأطباء النفسيون يجمعون

على أن علاج التوتر العصبى ، والتأزم الروحى يتوقف الى حد كبير على الانقضاء بمبعث التوتر ، ومنشأ الأزمة الى صديق قريب ، أو ولى حميم . فاذا لم نجد من نفضى اليه بهمومنا كنانا بالله وليا .

٣ — والصلاة — بعد هذا — تحفزنا الى العمل ، والاقدام . بل الصلاة هى الخطوة الاولى نحو العمل ، وأشك فى أن يوالى امرؤ الصلاة يوما بعد يوم دون أن يلمس فائدة أو جدوى ، أو بمعنى آخر ، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حاله ، وتفريج أزمته . وقد قال « الكسيس كاريل » : « الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى الآن » فلماذا لا ننتفع بها ، وسم الخالق الرب ، أوسمة الله ، أوسمه الروح ، فلا يهم اختلاف التعريف ولا التسمية ما دمنا نتفق على أنه القوة الخالقة المهيمنة على الكون .

* * *

لماذا لا تغلق الكتاب عند هذا الحد ، وتذهب الى غرفة نومك وتركع لله ، وتفتح له مغاليق قلبك ؟ فاذا كنت قد فقدت ايمانك ، فاسأل الله أن يعيده اليك ، وقل : « اللهم انى لا أستطيع أن أخوض معارك الحياة وحيدا ، فاسئلك يا رب المدد والعون ، اللهم اغفر لى أخطائى ، وطهر قلبى من الأثم ، وانر امامى السبيل الى السلام ، والإيمان ، والعافية ، وعمر قلبى بحب الناس جميعا ، لا أستثنى منهم أعدائى ، انك ، يا رب ، سمع قريب مجيب الدعاء » .

الجزء السادس

كيف تتجنب القلق الذي يسببه لك النقد

الفصل العشرون

بقدر قيمتك يكون النقد الموجه اليك

في عام ١٩٢٩ حدثت ظاهرة عجيبة اقامت دوائر التعليم واتعدتها في طول البلاد وعرضها ، وتقاطر رجال التعليم من كل حذب وصوب ليشاهدوا هذه الظاهرة ، . فقبل ذلك التاريخ ببضعة أعوام ، وفد على مدينة « بيل » شاب شق طريقه الى المدينة بعرق جبينه ، فاشتغل أولا خادما في مطعم ، ثم اشتغل بجمع الحطب ، وفي ثالث مرة اشتغل بائعا متجولا .. ثم لم تَمْضِ ثمانية أعوام على وصوله الى المدينة ، حتى كان يحتفل بتنصيبه رئيسا لاحدى الجامعات الكبرى في أمريكا — وهى جامعة شيكاغو — وهو بعد في الثلاثين من عمره ! وهز رجال التعليم رؤوسهم انكارا واستنكارا ، وانهال النقد على هذا « الفتى العجيب » كالسيل الجارف فوصف مرة بأنه حدث غر ، ورمى بأنه قليل الخبرة والتجربة ، واخيرا اتهم بأن له في التعليم آراء خارجة شاذة . وقد ساهمت الصحف بنصيب وافر في هذه الحملة وكالت له النقد جزافا .

ويوم الاحتفال بتنصيبه رئيسا للجامعة ، قال صديق لوالد « روبرت ماينارد هتشينز » — وهو اسم الشاب — : « لقد روعت ، هذا الصباح ، حين قرأت النقد الذى تكيهه الجرائد لولدك » . فقال هتشينز الأب : نعم انه نقد مرير ، لكن تذكر انه بقدر قيمتك يكون النقد الموجه اليك ! « وقد ادرك هذه الحقيقة عينها « أمير ويلز » الذى أصبح فيما بعد الملك ادوارد الثامن ملك الانجليز (دوق وندسور) .

كان اذ ذاك طالبا في كلية « دار تموث » البحرية ، وكان ولى العهد في الرابعة عشرة من عمره حينئذ . . وفي ذات يوم وجده الضباط يبكى وينتحب فلما استطلعه عن سبب بكائه رفض أن يصرح به في مبدأ الأمر ، واخيرا قال ان بعض الطلبة ضربوه ! وجمع قائد الكلية الطلبة « المتهمين » وقال لهم ان الأمير في الواقع لم يشكهم اليه ، ولكنه يود أن يقف على السبب الذى دفعهم الى ضربه . . وبعد هممة ، وتمتمة ، ودمدمة ، وجد الطلاب الجراة للافضاء بالسبب ، فقالوا انهم أرادوا أن يتباهوا ، في مستقبل أيامهم ، حين يصبحون ضباطا وقوادا في بحرية جلالة الملك بأنهم ضربوا جلالة الملك ! .

فاعلم اذن انك حين يوجه اليك الضرب ، أو النقد ، أن في ذلك اعترافا بقدرك وأهميتك ، وأن فيه اقرارا بأنك فعلت شيئا فذا لفت الأنظار اليك .

وكثيرا من الناس يجدون التشفى في اتهام شخص يفوقهم ثقافة، أو مركزا ونجاحا . مثال ذلك ، أننى في خلال تأليفى لهذا الكتاب . تسلمت رسالة من سيدة تصب فيها جام نقتها على الجنرال «وليم بوث » مؤسس « جيش الخلاص » Salvation Army وكنت قبل ذلك قد أذعت حديثا بالراديو أمتدحت فيه الجنرال بوث وأثنى عليه . وقد كتبت الى هذه السيدة تقول ان الجنرال بوث اختلس ثمانية ملايين دولار من المال الذى جمعه لمساعدة الفقراء والمعوزين . والتهمة في الواقع سخيفة ، ولكن هذه المرأة لم تكن تستهدف الواقع ، وانما كانت تبغى التشفى من رجل أرفع منها بمراحل . وقد القيت برسالتها في سلة المهملات ، وحمدت الله على أننى لم أكن زوجا لها! فان هذه الرسالة لم تزددنى علما بالجنرال بوث — كما كانت تبغى كاتبها ! — وانما زادتنى علما بكاتبها ، فكما قال شسوينهور : « ذوو النفوس الدنيئة يجدون المتعة في البحث عن اخطاء رجل عظيم » .

وقلما يصدق المرء أن رئيسا لجامعة كبرى يمكن أن يسلك في عداد « نوى النفوس النقيئة » ، وبرغم ذلك فإن رئيسا سابقا لجامعة ييل هو « تيموثى دوايت » ، وجد متعة عظيمة في اتهام رجل مرشح لرياسة الجمهورية الأمريكية ، كتب ذلك الرئيس محذرا الناس من انتخاب المرشح يقول : « لو أن هذا المرشح انتخب لراينا زوجاتنا عرضة لانتهاك أعراضهن ، ولألينا شرفنا يوطأ بالآدام ، ولأصبحنا طريدى الفضيلة ، وأعداء الله والانسانية » .

أولا يختلط عليك الأمر فتحسب أن هذا الاتهام موجه الى هتلر مثلا ؟ غير انه كان موجهها الى « توماس جيفرسن » . وقد تسأل . . . اى « توماس جيفرسن » تعنى ؟ ليس على التحقيق « توماس جيفرسن » الخالد ، محرر « وثيقة الاستقلال » ، وأبو الديمقراطية الحانى عليها ؟ نعم ! انه هو بالذات ! .

ثم من تظنه الأمريكى الذى اتهم بأنه « منافق » ، « مدع » ، « لا يفترق عن القتلة والمجرمين فى شىء » ؟ وصورته ، فضلا عن هذا ، احدى الجرائد فى رسم هزلى يمثله واقفا على المقصلة ، ويوشك حدها أن يجتز عنقه ، والناس من حوله يتغامزون عليه ويتندرون به ؟ ذلك هو جورج واشنجتون !! .

لكن هذا حدث فى زمن مضى وانقضى ، فهل ترى أن الطبيعة البشرية قد ارتقت وتقدمت ؟ لنأخذ مثلا « الأدميرال بيرى » المستكشف الذى أذهل العالم بوصوله فى السادس من شهر ابريل عام ١٩٠٩ الى القطب الشمالى ذلك الهدف الذى قصرت دونه همم الرجال ، ولقى الكثيرون حتفهم دون أن يبلغوه . . . ولقد أوشك « بيرى » أن يموت قبل أن يصل الى هدفه ، من الجوع والبرد ، إذ تجمدت أصابع قدميه فاضطر الى بترها ، وناءت عليه المصائب والأحداث بكلكالها حتى أوشك على الجنون ! « .

لقد ثارت عليه نائرة رؤسائه ، واشتعل غضبهم لأن الصحف والناس ، راحوا يدعون له بالتوفيق ، حتى ذاع اسمه واشتهر ،

ومن ثم حقد عليه رؤساؤه ، واتهموه بأنه جمع المال بقصد الاستكشاف العلمى . ولكنه بدده فى رحلة عقيمة الى القطب الشمالى ! والارجح أن رؤساءه صدقوا التهمة التى الصقوها به ، فان من أصعب الأمور التحول عن تصديق ما تريد تصديقه ! وكان تصميم هؤلاء الرؤساء على اذلال « بيرى » واخضاع كبرائه قويا عاتيا ، حتى ان بيرى لم يستطع المضى فى رحلته الى القطب الشمالى الا بأمر من « ماكينلى » رئيس الجمهورية نفسه ! .

فهل تحسب ان بيرى كان يلقى من التهم ما لقى لو انه لبث « موظفا » فى وزارة البحرية الأمريكية ؟ كلا على التحقيق ! فماذا تكون أهميته حينئذ حتى تثار حوله الأقاويل والأحاديث ؟ .

ولقد مر « الجنرال جرانت » بتجربة أسوأ من هذه بكثير . ففى عام ١٨٦٢ كسب الجنرال جرانت لجيوش الشمال — فى الحرب الأهلية الأمريكية — معركة حاسمة ، وبهذا غدا معبود الجماهير فى يوم وليلة ، وتجاوبت أصداء هذا النصر حتى فى أوربا . ثم لم تكد تمضى ستة أسابيع على هذا النصر المبين ، حتى قبض على « جرانت » ، وانتزع جيشه منه ، فبكى من فرط الاذلال واليأس كما يبكى الطفل !

فلماذا قبض على الجنرال جرانت ؟ لأنه أثار غيرة رؤسائه منه ، واستثار حفيظتهم عليه ! واذن ، فاذا انتابك القلق من جراء تهمة الصقت بك ، أو نقد وجهه اليه ، فاليك القاعدة رقم ١ :

تذكر أن النقد الظالم انما هو اعتراف ضمنى بقدرتك
وأنه بقدر أهميتك وقيمتك يكون لنقد الموجه اليك .

الفصل الحادى والعشرون

كن عصيا على النقد

قابلت ذات يوم الميجور جنرال « سميدلى بتلر » ، الملقب « بشيطان الجحيم » والذي اثر عنه انه من أشد القواد الذين تعاقبوا على بحرية الولايات المتحدة حزما ، فأخبرنى بأنه فى صباه كان يتلفه على الشهرة الذائغة ، والجاء العريض ، والشخصية القوية . ولهذا كان يضيق بأقل النقد الموجه اليه ويثور لاتفه ما يمس الكرامة والكبرياء . غير أن الأعوام الثلاثين التى قضاها فى البحرية غيرت من طباعه ، وجعلته أمنع من أن ينال منه النقد . قال لى : « طالما ذقت صنوفا من الاهانة والاذلال ، وطالما رميت بأئنى كلب عقور ، وحية رقطاع ، وثعلب مراوغ . وطالما لعنتى خبراء فى فن الشتم فلم يدعوا شيئا من أتذر اللون السباب الا رمونى به . فهل ترانى كنت ألقى الى كل ذلك بالا ؟ كلا ! ولو أئنى اليوم سمعت واحدا يسبنى لما حولت نظرى اليه لأرى من عساه أن يكون ! » فاذا كان بتلر قد استعصى على النقد ، فانه والحق يقال ، على نقيض الكثيرين منا الذين يأخذون اللوم مأخذ الجد ، فيصيبهم من جراء ذلك الهم والكر .

اذكر أن محررا فى جريدة «شمس نيويورك Newyork Sun

حضر منذ سنوات احدى المحاضرات فى معهدى ، واذا به فى اليوم التالى يهاجمنى على صفحات جريدته ، وينتقد طريقتى فى التدريس . . فهل ترانى ثرت ثورة جارية لهذا الانتقاد العلنى ؟ نعم . الى حد ما . فقد أخذت هذه الجملة على أنها اهانة موجهة الى شخص ، وخاطبت « جيل هودجز » مدير تحرير الجريدة تليفونيا ، وطلبت اليه أن ينشر مقالا يضمنه الحقائق المجردة بدلا من أن يحشوه بالهزاء والسخرية . وبرغم أئنى كنت معتزما أن يكون القصاص على قدر الجرم لا أكثر ، الا أئنى آسف اليوم على

ما فعلت .. فأنا أدرك اليوم أن نصف الذين قرأوا الجريدة لم تقع
انظارهم على المقال اطلاقا ، وأن نصف الذين قرأوه اخذه على أنه
دعابة بريئة ، وأن نصف الذين حملوه محمل الجد قد نسوه تماما
في خلال أسابيع معدودة ! .

وانى لأعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير في زيد أو عمرو
من الناس أكثر من لحظات ، فهم مشغولون بالتفكير في انفسهم ،
منذ يفتحون اعينهم على اليوم الجديد ، حتى يأوون الى مضاجعهم ،
وأن صداعا خفيفا يلم بهم لهو كفيل بأن يلهيهم عن خبر موتى
أو موتك ! .

وحتى لو نالنا من الناس كذب وافتراء ، وطمع يوجه الى
ظهورنا جهرا أو في الخفاء ، فلا ينبغي أن يحزننا هذا . أم هل
نحن أفضل من السيد المسيح عليه السلام ؟ لقد خانه واحد من
حوارييه الاثنى عشر المقربين لقاء رشوة ، تقدر بعملتنا الحالية ،
بنحو تسعة عشر دولارا ! وهجره آخر هجرا غير كريم حين احدث
به الخطر واتسم ثلاثا بأنه لا يعرف المسيح ، فلماذا ننتظر نحن
خيرا مما نال السيد المسيح ؟ ! .

لقد اكتشفت منذ سنوات اثنى وان عجزت عن اعتقال السنة
الناس حتى لا يطلقوها في ظلما وعدوانا ، الا أنه وسعنى أن افعل
ما هو خير من هذا .. أن اتجاهل لوم الناس ونقدمهم ! .

ودعنى اوضح لك ما اعنى : اننى لا اطلب اليك ان تتجاهل
النقد اطلاقا ، وانما اتصد النقد الظالم المعرض . سألت ذات يوم
« اليانور روزفلت » كيف تواجه النقد — والله يعلم كم لاقت منه ،
فلعل من تهيأ لها من الأعداء أكثر مما تهيأ لامرأة سواها عاشت
في البيت الأبيض — فأجابتنى بأنها ، كانت في صباها على قدر كبير
من الحياة ، والخوف مما عسى أن يرميها به الناس ، وكانت تخشى
النقد وتتقيه ، حتى انها قالت ذات مرة لعمتها ، شقيقة ثيودور
روزفلت : « اننى أحجم عن هذا العمل أو ذاك خشية النقد ، فماذا
تنصحينى ؟ » وحدجتها عمتها بنظرة فاحصة ثم قالت : « لا تهتمى

بما يتقول به الناس عليك ما دمت تقبلين على عمل وأنت واثقة من أنك على صواب » وقد عملت مسز روزفلت بهذه النصيحة ، فكانت لها سندا قويا في مستقبل حياتها .

عندما خاطب « تشارلس شواب » - صاحب مصانع الصلب الشهيرة - طلبة جامعة « برنستون » ، صرح لهم بأن أهم درس وعاء في حياته ، تلقاه على يد رجل المائى عجوز كان يشتغل في مصانعه ، فقد حدث أن اشتبك هذا الالمائى ، فى خلال الحرب الأخيرة ، مع طائفة من عمال المصنع فى جدل حاد حول الحرب ، والموقف السياسى ، فما كان من العمال فى فورة حماستهم ، إلا أن طوحوا به فى النهر ! قال شواب : « وعندما اتانى هذا المعجوز ملطخا بالوجل ، مبتلا بالماء ، سألته ماذا فعل للعمال الذين غنغوا به فى النهر ، فأجاب : « لا شىء . لقد ضحكت ! » . وقد صرح شواب بأنه اتخذ كلمة هذا الرجل الالمائى شعارا له منذ ذلك الحين ! .

وتتجلى فائدة هذا الشعار حين تغدو هدفا لنقد ظالم مفرض . فأنت ولا ريب تقدير على رد الصاع صاعين للرجل الذى يتصدى للرد على انتقادك له . ولكن ماذا عساک تفعل للرجل الذى يضحك من انتقادك له ؟ لقد كان لنكولن خليقا بأن ينهار تحت وطأة التوتر الذى ساير الحرب الأهلية الأمريكية ، ولو لم يدرك أن محاولة الرد على كل نقد يصيبه سخر وحماسة . قال لنكولن : « لو أننى حاولت أن أقرأ - لا أن أرد وحسب - كل ما وجه الى من نقد لشغل هذا كل وقتى ، وعطلنى عن أعمالى . اننى أبذل جهدى فى أداء واجبى ، فإذا اثمرت جهودى فلا شىء من النقد الذى وجه الى يهمنى من بعد ذلك . وإذا خاب مسعاى ، فلو أقسمت الملائكة على حسن نواياى لما أجدى هذا فتىلا ، فحسبى اننى أدبت واجبى وأرضيت ضميرى » .

وإذن ، فعندما يواجه اليك النقد ظلما وعدوانا ، تذكر القاعدة رقم ٢ :

**ركز جهودك فى العمل الذى تشعر من أعماقك أنه صواب ووصم
أذنك بعد ذلك عن كل ما يصيبك من لوم اللاتمين .**

الفصل الثاني والعشرون

حماقات ارتكبتها

في أحد ادراج مكتبى ملف خاص مكتوب عليه «حماقات ارتكبتها» وأنا اعتبر هذا الملف بمثابة سجل واف للأخطاء والحماقات التى ارتكبتها . وبعض هذه الأخطاء امليته على سكرتيرتى فتولت هى كتابته ، واما بعضها الآخر ، فقد خجلت من املائه ، فكتبته بنفسى! . ولو اننى كنت امينا مع نفسى لكان الأرجح أن يمتلىء مكتبى بالملفات المكتوب عليها « حماقات ارتكبتها » ! .

وعندما استخرج سجل أخطائى ، وأعيد قراءة الانتقادات التى وجهتها الى نفسى ، أحس أننى قادر ، مستعينا بعبير الماضى ، على مواجهة أفسى ، وأشد المشكلات استعصاء .

لقد اعتدت فيما مضى أن القى على الناس مسئولية ما ألقاه من مشكلات ، لكنى وقد تقدمت بى السن — وازددت حنكة وتجربة فيما أحل — أدركت آخر الأمر ، أننى وحدى المسئول عما أصابنى من سوء ، وفى ظنى أن كثيرا من الناس يدركون ما أدركت ، ولقد قال نابليون وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة : « لا أحد سواى مسئول عن هزيمتى . لقد كنت أنا اعظم عدو لنفسى » ! .

ودعنى أحدثك عن رجس برع فى « فن » مراجعة النفس ، ومناقشتها الحساب . ذلك هو « ه . ب هاول » الذى عندما أعلن نبأ موته المفاجئ ، فى فندق « أمباسادور » بنيويورك . فى الحادى والثلاثين من شهر يوليو عام ١٩٤٤ ، أصيب حى « وول ستريت » — حى رجال الأعمال والمال — بصدمة قاسية زلزلته . فقد كان الرجل ماليا كبيرا ، ورئيسا لمجلس ادارة المصرف التجارى الوطنى، ومديرا لعدة شركات كبرى ، لم يتلق هذا الرجل قدرا يذكر من الثقافة ، وانما بدأ حياته العملية كاتباً بسيطاً فى متجر ريفى ، وحين سألته أن يتص على قصة نجاحه فى الحياة ، قال : « اننى احتفظ،

منذ امد بعيد بمفكرة صغيرة في جيبي ادون فيها المقابلات التى يتعين على انجازها في يومى، وتعلم أسرتى اننى اخصص مساء يوم السبت من كل اسبوع لمراجعة نفسى فيما كسبت واكتسبت طوال الاسبوع، فما ان اتناول عشاى حتى اخلو لمفكرتى الصغيرة ، واستعيد كل مقابلة تمت ، وكل نقاش دار ، وكل عمل انجز خلال الاسبوع منذ صباح الاثنين — بداية الاسبوع — ثم اسأل نفسى : « اى الأخطاء ارتكبتها هذا الاسبوع ؟ واى الأعمال صحبنى فيها التوفيق ؟ وكيف كنت أستطيع ان أستزيد من التوفيق ؟ واية دروس أعيها من تجارب هذا الاسبوع ؟ » وكثيرا ما أخرج من هذه المراجعة مغتبا ، وقد أذهلنى عدد ما ارتكبت من أخطاء ! ولكن الشيء الذى كنت أخطئه دواما هو ان أخصائى تقل تدريجا اسبوعا بعد اسبوع . وما زلت ملتزما هذه الخطة فى مراجعة النفس منذ سنين طويلة ، واحسب أنها قد قيضت لى من النجاح اكثر مما قيض لى اى شىء آخر !» .

ولعل « هاول » قد استعار هذه الطريقة فى « مراجعة النفس » من « بنجامين فرانكلين » ، الا ان الفارق الوحيد بينهما أن فرانكلين لم يكن ينتظر حتى يحل نهاية الاسبوع ، بل كان ينصب لنفسه هذه المحاكمة العسيرة كل مساء .. وقد اكتشف فرانكلين ان هناك ثلاثة عشر خطأ خطيرا يقترفها على الدوام ، وهذه هى أهم ثلاثة منها : تضييع الوقت سدى ، والانشغال بالتوافه ، والجدال مع الناس على غير طائل يرجى ، ورسخ فى ذهن فرانكلين أنه ما لم يتخلص من هذه الأخطاء فلن يتقدم فى الحياة شيئا يذكر ، ومن ثم عمد الى تخصيص اسبوع لمحاربة كل نقیصة من نقائسه على التوالى ، وأفرد سجلا يدون فيه يوما بيوم انبء انتصاره على نقائسه او هزيمته . وقد لبث فرانكلين فى حرب ضد أخطائه أكثر من عامين ، فلا عجب أن غدا واحدا من اقرب المقربين الى قلوب الأمريكین ! .

وانك لتجد الحمقى وحدهم هم الذين ينساقون وراء الغضب لانتقه ما يوجه اليهم من اللوم . أما العقلاء فيتلهفون على ادراك

ما ينطوى عليه اللوم من الحقيقة ليعملوا على تلافيه ، وفي هذا الصدد يقول « والت ويتمان » : « اترك تعلمت دروس الحياة من أولئك الذين امتدحوك . وآزررك ، وحنوا عليك ؟ أم تعلمتها من أولئك الذين هاجموك ، وانتبذوك ، وقست قلوبهم عليك ؟ » .

ليت شعري ، لماذا ننتظر حتى يلومنا الناس على عمل اقترفناه؟ افليس الاكرم لنا أن نكون نحن نقادا ولائمين لانفسنا ؟ دعنا اذن نفتش عن اخطائنا ، ونجد لها الدواء الشافي قبل أن يفتح اعداؤنا افواههم بكلمة لوم ، أو بعبارة نقد . وهذا هو ما فعله العلامة « تشارلس داروين » ، فقد أنفق خمسة عشر عاما ينتقد نفسه ! . فانه حين فرغ من تسويد كتابه الخالدة « أصل الأنواع » (١) ، أدرك أن نشر هذا الكتاب الذى تضمن الثورة على نظرية « خلق الانسان » التقليدية ، خليك بأن يؤلب عليه رجال الفكر عامة ورجال الدين خاصة ، ومن ثم نصب نفسه ناقدا وأنفق خمسة عشر عاما أخرى، غير التى قضاهها فى تأليف نظريته ، يراجع نظريته ، ويتحدى منطقته، وينتقد اكتشافاته .

افترض أن أحدا اتهمك بأنك غر أحمق ! فماذا عسك تفعل ؟ اتغضب ؟ اتثور ؟ لا تجب .. وانما أنظر الى ما فعله لنكولن فى مثل هذا الموقف . فقد وصفه « ادوارد ستانتون » ، وزير الحربية فى عهده ، بأنه « غر أحمق » ، وكان مبعث غضب ستانتون أن لنكولن لا يحس سياسة الأمور ! إذ انه — أى لنكولن — لكى يرضى أسرة أحد السياسيين ، وقع أمرا بنقل بعض فرق الجيش من مواقعها . ورفض ستانتون أن ينفذ هذا الأمر بل زاد على ذلك فوصف لنكولن بأنه « غر أحمق » لأنه وقع هذا الأمر . فلما تناهى قول ستانتون الى لنكولن ، قال الاخير : اذا كان ستانتون يقول اننى غر أحمق فلا بد أننى كذلك ، فانه يوشك أن يكون صائبا فى كل ما يقول . سأذهب اليه لأتحقق من الأمر بنفسى » .

(١) Charles Darwin, "The Origin of Species"

وذهب اليه لنكون ، فأقنعه ستانتون بأن توقيع هذا الأمر كان في غير محله ، فحسب لنكون الأمر ! نعم ، هذا هو كل ما حدث ! فقد رحب لنكون بالنقد حين عرف أنه نقد نزيه ، قائم على الحقائق المجردة ، وهدفه وضع الأمور في نصابها .

وأخلق بك وبى أن نرحب نحن أيضا بمثل هذا النقد ، فإنا على التحقيق « لا نأمل أن نكون على صواب ثلاث مرات من كل أربع » والعبارة الأخيرة من قول « ثيودور روزفنت » حين كان رئيسا للولايات المتحدة . أما « اينيشتين » أعظم مفكرى للعصر الحديث ، فقد صرح بأنه مخطىء في آرائه تسعة وتسعين في المائة من الوقت ! . يقول « لاروشفوكو » : « ان آراء أعدائنا فينا أدنى الى الصواب من آرائنا في أنفسنا » . وأنا اعلم أن هذا القول حق ، أو هو يصدق في معظم الأحيان ، وبرغم ذلك ، فما ان يتصدى احد لا نقادى حتى انهيأ للدفاع حتى قبل ان يفرغ الناقد ما في جعبته . اننا جميعا وانما نحن عبيد لعواطفنا ، ومثل منطقتنا كمثل قارب تتقاذفه أمواج مياولن الى دفع اللوم ، والى الترحيب بالمدح ، بما نحن بمنطقيين بحر صاحب مضطرب .. هذا البحر الزاخر هو عواطفنا .

اعرف رجلا كان يشتغل بتوزيع الصابون لقاء عمولة . كان يذهب الى حد طلب النقد بلسانه ! فعندما بدأ بتوزيع الصابون لحساب شركة «كولجيت» لم يوفق كثيرا في مهمته ، فكان اذا رده احد العملاء خائبا ، تحول في الشارع متسائلا أى خطأ ارتكبه ! اتراه لم يسهب في شرح قيمة الصابون ؟ اتراه كانت تعوزه الحماسة ؟ وفي أحيان كثيرة كان يعود أندراجه الى العميل ويقول له : « اننى لم أعد اليك لأحلف في السؤال ، وانما أتيت أطلب النصح ، فهلا تكرمت باطلاعى على الخطأ الذى اترفنته حين عرضت عليك بضاعتى منذ دقائق ؟ » وقد أكسبته هذه الطريقة كثيرا من الأصدقاء وكثيرا من النصائح التى لا تقوم بثمن . أتعرف أين هو الآن . انه مدير « شركة صابون كولجيت ، وبالموليف ، وبيت » أكبر الشركات العالمية لانتاج الصابون .. ذلك هو « ا . ه . ليتل » . وفى خلال

العام الماضي كان ترتيبه الرابع عشر بين أوفر الرجال ربحا في أمريكا .

فلكى تتقى القلق الذى يجلبه لك النقد اليك القاعدة رقم ٣ :

احتفظ بسجل تدون فيه الحماقات والأخطاء التى ارتكبتها واستحققت النقد من أجلها ، وعد اليه بين حين وآخر لتستخلص منه العبر التى تفيدك فى مستقبلك ، واعلم أن من العسير أن تكون على صواب طول الوقت ، فلا تستنكف أن تفعل مثلما فعل « ٥٠١ .
لنقل » اسأل الناس النقد النزيه الصريح .

الجزء السادس في سطور

كيف تتجنب القلق الذي يجلبه النقد

* * *

القاعدة رقم ١

النقد الاظام ينطوى غالبا على اطراء متنكر ، فمعناه
— على الأرجح — أنك أثرت الغيرة والحسد في نفوس
منتقديك .

القاعدة رقم ٢

ركز جهدك في العمل الذي تشعر من أعماقك أنه صواب،
وصم أذنيك بعد ذلك عن كل ما يصيبك من لوم اللائمين .

القاعدة رقم ٣

احتفظ بسجل دون فيه الحماقات والاطعاء التي ترتكبها
وتنتقد بسببها ، ولا تستنكف أن تسأل الناس النقد الزيه
العف ، الأمين .

الجزء السابع

ست طرق تفيك الأعياء والقلق
وتحفظ لك نشاطك وحيويتك

الفصل الثالث والعشرون

كيف تضيف ساعة الى ساعات يقظتك

لماذا ترانى أكتب عن انتقاء الاعياء فى كتاب هدفه علاج القلق الجواب بسيط . فالقلق غالبا وليد الاعياء . أو هو أدنى الى الوقوع مع الاعياء . وأى طالب يدرس الطب يسعه أن ينبئك بأن الاعياء يحد من قوة مقاومة الجسم لنزلات البرد ، ولعشرات الأمراض الأخرى . كما أن أى طبيب نفسانى يسعه أن ينبئك بأن الاعياء يقلل من قوة مقاومتك لعواطف الخوف والقلق ، ومن ثم ففى دفع الاعياء دفع للقلق كذلك ، هذه هى الحقيقة التى أكدها « الدكتور آدموند جاكوبسون » الذى ألف كتابين فى « الاسترخاء » Relaxation « الاسترخاء المطرد » ، و « يجب أن تسترخى » (١) . وقد ظل جاكوبسون سنين عدة مديرا لمعامل « الفيسيولوجيا الاكلينيكية » بجامعة شيكاغو ، وأنفق هذه السنين يبحث فى استخدام الاسترخاء كوسيلة من وسائل العلاج ، وقد صرح بقوله « أن أى مرض عصبى أو خلل عاطفى ، لا يمكن أن يحدث مع الاسترخاء التام » . ويمكننا أن نصوغ هذا القول صياغة أخرى فنقول : « لن يتسنى لك أن تواصل القلق إذا استرخيت » .

(1) Dr. Edmund Jacobson, "Progressive Relaxation" "You Must Relax"

واذن ، فلكى تتقى الاعياء الذى ينجم عنه التلق ، التزم القاعدة الاولى :

اكثر من الراحة ، واسترح قبل أن يفاجئك التعب

وقد اكتشف الجيش الأمريكى ، بعد تجارب كثيرة : أن الجنود يسعهم أن يصمدوا للسير أمدًا أطول إذا هم القوا عتادهم واستراحوا عشر دقائق فى كل ساعة ، ومن ثم أصدرت قيادة الجيش أمرا بأن يلتزم الجنود هذه القاعدة . والقلب ليس أكثر صلابة من الجيش الأمريكى . . فان القلب يدفع من الدماء فى الشرايين كل يوم ما يكفى لملء عربة من عربات قطار البضاعة ! كما أنه يبذل من الجهود فى خلال أربع وعشرين ساعة ما يكفى لجعل عشرين طنا من الفحم فى كوم ارتفاعه عشر أقدام رمادا ! والقلب ، بعد هذا ، يقوم بهذه المهمة الشاقة التى لا يكاد يصدقها العقل لمدة خمسين ، أو سبعين ، وربما تسعين عاما . . فكيف يصمد القلب لهذا الجهد ؟ يجيبك عن هذا السؤال الدكتور « والتر كانون » ، فيقول : « يعتقد معظم الناس أن القلب دائم العمل بلا توقف ، والحقيقة غير هذا . . فان ثمة فترة استراحة بين كل نبضة وأخرى . والقلب إذ ينبض بمعدل سبعين نبضة فى الدقيقة — وهو المعدل العادى — فانها يشتغل فى الواقع تسع ساعات فقط فى كل أربع وعشرين ساعة ، أى أن مجموع فترات الراحة التى يلتزمها القلب يبلغ خمس عشرة ساعة فى اليوم ! » .

وفى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، استطاع « وينستون تشرشل » وكان يومئذ قد جاوز الستين من عمره ، أن يشتغل ست عشرة ساعة فى اليوم مضطلعا بأعباء الحرب التى تخوضها الامبراطورية البريطانية . . فهل تدرى كيف استطاع تشرشل أن يفعل هذا ؟ كان يعكف على العمل وهو فى فرائمه حتى الساعة الحادية عشرة صباحا ، فيقرأ الأوراق ويصدر الأوامر ، ويجرى المحادثات لتليفونية ، ويعقد الاجتماعات العاجلة . حتى اذا تناول غذاءه دالى الفراش مرة أخرى ليستريح ساعة . وفى المساء يعود الى

الفراش مرة ثالثة ليستريح ساعتين قبل أن يتناول عشاءه فى تمام الثامنة مساء . لهذا لم يشك تشرشل التعب . . ولأنه أكثر من الراحة وسعه أن يصمد للعمل ، وأن يقبل عليه كل يوم فى نشاط متجدد .

لقد استطاع « جون د . . روكفلر » الأب أن يضرب رقمين قياسييين : الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين . فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره ، فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة ، أما السبب الثانى فهو اعتياده الاغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم ، فى غرفة مكتبه ، كان يستلقى على أريكته فى غرفة المكتب ، ويستسلم للراحة التامة ، فلا يقوى حتى رئيس الجمهورية على ازعاجه بحديث تليفونى ! .

حدثنى « كونى ماك » لاعب « البيسبول » البارز القديم ، أنه لو فاته الاغفاء ولو لمدة خمس دقائق قبل بدء المباراة . لتولاه الاعياء ، وتخلت عنه براعته بعد الجولة الخامسة على الأكثر » .

وسألت ذات مرة « اليانور روزفلت » كيف وسعها أن تصمد لابعائها الجسم طوال السنوات الاثنى عشرة التى قضتها فى البيت الابيض ، فقالت : انها اعتادت قبل أن تقابل أحد الوفود أو تلقى احدى الخطب ، أن تجلس فى مقعد وثير ، وتغمض عينيها ، وتسترخى لمدة عشرين دقيقة ، ومن ثم يدب فيها الانتعاش ويسرى النشاط فى أوصالها .

وقابلت أخيراً « جين أوترى » فى غرفته بملعب « ماديسون سكوير » حيث كان يستعد للاشتراك فى المباراة الدولية لركوب الجياد الجامحة (روديو) ، فرأيت فى الغرفة سريراً من أسرة جنود الجيش ، فلما سألته عن علة وجوده قال . « اننى أستلقى عليه ظهر كل يوم ، لأستريح ساعة قبل أن أنزل الى ساحة اللعب ، وحين أكون مضطرباً بالتمثيل فى أحد الأفلام ، كثيراً ما اغفو فى مقعد كبير لمدة عشر دقائق بين كل منظر وآخر . ان مثل هذه الاغفاءة ، على قصرها تجدينى كثيراً » .

ويعزو « اديسون » نشاطه الجبار ، وقوة احتماله للخارطة .
الى اعتياده الاغفاء اينما كان ووقتها شاء .

قابلت أخيرا « هنرى فورد » قبيل الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين .
فدهشت اذ رأيته فى أوج قوته وعنفوان نشاطه ؛ وسألته عن السر
فى هذا فقال : « اننى لا اظل واقفا حيث يمكننى الجلوس . ولا اظل
جالسا حيث يمكننى الاستلقاء ! » .

وكذلك كان « هوراس مان » الملقب بأبى التربية الحديثة ؛ حين
تقدمت به السن ، فمهد اختير رئيسا لكلية انطاكية ، اعتاد أن يقابل
طلبه لاي أمر من الأمور متتمدا على أريكته .

ولعلك تتساءل الآن كيف يتسنى لك أن تفعل مثلما يفعل هؤلاء ؟
فان كنت كاتباً على الآلة الكاتبة فلن يتسنى طبعا أن تغفو كما كان
يفعل اديسون . وان كنت كاتب حسابات فانك لا تستطيع أن تتمدد
على أريكة بينما أنت تحدث رئيسك . ولك العذر فى هذا التساؤل .
ولكنك ان كنت تقطن قريبا من محل عملك ؛ بحيث تعود الى منزلك
لتناول الغداء ، فانك على التحقيق يسعك أن تغفو ولو عشر دقائق
بعد الغداء . . فهذا ما اعتاد الجنرال « جورج مارشال » أن يفعله .
ابان قيادته لجيش الولايات المتحدة ؛ خلال الحرب الأخيرة . فاذا
تعذر عليك أن تغفو ظهرا فليس بأقل من أنك تستطيع أن تستلقى
على أريكة قبيل العشاء . فاذا نمت ساعة فى اليوم فانك بذلك
تضيف ساعة الى ساعات يقظتك .

لماذا ؟ وكيف ؟ لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة الى ست
ساعات تنامها ليلا أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل
ليلا فى حين أنها سبع ساعات .

والعامل يسعه ان يزيد فى إنتاجه لو سلخ من النهار ساعة من
ساعة نومه . وقد أثبت « فردريك تايلور » هذه الحقيقة حين كان
مهندسا اداريا لاحدى شركان الصلب الشهيرة . فقد لاحظ ان
الواحد من العمال يسل ، فى المعدل ، نحو اثنى عشر طنا ونصف

طن في اليوم ، ثم بعد هذا يدركه الاعياء . فأجرى دراسة علمية لأسباب التعب عامة ، صرح بعدها بأن العامل من هؤلاء يسعه أن ينقل سبعة وأربعين طنا في اليوم ، — أى يضاعف إنتاجه أربع مرات — ومع ذلك لا يحس بالتعب . كيف ؟ لقد تخير تايلور أحد العمال ليجرى عليه تجربته ، وأمسك بساعة في يده وراح يقول للعامل وهو ينظر في ساعته : « الآن اشتغل .. الآن استرح .. اشتغل .. استرح .. » فكانت النتيجة أن نقل العامل سبعة وأربعين طنا من الحديد في خلال ساعات العمل المقررة ! والسر في ذلك أن العامل كان يؤمر بالراحة قبل أن يدركه التعب . وكان مجموع ما يشتغله في كل ساعة هو ٢٦ دقيقة بينما يستريح ٣٤ دقيقة ، أى أنه كان يستريح أكثر مما يشتغل ، ومع ذلك فقد أنجز من العمل أكثر مما اعتاد أن ينجز وهو يواصل العمل بلا راحة على الإطلاق ! .

دعنى أكرر ما أسلفت :

افعل كما يفعل الجيش : استرح في فترات متقطعة . بل افعل كما يفعل قلبك قبل أن يدركك التعب ، وبذلك تضيف ساعة الى ساعات يقظتك .

الفصل الرابع والعشرون

كيف تتخلص من التعب

اليك حقيقة مدهشة : « ان العمل الذهني وحده لا ينفى الى التعب » . قد يبدو لك هذا القول سخيفا ، ولكن طائفه من العلماء حاولوا منذ بضعة أعوام ، ان يتعرفوا مدى احتمال المخ الانساني للعمل قبل ان يدركه الكلال ، ولشد ما كانت دهشة هؤلاء العلماء حين وجدوا ان الدماء المندفعة من المخ واليه وهو في أوج نشاطه ، خالية من كل أثر للتعب . فانت اذا اخذت « عينة » من دماء عامل يشتغل بيديه بينما هو يزاول عمله تراها حافلة « بخمائر » التعب ، وامرازاته ، اما اذا اخذت « عينة » من الدماء المارة بمخ عالم مثل « اينشتين » ، فلن تجد بها اثرا لخمائر التعب ، حتى في نهاية يومه حافل بالنشاط الذهني .

فالمخ يسعه ان يزاول النشاط عشر ساعات او اثنتى عشرة بقوة لا تهن ويدركها الاجهاد . فاذا كان المخ الانساني لا يعتره التعب قط ، فما الذى يشعرونا بالتعب اذن ؟

يقول اطباء النفسيون ان معظم التعب الذى نحسه ناشئ عن طبيعة اتجاهاتنا الذهنية والعاطفية . وفي ذلك يقول الدكتور « هادفيلد » العالم النفسى الانجليزى فى كتابه « سيكولوجية القوة » (1) ان الجانب الأكبر من التعب الذى نحسه ناشئ عن أصل ذهنى ، بل الحقيقة ان التعب الناشئ عن أصل جسمانى لهو غاية فى الندرة .

ويذهب الطبيب النفسى الأمريكى « ا.ا. بريل » الى اكثر من هذا فيقول : « ان مائة فى المائة من التعب الذى يحسه العمال الذين

(1) J.A. Hadfield, "The Psychology of Power"

تطلب عملهم الجلوس المتواصل راجع الى عوامل نفسية ، اى عاطفية .

ترى ماذا من العوامل العاطفية التى تشعر العمال «الجالسين» بالتعب . أهو السرور ؟ أم المرض ؟ كلا على التحقيق ! بل التبرم ، والضيق ، والاحساس بعدم التقدير ، والقلق : .. تلك هى العوامل العاطفية التى تشعر الموظفين بالتعب ، الذى بدوره يضعف مقاومتهم الجسمانية ، لأبسط الأمراض . ويقلل من انتاجهم ، ويرسلهم آخر النهار الى بيوتهم وهم يمسكون أدمغتهم من الصداع « العصبى » - اى الذى ليس له اصل عضوى - نعم ! نحن نحس بالتعب لأن عواطفنا تشيع توترا عصبيا فى اجسامنا . وقد اشارت الى ذلك « شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة » فى نشرة وزعتها . بعنوان « التعب » وقالت فيها : ان المجهود الشاق . فى حد ذاته قلما يسبب التعب - ونقصد ذلك النوع من التعب الذى لا يزول بعد نوم عميق . أو فترة معقولة من الراحة - وانما القلق ، والتوتر ، والثورات العاطفية ، هى العوامل الثلاثة الأساسية فى ابتعاث التعب ، ولو بدا أن المجهود العقلى أو الجسمانى هو الأصل والسبب ، فاعلم أن العضلة المتوترة هى عضلة « عاملة » - أردت أم لم ترد ! فارخها ، وادخر نشاطك لأعمال أهم وأجدى .

كف الآن عن القراءة حيث تكون ، راجع الوضع الذى تتخذه : هل أنت منحن بجذعك على الكتاب ؟ هل تحس ألما فيما بين عينيك؟ هل أنت جالس فى استرخاء على المقعد ؟ هل ثمة عضلة من عضلات وجنك مشدودة ؟ فاذا لم يكن جسديك بأكمله مسترخيا كدمية مصنوعة من الخرق ، فانك الآن . وفى هذه اللحظة ، تتسبب فى خلق توتر عصبى وعضلى ، أى أنك بمعنى آخر تتسبب فى خلق تعب «عصبى» .

فما الذى يحدوك الى خلق هذا التوتر الذى لا ضرورة له اثناء قيامك بعمل ذهنى ؟ يقول « جوسلين » : لقد وجدت أن السبب

الأصيل في ذلك هو الاعتقاد السائد بين الناس بأن العمل الشاق يحتاج الى « احساس بالجهود » مصاحب له ، والا خاب العمل ، وفشل الجهود ! » ومن ثم فاننا ننحنى بجذوعنا ، او نشد عضلاتنا ، او نرجع بأكتافنا الى الوراء مستنجدين بعضلاتنا لكي تشعرونا « بالجهود » الذي نبذله وهو شعور لا اهمية له اطلاقا ! .

اليك حقيقة مدهشة ، ومفجعة في آن معا : ان ملايين الناس الذين يضمنون بأموالهم ، ويحرصون عليها ، يبذلون حيويتهم عن طيب خاطر ، ويبذرون فيها تبذيرا ! فايهما بالله اجدر بأن يحرص عليه ، المال أم الصحة ؟ .

فما علاج هذا التعب العصبى ؟ . ان علاجه هو الاسترخاء . تعود الاسترخاء حين تراول عملك كأننا ما كان ، ولا تحسب ان هذا الأمر هين ، فقد يحتاج الى ان تغير العادات التي اكتسبتها طول حياتك ، يقول وليم جيمس : « ان ما يعانیه الأمريكيون من التوتر ، وحدة المزاج منشؤه العادة لا أكثر ولا أقل » فالتوتر عادة ، والاسترخاء أيضا عادة ، والعادات السيئة يمكن التخلي عنها . والعادات النافعة يمكن اكتسابها .

وكيف تسترخى ؟ هل تبدأ بذهنك أولا ، أم تبدأ بأعصابك ؟ لا تبدأ بأيهما ، وإنما أبدا على الدوام بعضلاتك .

ولنقم هنا أولا بتجربة اولية ، لنرى كيف تؤثر ثمارها ، ولنتخذ عينك موضوعا للتجربة . اقرأ هذه الفقرة الى نهايتها . فاذا وصلت الى خاتمتها ، استند بظهورك الى ظهر مقعدك . وأغمض عينيك . وقل لعضلات عينيك في صمت : استرخى . . استرخى . . كفى عن التوتر . . استرخى « وكرر في خاطرك هذه الأوامر لمدة دقيقة واحدة .

والآن . . ألم تر أنه لم تمض ثوان حتى بدأت عضلات عينيك

تطيع أوامرك وتسترخى ؟ فما أنت في دقيقة واحدة قد وقفت على السر الأكبر في فن الاسترخاء . . ويسعك بعد هذا أن تكرر الأمر نفسه مع عضلات فكيك ، ووجهك ، وعنقك ، وكفيك ، وجسدك جميعا ، على أن العينين هما أهم أعضاء الجسم ، ويذهب الدكتور « ادمونت جاكبسون » ، مدير جامعة شيكاغو ، الى حد القول بأن ارخاء عضلات العينين كفيلا وحده بأن يزيل توتر الجسد كله . ولعل مبعث أهمية العينين انهما وحدهما تستنفدان ربع النشاط العصبى الذى يستنفده الجسم كله . وهذا أيضا هو السبب فى أن الكثيرين من اصحاء النظر يعانون من الم فى أعينهم ، دون أن يعلموا أن السبب فى ذلك هو توتر عضلاتها .

* * *

تقول الروائية المشهورة « فيكى باوم » انها فى طفولتها ، صادفت رجلا عجوزا لقنها أهم درس فى حياتها . كانت قدمها قد زلت فسقطت على الأرض ، وجرحت ركبناها ، ورسفها ، فأنهضها هذا الرجل العجوز ، الذى كان فى سابق أيامه « بهلوانا » فى « سيرك » وهو يقول لها . « ان السبب فى أنك سقطت وأذيت نفسك هو أنك جاهلة بفن الاسترخاء . كان ينبغى لك أن ترخى عضلات جسمك كارتخاء الجورب العتيق ، تعالى معى لأريك كيف ؟ » .

واخذ العجوز يلقنها كيف تسقط دون أن يصيبها اذى لو انها ارخت عضلات جسمها كاسترخاء جورب معلق على حبل ! .

وان فى وسعك أن تسترخى أينما كنت ، وكل ما عليك هو الا تتكلف جهدا فى سبيل هذا الاسترخاء ، فالاسترخاء ليس مجهودا يبذل ، وانما امتناع تام عن كل مجهود . وابدأ الاسترخاء دائما بارخاء عضلات عينيك ووجهك .

واليك خمس نصائح تعينك على اتقان الاسترخاء :

١ — اقرأ أبداع كتاب اخرج فى فن الاسترخاء ، واتصد به كتاب

الدكتور « دافيد هارولد فنك » وعنوانه « تخلص من التوتر العصبى » .

٢ — استرخ أينما كنت . دع عضلات جسمك تتراخى كما يتراخى الجورب العتيق ، وأنا احتفظ فى مكتبى بجورب بنى اللون لأتعلم منه كيف أرخى عضلات جسدى . فاذا لم يكن لديك جورب تتعلم منه الاسترخاء ، اكتف بقطعة ، هل التقيت مرة بقطعة نائمة فى هذه الشمس ؟ اذا كنت فعلت ، فلا شك أنك لاحظت كيف ترخى جسدها حتى ليبدو أشبه بالخرقة المبتلة بالماء .

٣ — اشتغل ما شئت من الوقت ، على أن تراعى الاسترخاء فى جلستك .

٤ — راجع نفسك اربع او خمس مرات فى اليوم ، وقل لنفسك : « أترانى أجعل عملى يبدو أصعب مما هو حقيقة ؟ أترانى أستخدم فى عملى عضلات من جسدى لا شأن لها بهذا العمل اطلاقا ! » فهذه المراجعة تعينك على تكوين عادة الاسترخاء .

٥ — اختبر نفسك مرة أخرى فى نهاية اليوم ، وسائلها : « هل أنا متعب ؟ » فاذا كنت متعبا فاعلم أن منشأ التعب ليس كمية الجهود الذى بذلته ، وإنما « الطريقة » التى بذلت بها الجهود .

يقول دانييل جوسلين : « عندما أحس بالتعب أو بتوتر فى الأعصاب ، فى نهاية يوم من الأيام ، أعلم يقينا أن مجهود ذلك اليوم عتيقا من ناحية « الكم » وناحية « الكيف » على السواء ولو أن كل شخص وعى هذا الدرس ، لقلت نسبة الوفيات الناشئة عن أمراض التوتر العصبى ، ولتوقفنا عن تزويد المصحات والمستشفيات كل يوم بمرضى التعب والقلق .

الفصل الخامس والعشرون

آيتها الزوجات : تجنبن التعب لتحفظن بشبابكن

في خريف العام الماضي أوفدت سكرتيرتى الى « بوسطن » لتمضى دورة دراسية في أعجب « مدرسة طبية » في العالم كله . هل قلت « مدرسة طبية ؟ » ذلك لأن مقر الدراسة على أية حال هو « مستشفى بوسطن » . وتسير الدراسة على أية حال ، « حصة » واحدة كل أسبوع . والمدرسة بعد هذا ، تكاد تكون عيادة نفسية ، في الواقع ، وان كان اسم المدرسة الرسمى هو « مدرسة علم النفس التطبيقى » ، ومهمتها الحقيقية هى علاج المرضى الذين نشأت أمراضهم نتيجة القلق . ومعظم طلاب هذه المدرسة من الزوجات ذوات العواطف الثائرة ، والأعصاب المتوترة .

كيف أنشئت هذه المدرسة ؟ في عام ١٩٣٠ ، لاحظ الدكتور « جوزيف هـ . برات » — الذى كان تلميذا لسير وليم أوسلر — أن معظم المرضى الوافدين على مستشفى بوسطن لا يشكون في الواقع علة عضوية معلومة ، وان كانت ظواهر مرضهم تشبه في كثير ظواهر المرض العضوى . مثال ذلك أن احدى السيدات جاءت الى المستشفى تشكو من التهاب مفاصل يديها ، وتقول انها أبطلت استخدامها اطلاقا من وطأة الألم . وجاءت أخرى تشكو أعراض سرطان في المعدة ، وجاءت أخريات يعانين الصداع وأوجاع الظهر وغيرها ، وكن حقا يشعرون بالألم ، لكن الفحص الطبى الدقيق ، أثبت الا علة عضوية البتة بهؤلاء النسوة . وكان خاتما بأطباء الجيل القديم أن يتولوا مثل هؤلاء السيدات ابنهن وأهملات ، وان عللن لا وجود لها الا في مخيلاتهن . . ولكن الدكتور « برات » أدرك الا فائدة ترجى من ازجاء النصح لهؤلاء الواهلات . . كان يعلم أن معظم هؤلاء السيدات لسن

راغبات في المرض ، فلو كان تناسى أوجاعهن أمرا هينا لفعلته دون حاجة الى نصح .. فماذا عساه فاعل لهن ؟ .

لقد افتتح هذه المدرسة — رغم ما احاط بها من شكوك المتشككين واستهزاء رجال الطب المتحذلقين — فأتت هذه المدرسة بالعجب العجاب ، واستطاعت ، في الأعوام الثمانية عشر الماضية ، أن « تشفى » آلاف المرضى الذين لجأوا اليها . وتقول الدكتورة « روز هلفردنج » المستشارة الطبية لهذه المدرسة : ان من الأدوية الشافية للقلق ، افضاء الشاكي بمتابعه الى شخص يثق به . وحين جاء المرضى الى هذه المدرسة ، ووسعهم أن يتحدثوا عن متاعبهم باسهاب وتفصيل ، زال القلق من أذهانهم فان مجرد اجترار الشئرى واختزانها في الذهن واستئثار المرء بها ، كفيل بخلق التوتر العصبى .

وقد شاهدت سكرتيرتى هذا القول الذى قالته الدكتورة « روز » يوضع موضع التجربة . فقد نهضت احدى طالبات المدرسة تتحدث عما يقلقها .. وكانت هذه الطالبة تعاني مشكلات عائلية ، فلما بدأت تتكلم عنها كانت كلماتها تخرج كأنات الجريح المتقطع الأنفاس ، ومن ثم أخذ صوتها ينجلى ، ونبراتنا تنضح وانفاسها تنتظم شيئا فشيئا وأخذت الراحة تسرى في كيانها وترتسم على وجهها ، حتى اذا اختتمت حديثها كانت تبسّم ابتسامة مشرقة .. فهل تراها حلت مشكلتها ؟ كلا ! فحل المشكلة لا يتأتى بهذه السهولة ، وانما الذى احدث فيها هذا التحول ، هو مجرد « حديثها » الى شخص يسمع ويفهم ، ويحنو وينصح . نعم ! ان الذى احدث هذا التحول هو القوة الشفائية العظيمة التى تكمن في ... الكلمات ؟ .

والتحليل النفسى يعتمد ، الى حد كبير ، على هذه القوة الشفائية التى تكمن في الكلمات . فقد آمن المحللون النفسيون ، بأن المريض يسعه الخلاص من أزماته النفسية اذا دأب على الحديث عنها . فلماذا كان ذلك كذلك ؟ ربما لاننا عن طريق

الحديث يسعنا ان نكتسب نظرة اعمق الى مشكلاتنا او ربما لاننا
ننفس بالحديث ، عن المشكلة الجاثمة على صدورنا .

واذن ، ففى المرة القادمة التى ينتابنا فيها القلق ، دعنا نبحث
عن شخص نثق به ، لنفضى اليه بجلية متاعبنا . ولست أعنى
بهذا ان نجعل من انفسنا عبئا على الناس ، وان ننقل على كل
من « هب ودب » بمشكلاتنا ، بل دعنا نتخير شخصا نثق به ،
ثم نضرب له موعدا لزيارته . وقد يكون هذا الشخص طبييا
وقد يكون محاميا ، او من رجال الدين . فاذا جلست اليه قل
له : « لقد اتيت لأسألك النصح . ان لى مشكلة أرجو ان تنصت
لها ، عسى ان تستطيع توجيهى الى ما ينبغى لى ان افعله . فاذا
وسعك ان تعيننى طوقت عنقى بجميل . واذا لم يسعك ففى
مجرد اصفاك لمشكلتى اكبر العون لى » .

فاذا رايت انه ليس امامك من تثق به ، فدعنى احدثك عن
« رابطة انقاذ الحياة » ، اهرب مؤسسة فى العالم . لقد انشئت
هذه « الرابطة » اول ما انشئت لانقاذ حياة الذين يحاولون
التخلص من حياتهم بالانتحار . ولكنها مع الزمن اتسع نطاق
اختصاصها ، فأصبحت تزجى النصح لكل من يطلبه من التعساء
وقد تحدثت أخيرا الى الانسة « لونا بوتل » Miss Lona
B. Bonne. وهى الموكلة بمقابلة القاصدين الى الرابطة
للحصول على النصح ، فعرضت على — مشكورة — ان تجيب
على اى خطاب يصلها من قراء هذا الكتاب . ومن ثم . فانك
ان كتبت الى « رابطة انقاذ الحياة » (١) فثق ان اسرار مشكلتك
ستكون فى الحفظ والصون ، كما انك ستجانب عن مشكلتك على
يد ناصح امين .

(١) اسم الرابطة وعنوانها كما يلى :

(1) The "Save-a-Life League" 505 Fifth avenue
New York City N. Y. U. S. A.

على أننى ، صراحة ، اعتقد أن من الأفضل الإفضاء بالمشكلة
الى شخص يجلس اليك ويسمع لك . فاذا تعذر هذا ، فلا بأس
من أن تكتب الى هذه الزابطة .

واذن فالأفضاء بالمشكلة ، من الوسائل العلاجية المعمول بها
فى مدرسة بوسطن ، وهانذا أقدم الى الزوجات ، فضلا عن هذا
الدواء بضع وسائل أخرى تنصح باستخدامها مدرسة بوسطن
للتخلص من القلق والتوتر الناشئين عن المشكلات العائلية :

١ — احتفظى بمذكرة . ودونى فيها كل رأى سديد ، ملهم ،
تعمين عليه فى كتاب ، ضمنى هذه المذكرة — مثلا — القصائد ،
والاقتباسات والكلمات الماثورة التى تعينك على التخلص من
متاعبك . فاذا احسست يوما أن قواك المعنوية تخدك ،
فتصفح ما كتبتة فى هذه المذكرة عساك تخرجين منها «بوصفة»
تعيد اليك انشراحك ، وتزيل قلقك .

٢ — لا تكثرى بعيوب الآخرين . فمن الحق أن لزوجك
عيوبا ، ولو أنه كان ملاكا لما تزوجك ! الا ترين أن هذا صحيح؟
وقد سئلت احدى الزوجات من طالبات مدرسة بوسطن ، أثر
عنها أنها تختلق النكد لزوجها ولا تكف عن لومه وانتقاده : «ماذا
تفعلين لو مات زوجك ؟ » فصدمتها هذه الفكرة لتوها ، وجلست
فى مكانها تدون محاسن زوجها الى جانب عيوبه ، وشد مادهدشت
حين فاقته المحاسن العيوب بهراحل ! فلماذا لا تصنعين مثل هذا
عندما يخيلى اليك أنك تزوجت من رجل أنانى طاغية متسلط ؟
فقد تجددين لفرط دهشتك ، أنه من طراز الرجال الذين يهفو
قلبك اليهم

٣ — وثقى صلاتك بجيرانك : نصح لاحدى الطالبات ، وكانت
تشكو الوحدة ، بأن تكتب قصة بطلها أول شخص يصادفها عقب
خروجها من الفصل فراحت فى خلال ركوبها « الانوبيس »
تتصور فى خيالها النسيج الذى تكون منه حياة هؤلاء الناس الذين

يركبون معها وكان أول ما فعلته أنها راحت تتحدث الى الناس وتتودد اليهم ، عسى أن تأتي القصة أدنى الى الواقع . وهى الآن امرأة سعيدة تجيد الحديث ، وتحسن معايشة الناس . وجيرانك ، ايتها الزوجة ، أقرب الناس اليك ، فهم جديرون بأن تحسنى معاشرتهم وتوثقى صلاتك بهم ، منعا للوحدة التى تجر القلق فى أذيالها .

٤ - ضعى برنامجا للغد قبل أن تأوى الليلة الى فراشك . لقد اتضح للمدرسة أن كثيرات من الزوجات يشعرن كأنهن مدفوعات الى الدوران فى حلقة مفرغة من الأعمال المنزلية التى يتحتم انجازها ، دون أن ينجزن عملا يذكر . ذلك لأنهن يتعجلن ويسابقن الوقت . ومن ثم أقترحت المدرسة علاجاً لهذه العجلة ، وما يأتى فى ركابها من القلق ، أن ترسم الزوجات كل يوم برنامج اليوم البتالى فماذا كانت النتيجة أنجزت الزوجات عملاً أكثر من ذى قبل وقل تعبهن أيضاً عن ذى قبل ، واحسسن بالراحة لأن الوقت انفسح أمامهن لانجاز أعمالهن ولنيل قسط من الراحة ، والاهتمام بمنظرن . ان كل سيدة ينبغى أن تخصص من يومها جانباً للتزين ، والعناية بمنظرها . ورأى الخاص أن اطمئنان السيدة الى جمال منظرها . وأناقاة ثيابها ، يتناسب عكسياً مع القلق ، أى كلما زاد هذا قل ذلك .

٥ - وأخيراً .. تجنبى التعب . استرخى .. فلا شئ يعجل بذبول شبابك وحيويتك مثل التعب . لقد ظلت سكرتيرتى ساعة فى مدرسة بوسطن ، تستمع الى الأستاذ « بول جونسون » مدير المدرسة ، وهو يشرح مبادئ الاسترخاء - التى أسلفنا ذكرها - ويدرب الطالبات عليها فلم تمض عشر دقائق على بدء تجارب الاسترخاء حتى كانت سكرتيرتى أشبه بالنائمة فى جلستها ! فلماذا تهتم المدرسة بتعويد طلبتها الاسترخاء ؟ لأنها تعلم - كما يعلم الأطباء - أن الاسترخاء من العوامل الرئيسية لمحو القلق .

نعم ، انك بوصفك زوجة ، ينبغى لك ان تسترخى ، وان لك

مزية يحسن بك أن تستغليها ، تلك انه يمكنك أن تستلقى متى شئت ، بل أكثر من هذا انه يمكنك أن تستلقى على الأرض . نعم . فمهما يبدو هذا القول عجبا الا أن الأرض — الأرض الصلبة الجامدة — هي أنسب للاسترخاء من مخدع مكسو بالحريير .

واليك بضعة تهرينات تستطيعين ممارستها في البيت . مارسها مدة أسبوع ، ثم انظري اية نتيجة سوف تجديها على منظرک ورشافتك :

(أ) استلقى على الأرض كلما أحسست بالتعب ، وارخي العنان لجسمك ليملاً أطول حيز ممكن ، وتقلبي حول نفسك اذا أردت — كما يفعل الأطفال — افعلی هذا مرتين في اليوم .

(ب) اغمضي عينيك وأنت في ضجعتك تلك — وقولي في نفسك همسا ، شيئاً كهذا الذي يقترحه الأستاذ جونسون : « السماء زرقاء صافية ، والشمس مشرقة ساطعة ، والطبيعة هادئة ساكنة ، وأنا — ابنة الطبيعة — كأني والطبيعة أنشودة واحدة » أو اذا شئت ، ابتهلي الى الله واضرعي همسا وأنت مغمضة للعين .

(ج) اذا لم يسبغك أن تستلقى على الأرض لأنك تركت اللحم على النار — مثلاً — ففى وسبغك ، على الأقل أن تجلسي برهة على كرسى ويحسن أن يكون خشبياً ، مستوى القاعدة — اجلسي على هذا المقعد كتماثيل الفراغة ، وضعي راحتي يديك على ركبتك .

(د) والآن .. اشددى أصابع قدميك الى أعلى بأقصى ما تستطيعين ثم ارخيها .. وكرري هذه العملية مع سائر أعضاء جسمك : اشددى عضلاتها الى الأعلى ، بأقصى ما تستطيعين ، ثم ارخيها حتى اذا وصلت الى عنقك أديري رأسك دورة كاملة ببطء وقوة ، ثم دعيه يسترخى .

(ه) هدئي أعصابك باجذاب أنفاس عميقة منتظمة . ان رجال « اليوجا » الهنود كانوا على حق حين قالوا : « ان التنفس المنتظم هو أعظم اكتشاف لتهدئة الأعصاب » .

(و) تخيلي التجاعيد المرسمة على وجهك ، ثم اعمدي الى ازالتها . . تخيلي التجميدة المرسمة بين حاجبيك ، ثم امحيها من مخيلتك وكذلك افعلی بالتجاعيد المرسمة حول فمك . افعلی هذا مرتين في اليوم ، فربما أتى عليك وقت تستطيعين فيه الذهاب الى « صالون » للتجميل أو التدليك وربما استطاع الانشراح الداخلي أن يزيل آثار الانقباض الخارجي ويحوها محوا .

الفصل السادس والعشرون

التزم في عملك هذه العادات الأربع

تتق الاعياء والقلق

١ - اخل مكتبك مما عليه من اوراق خلا ما كان منها متعلقا
بالمسألة التي بين يديك .

يقول « رولاند وليمز » رئيس « شركة سكك حديد شيكاغو
والشمال الغربى » : « سوف يلمس الرجل الذى يكدس الأوراق
فوق مكتبه اكواما ، الفرق الشاسع بين انتاجه الراهن ، وانتاجه
فيما لو أخلى مكتبه مما يغطيه من الأوراق والملفات باستثناء ما هو
متعلق بالمسألة التي بين يديه » .

ولو انك زرت مكتبة « الكونجرس » فى واشنطنجتون . لرايت
خمس كلمات للشاعر « بوب » منقوشة على سقفها . وهى
« النظام هو القانون الالهى الاول » . وأولى بالنظام ان يكون
القانون الاول فى « العمل » ، فهل هو كذلك ؟ كلا مع الأسف :
فمكتب الموظف العادى مغطى بأكداس من الأوراق لعله لم يلق
نظرة على احداها منذ أسابيع . وقد حدثنى صاحب جريدة تصدر
فى « نيواورليانز » بأن سكرتيره عمد يوما الى تنظيف مكتبه ،
فعثرت على « آلة كاتبة » كان افتقدها منذ سنين ، مغمورة بين اكوام
الأوراق التي تغطى سطح مكتبه ! ان مجرد التطلع الى مكتب
يموج سطحه بالرسائل ، والملفات ، والتقارير ، والمذكرات ، لكفيل
ببث التوتر والانتباض ، والقلق فى النفس . بل انه كميل بأكثر
من هذا ، فان مواصلة الانشغال بمائة مسألة ومسألة فى آن معا ،
لخليق بأن يجر عليك ضغط الدم المرتفع ، واضطراب القلب وقرحة
المعدة ايضا ، فضلا عن التعب والقلق .

٢ - افعل الأهم فالهم :

يقول « هنرى دوغترى » مؤسس « شركة خدمات المدن »

cityservicecompany : « ان ثمة شيئين لا يشتريان بالمال : القدرة على التفكير ، والقدرة على انجاز الأشياء بحسب ترتيبها في الأهمية » .

وصرح « تشارلى ليمان » — الذى نشأ بسببته . ثم وصل فى مدى اثنتى عشرة سنة الى منصب مدير شركة «بيسوديت » ، وأصبح يتقاضى مرتبا قدره مائة ألف دولار فى العام — بأنه مدين بنجاحه الباهر الى هاتين المقدرتين اللتين قال عنهما « دوفرتى » انهما لا تشتريان بالمال ، فقد كان يستيقظ فى الخامسة صباحا ويرسم لنفسه برنامج يومه مقدما الأهم على المهم .

وأنا أعلم من تجاربى ، أن المرء عاجز فى أغلب الأحيان ، عن انجاز الأشياء بحسب درجتها فى الأهمية ، ولكنى أعلم كذلك أن وضع برنامج مرتب بقدر الامكان — من حيث درجة الأهمية — أفضل بكثير من مواجهة الأعمال ارتجالا .

ولو أن «جورج برناردشو» لم يرسم لنفسه برنامجا قدم فيه الأهم من الأشياء على المهم ، لكان الأرجح الا يذيع صيته ككاتب ، وان يقضى طوال عمره كما كان صرافا فى « بنك » . وكان أول ما يتضمنه برنامج اليومى كتابة خمس صفحات .. وقد أوصله دأبه على تنفيذ هذا البرنامج الى الغاية التى ينشدها .

٣ — اذا ظهرت لك مشكلة ، فاعمد الى حسمها فور ظهورها .
لا تؤجل قرارا تستطيعه اليوم الى غد .

حدثنى « ه . ب هاول » أحد طلبتى السابقين ، انه حين كان عضوا فى مجلس ادارة « شركة الولايات المتحدة للصلب » رأى ان القرارات التى تتخذ فى المجلس قلة ضئيلة بالقياس الى المسائل المعروضة للبحث ، وكان من جراء ذلك ان أصبح كل عضو يصطحب معه فى نهاية الاجتماع حزمة من الأوراق والقرارات ليعكف على دراستها فى البيت . وعندئذ اقترح « هاول » على

المجلس أن تطرح المسائل على المجلس واحدة فواحدة ، بشرط أن لا تطرح مسألة حتى يتخذ قرار حاسم في المسألة التي تسبقها .
واخذ المجلس برأى « هاول » فكانت النتيجة أن انجز أكثر المسائل التي طال بحثها وتأجيلها ، ولم يعد العضو يضطر الى حمل حزمة من المستندات ليفحصها في بيته ، وتلاشى القلق الناشئ عن تراكم المسائل بعضها فوق بعض .

٤ — تعود النظام ، والركون الى الغير ، والاشراف :

كثيرون من رجال الأعمال يحفرون قبورهم بأظافرهم لأنهم يقضون حياتهم دون أن يتعلموا الركون الى غيرهم ، ولأنهم يصرون على أن يتموا كل شيء بأنفسهم . نعم ، أن من الصعب القضاء المسئوليات على عاتق الغير ، وخصوصا اذا كان هذا « الغير » غير كفاء لها ، لكن الركون الى الغير لاغناء عنه لرجل الأعمال اذا أراد أن يتفادى الاعياء والتوتر والقلق . فالرجل الذي يؤسس عملا ، ثم لا يتعلم كيف ينظمه ، ويوزع اعباءه على الغير ، بينما يشرف هو على ادارته ، غالبا ما تراه في الحلقة الخامسة من عمره اشبه بشيخ فان ، من فرط ما ركبه من القلق والتوتر .

الفصل السابع والعشرون

كيف تتخلص من السم

السم من العوامل الأساسية المسببة للقلق . وللدلالة على ذلك خذ « اليس » مثلا . . و « اليس » هذه فتاة عاملة — أية فتاة عاملة — تسكن في الشارع الذي تسكن أنت فيه . . انها تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة ، فاذا ذهبت الى بيتها مع غروب الشمس القيتها متعبة مرهقة ، يبدو عليها التخاذل والاعياء في مشيتها ، وعلى قسماات وجهها . ولا يكاد يحتويها المنزل حتى تعلن لذويها انها ذاهبة الى فراشها دون أن تنتظر العشاء ، وتتوسل اليها أمها أن تطعم شيئا ، فترجع عن عزمها بعد الحاح وتجلس الى المائدة وما زال الاعياء واضحا على محياها . وفجأة يدق جرس التليفون : واذا المتكلم فتاها الحبيب يدعوها لقضاء السهرة في المرقص . وعندئذ تلمع عيناها ، ويدب النشاط في أوصالها وتثب وثبا الى غرفتها فترتدى رداءها الأزرق الأنيق ، وتمرق كالسهم خارجة من البيت ، وتظل خارج البيت الى الثالثة صباحا ، ترقص ، وتمرح ، وتلهو . . فاذا عادت الى البيت أنكرتها . انها ليست تلك الفتاة التي عهدتها قبل ساعات ، متعبة ، مرهقة تغالب النوم وتعزف عن الطعام . انها في هذه اللحظة ، وقد أوشك الصبح أن يتنفس ، تتوسل الى النوم ، فتقصيه عن أجفانها فرحة تعمر القلب ، ونشوة تملأ النفس ! .

أكانت « اليس » حقا ، منذ ثمان ساعات ليس الا ، متعبة ، مرهقة ، كما خلقتها ؟ نعم . وكان مبعث تعبها تبرمها بعملها ، وربما تبرمها بالحياة اطلاقا . ولهذه الفتاة « اليس » في الحياة نظائر وأشباه ، من الجنسين ، يعدون بالملايين . وقد تكون أنت واحدا منهم .

ان من الحقائق المعروفة أن اتجاهك الذهني أعمل في جلب

الاعياء من الجهود الجسماني الذي تبذله . ومنذ بضع سنوات كتب الدكتور « جوزيف بارمال » في مجلة « أرشيف علم النفس (١) » مقالا ضمنه وصفا لبعض تجارب اجراها لمعرفة اثر السام في اجتلاب الاعياء . فقد عقد الدكتور بارمال لبعض طلبته سلسلة من الامتحانات في مواد تثقل عليهم ، ولا تحبها نفوسهم فماذا كانت النتيجة ؟ لقد احس الطلاب وهم يقرأون تلك الامتحانات بالتعب ، وغالبهم النعاس ، وشكا فريق منهم صداعا الم به ، وشكا فريق آخر المسا في عينيه ، بل شكّا فريق ثالث اضطرابا في معدته . فهل كان كل ما شكّا منه هؤلاء الطلاب مجرد أوهام ؟ كلا . فقد أخذت عينات من دماء هؤلاء الطلاب وهم يؤدون تلك الامتحانات . فدل فحصها على أن ضغط الدم في الجسم ، وامتصاص الاكسجين به يقلان فعلا عندما يحل السام في نفس انسان ، فان زال السام عادت عمليات الجسم الى سيرتها الطبيعية .

ونحن قلما نحس بالضجر حين ننشغل بأمر يلذ لنا : ومن امثلة ذلك أننى ذهبت في اجازة ، الى آجام كندا المنتشرة حول « بحيرة لويز » ، وامضيت هناك بضعة أيام اتمتع بالصيد على شاطئ « خليج كورال » وأشق طريسي وسط الأحراش ، واتسلق جذوع الأشجار التي تسد الطريق . ولكننى ، بعد مضي ثمانية أيام على تلك الحال ، لم احس بالتعب قط . . لماذا ؟ لأننى كنت مبتهجا منشرحا . ولكن ، هب أننى تبرمت بالصيد ، فترى كيف يكون احساسى ؟ كنت ولا شك أستشعر التعب مما بذلته من مجهود شاق على ارتفاع سبعة آلاف قدم من سطح البحر .

وحينما كان الدكتور « ادوارد ثوروندايك » ، الاستاذ بجامعة كولومبيا ، يجرى تجاربه على القلق ، كان يغرى الشاب بالبقاء مستيقظين أسبوعا كاملا تقريبا ، وذلك بأن يعهد اليهم بمزاولة أعمال تلذ لهم . فلما انتهى من تجاربه صرح بقوله : « ان السبب

الأصيل في نقص انتاج المرء هو احساسه بالسأم من العمل الذي يزاوله « فحيث تكون اللذة في العمل ، يكون النشاط ، وتكون القدرة على بذل الجهد . وقد يثقل عليك ويرهقك أن تسير عشرة أمتار بصحبة زوجة « مشاكسة » تصطنع لك النكد صباح ومساءً ، في حين يخف عليك أن تسير أميالا برفقة من تبادلك الحب والوداد! .

فماذا يتعين عليك أن تفعل اذن ؟ انظر الى ما فعلته فتاة كانت تعمل على الآلة الكاتبة في إحدى شركات البترول بمدينة «تلسا» بولاية اوكلاهوما .. كان يتعين على هذه الفتاة أن تعكف أياما من كل شهر على ملء استمارات مطبوعة بالأرقام والاحصاءات . وكان هذا العمل يثقل عليها ويضجرها ولكنها اعترمت يوما — كوسيلة للدفاع عن النفس ! — أن تحيل هذا العمل البغيض الى عمل ممتع مسل . كيف ؟ راحت تعقد لنفسها مسابقة كل يوم . كانت تحصى . « الاستمارات » التي ملأتها في اليوم السابق وتعتزم أن « تحطم » الذي ضربته بالأمس ! وهكذا كانت في كل يوم تتفوق على نفسها ، وتبذل مجهودا يفوق بكثير مجهود اليوم السابق . وكانت النتيجة أن أنجزت من هذه « الاستمارات » البغيضة أكثر مما في وسع أي زميلة لها أن تنجزه ، فماذا أجدي عليها هذا ؟ اطراء ؟ كلا ! .. شكر ؟ كلا ! . ترقية ؟ كلا .. وانما وقاها القلق الناشئ عن الضجر والسأم ، ومنحها راحة ذهنية . واقبالا على العمل وقد تسألني أنت ايها القارئ كيف عرفت القصة وأقول لك ان السبب بسيط .. لقد تزوجت أنا هذه الفتاة ! .

فاذا كان عمك بغيضا اليك ، ولا يسعك أن تجعله مسليا حقا ، أو ممتعا فعلا ، فأقبل عليه « كما لو كان » ممتعا ، وسوف ترى انه ، مع الوقت ، سيلذ لك حقيقة لازعما .

وفلسفة « كما لو كان » ، فلسفة يقرها علم النفس الحديث ، ويؤمن بها ، فقد نصحنا العالم النفساني « وليم جيمس » بأن نبو « كما لو كنا » شجعانا ، فتواتينا الشجاعة ، أن نتصرف « كما لو كنا » سعداء ، فتغمرنا السعادة ، وهلم جر .

أقبل على عمك اذن « كما لو كنت » تلقي فيه متعة ولذة .
وسوف يحقق لك تكلف المتعة ، واصطناع اللذة ، متعة حقيقية ،
ولذة واقعية .

روى لى « ه . ف . كالتنبورن » — المعقب الشهير على
الأخبار — كيف أحال عملا بغيضا الى نفسه الى عمل ممتع مسل .
محين كان فى العشرين من عمره ، عبر الاطلنطى على ظهر سفينة
لشحن الماشية ، اشتغل فيها مشرفا على اطعام الماشية وسقيها ،
فلما هبط الى انجلترا ، طاف بأرجائها وبلدانها على دراجة ، ثم
وصل الى باريس وهو فى غاية الفاقة والبؤس . وهناك « رهن »
آلة تصوير كانت معه لقاء خمسة دولارات ، دفعها اجرا لاعلان
نشره فى الطبعة الفرنسية من جريدة « نيويورك هيرالد » يطلب
عملا . واثمر الاعلان فاشتغل موزعا « بالعمولة » لدى الاطفال .
وبدا كالتنبورن يطرق بيوت اهل باريس وهو لا يعرف حرفا من
اللغة الفرنسية . وبرغم ذلك ، فقد بلغت « عمولته » فى العام
الاول خمسة آلاف دولار ، وأصبح واحدا من أكثر البائعين نجاحا
فى فرنسا جميعا ! .

ككيف تسنى له أن يصبح بائعا ناجحا على جهله باللغة الفرنسية؟
لقد كان يسأل رئيسه أن يكتب له باللغة الفرنسية كل العبارات
التي سوف يحتاج اليها فى مهمته كبائع ، ومن ثم أخذ يحفظها عن
ظهر قلب . ثم كان يقصد الى بيت أحد الفرنسيين ، ويطرق الباب ،
فتخرج له الزوجة ، وهناك تناسب من فم « كالتنبورن » العبارات
المحفوظة فى لهجة غريبة مضحكة ، فيعرض عليها بضاعته من
اللعب ، فاذا وجهت اليه سؤالا هز كتفيه وقان : أنا أمريكى . .
ولا أعرف الفرنسية « ثم ينزع قبعته ويشير الى السيدة والى
ورقة داخلها العبارات المحفوظة التي اسمعها لها . . وهناك
تضحك السيدة ملء شديقتها ، فيضحك هو بدوره ، ويعرض عليها
المزيد من اللعب ! .

ولقد أصرح لى كالتنبورن بأن ذلك العمل لم يكن سهلا ولا

ميسورا ، ولكن شيئاً واحداً شجعه على المضي فيه ، ذلك هو عزمه على أن يجعل من هذا العمل تسلية ممتعة . كان يقف تجاه المرأة كل صباح ، ويحدث نفسه قائلاً : « اسمع كالتنبورن ، لا بد لك من مزاوله هذا العمل اذا أردت أن تعيش . فاذا كان لا بد من مزاولته ، فلماذا لا تجعل منه شيئاً مسلياً ؟ لماذا لا تتخيل نفسك في كل مرة تطرق فيها باب واحد من العملاء كأنك ممثل على خشبة المسرح ، وكأن سكان البيت هم المتفرجون ؟ لماذا لا تستجمع في هذا العمل أقصى حماسة ممكنة ؟ » .

وعندما سألت مستر كالتنبورن هل من نصيحة يقدمها للشباب المتلهف على النجاح ؟ قال : « نعم . قل لهم أن يتحدثوا كل يوم الى انفسهم — كما كنت أفعل — ففى هذا تدريب ذهنى يحفز على العمل ويشحذ الهمم » .

أترى أن حديث الانسان لنفسه عمل سخيف اليبق بالأطفال؟ كلا . على العكس . انه متفق تماماً مع أصول علم النفس الحديث . فإن « حياتنا من نسج افكارنا وخواطرننا » وأنت بحديثك الى نفسك كل صباح ، تستطيع أن تزود نفسك بخواطر الشجاعة ، والسعادة ، والقوة ، والسلام . بحديثك الى نفسك عن الأشياء اللى تستحق أن تشكر الله عليها ، تملأ ذهنك بخواطر البهجة والانشراح .

فماذا ملأت ذهنك بالأفكار الصحيحة ، وسعك أن تستمتع بأى عمل مهما كان ثقيلًا عليك ، نعم . ان رئيسك يريدك أن تستمتع بعملك فتقبل عليه ليجنى هو منه الأرباح الكثيرة ، ولكن دعك مما يريده رئيسك ، فكر تماماً فيما يجديه عليك الاستمتاع بعملك من ثمرات . وذكر نفسك بأن المتعة اللى تلقاها فى عملك قد تضاعف حظك من السعادة فى الحياة ، بل تجديك بمرور الأيام ، رقيقاً فى المركز الذى تشغله . وجزالة فى الريح .

الفصل الثامن والعشرون

كيف تتجنب القلق الناشئ عن الأرق

هل يحتاجك القلق اذا أصابك الأرق واستعصى عليك النوم؟
اذن فقد يدهشك ان تعلم ان « صمويل أنرمير » - المحامي الذائع الصيت - لم يحظ في حياته بنومة هادئة واحدة ! فحين التحق صمويل بالجامعة كان يشكو علتين : الربو . الأرق . ولم يكن يلوح له على ان هاتين علتين أنهما ستفارقانه . من أجل ذلك حول صمويل على استخلاص ما عساه يكمن من الخير في علته ، لقد كان اذا اراد النوم فاستعصى عليه لم يلحف في الطلب ، بل يقوم الى مكتبه وينكب على الدراسة . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد تخرج حائزا على مرتبة الشرف ، واصبح مفخرة جامعة نيويورك . ولازمه الأرق ، حتى بعد ان تخرج في الجامعة ، ومارس المحاماة ، ولكنه لم يمثل للقلق مطلقا . وعلى الرغم من ضالة حظه من النوم كان محتفظا بصحته ، وظل قادرا على بذل الجهد ، بل انه كان يبذل مجهودا يفوق ما يبذله أقرانه من المحامين . ولا عجب فقد كان يعمل بينما زملاؤه نيام ! .

فلما بلغ صمويل الحادية والعشرين من عمره كان دخله السنوي يقدر بخمسة وسبعين ألفا من الدولارات . وفي عام ١٩٣١ ، تناضى في قضية واحدة مليوناً كاملاً من الدولارات ! وقد عبر هذا الرجل حتى بلغ الحادية والثمانين . . ولكن الأرجح انه لو استجاب للقلق واستسلم للهواجس لحطم حياته مبكرا .

ورغم أننا نقضى ثلث حياتنا نياما ، الا ان احدا منا لا يعرف ما هو النوم ، وما حقيقة . كل ما نعمله ان النوم « عادة » اعتدناها ووسيلة ابتدعتها الطبيعة لراحة اجسامنا ، ولكننا لانعلم هل يتحتم علينا ان ننام على الاطلاق ، فقد حدث في خلال الحرب العالمية

الأولى أن أصيب «بول كيرن» ، وهو جندي مجرى ، برصاصة اخترقت مقدم مخه . وشفى الجندي من إصابته ، ولكنه . لفرط العجب . لم يعد ينام ! وجرب الأطباء معه كل ما عرف من عقاقير منومة ، بل جربوا المخدرات ، والتنويم المغناطيسى ، فلم يجدهم هذا كله فتيلًا ، وقال الأطباء انه لن يعمر طويلا ، ولكنه عمر . . فقد التحق بعمل ، وواصل حياة صحيحة معافاة مدى سنوات طوال . فكان « بول كيرن » كان لغزا طبيا قلب معتقداتنا رأسا على عقب . ولعل القلق الذى يصاحب الأرق هو أخطر بكثير من الأرق ذاته .

فلقد أجرى الدكتور « ناتانيل كليتمان » . الاستاذ بجامعة شيكاغو ، تجارب تفوق الحصر على النوم ، صرح بعدها بأنه لم يرقط انسانا مات أرقا . نعم يستطيع المرء أن ينفشل بالأرق ، ويستتيت للقلق حتى يفقد صحته ويصبح فريسة سهلة للأمراض ، ولكن القلق في هذه الحالة ، هو المسئول لا الأرق ! ويقول الدكتور « كليتمان » كذلك ان معظم القلقين على الأرق ينامون في الواقع ، أكثر مما يظنون . ومن الأمثلة على ذلك ان واحدا من أفاذا المفكرين في القرن التاسع عشر ، هو « هربرت سبنسر » وكان أعزب ، عجوزا ، يعيش وحيدا في غرفة بأحد الفنادق — كان لا يفتأ يشكو الى كل من يلقاه بأنه لا ينام من الليل شيئا ، وان الأرق يأخذ بخناقه فلا يفلته ساعة من الليل . وكان يعمد أحيانا الى سد أذنيه ، حتى لا يسمع صوتا ، أو يتعاطى الأفيون ليحلب له النوم . . وفي ذات ليلة قضى هو والأستاذ سايبس — بجامعة أكسفورد — ليلتهما في غرفة واحدة بأحد الفنادق ، وفي الصباح التالى شكوا « سبنسر » كعادته ، من أنه لم يغمض له جفن طوال الليل ، والواقع ان الأستاذ « سايبس » كان هو الذى لم تغمض له عين . فقد حال شخير « سبنسر » المتواصل بينه وبين النوم ! .

وأول متطلبات النوم المريح ، الاحساس بالسلام والطمأنينة ، وفي ذلك يقول الدكتور « توماس هايسلوب » : « ان من أهم مقومات

النوم التي عرفتھا في خلال سنين طويلة قضيتها في الخبرة والتجارب ، هو الصلاة ، وأنا ألقى هذا القول بوصفى طبيبا ، فان الصلاة أهم أداة عرفت الى الآن لبث الطمانينة في النفوس ، وبث الهدوء في الأعصاب .

فاذا لم تكن رجلا متدينا ، فتعلم الاسترخاء بالوسائل الطبيعية . ويقترح الدكتور فنك أن نضع وسادة تحت ركبتينا لتخفيف التوتر على عضلات الساقين ، وأن نضع وسادتين تحت الذراعين لهذا السبب عينه ، ثم نبدا فنأمر الفكين ، فالعينين ، فالذراعين فالساقين ، على التوالي بالاسترخاء فلا نلبث أن نستغرق في النوم دون أن ندري سبب ذلك ، ولقد جربت ذلك بنفسى ، ولهذا أشهد بصحته .

ومن الوسائل المفضلة لعلاج الأرق ، الاجهاد البدنى بمزاولة رياضة كالسباحة أو « التنس » أو « الجولف » أو الانزلاق ، أو بمزاولة تمارين رياضية أيا كانت ، تحس بعدها بالتعب . . . فاذا كنت على قدر من التعب يوجب الراحة ، فثق أن الطبيعة سترغمك على النوم ، حتى لو كنت يقطا . نعم ، فان المتعبين ينامون على صوت الرعد بل على دوى القنابل ، وعلى مرأى ومسمع من الخطر الذى يداهمهم ، حدثنى الدكتور « فوستر كينيدي » أخصائى الأعصاب الشهير ، أنه رأى في خلال انسحاب الجيش الخامس الانجليزى ، جنودا نال منهم التعب كل منال ، حتى سقطوا على الأرض في شبه غيبوبة ، ولم يستيقظوا رغم ما بذله معهم من جهود .

اننا لم نسمع حتى الآن عن شخص « انتحر أرقا » ولا نظننا سنسمع عن مثل هذا الشخص في المستقبل ، فالأرق لا يقتل ، والطبيعة ترغم كل انسان على النوم متى أدركه التعب .

والحديث عن الانتحار يذكرنى « بحالة » وصفها الطبيب النفسانى الدكتور « هنرى لنك » في كتابه « الانسان يكتشف من جديد » فقد أورد الدكتور لنك في الفصل الذى عنوانه « التغلب على المخاوف والقلق »

قصة مريض كان يبغي الانتحار ، وأدرك الطبيب ان الجدل معه لن يجدى ، بل ربما زاد الجدل الطين بله ، فقال للرجل : « اذ كنت معترما الانتحار ، على أية حال ، فالأخلق بك أن تموت كما يموت الأبطال . اجر حول الحى الذى تقطنه ، وواصل الجرى حتى تسقط ميتا » .

وفعل الرجل ما نصحه به الطبيب ، لا مرة واحدة . بل جملة مرات ، وفى كل مره كان يشعر بالتحسن لا فى حالته الذهنية وحسب ، بل فى حالته الصحية أيضا ، وفى الليلة الثالثة ، بعد عدة محاولات من هذا القبيل ، القى بنفسه من الاجهاد بحيث وقع فى نوم عميق ، وقد التحق هذا المريض ، بعد ذلك بأحد الأندية الرياضية ، وبدأ يدخل مباريات الجرى ، ولم يلبث أن وجد الحياة التى كان افتقدها ! .

اذن ، لكى تتفادى القلق الناشئ عن الأرق ، اليك خمس قواعد :

١ — اذا استعصى عليك النوم ، فافعل كما كان يفعل « صمويل ارتماير » : قم الى مكتبك واكتب ، أو اقرأ ، حتى يتسلل النعاس الى عينيك .

٢ — تذكر الا أحد مطلقا مات أرقا ، وانما القلق الذى يلزم الأرق هو مبعث الضرر .

٣ — جرب الصلاة قبل النوم فانها خير أداة لبث الأمان فى النفوس ، والراحة فى الأعصاب .

٤ — أرح جسدك ، وحدث كل عضلة من عضلاتك بالاسترخاء حتى تسترخى .

٥ — زاول أحد انواع الرياضة البدنية ، فاذا شعرت بالتعب فثق أنك ستنام .

الجزء السابع في سطور

ست طرق تتيق الاعياء والقلق وتحفظ لك نشاطك وحيويتك

القاعدة رقم ١ :

استرخ قبل أن يدرك التعب .

القاعدة رقم ٢ :

تعلم كيف تسترخي وانت تزاوّل عملك .

القاعدة رقم ٣ :

إذا كنت زوجة ، فتعهدي صحتك وجمال مظهرك بالاسترخاء في منزلك .

القاعدة رقم ٤ :

اكتب هذه العادات الأربع :

(أ) اخل مكتبك مما عليه من الاوراق باستثناء ما يخص المسألة التي بين يديك .

(ب) افعل الأهم فالهم .

(ج) حين تعترضك مشكلة احسمها فور ظهورها .

(د) تعود النظام والركون الى الغير ، والاشراف .

القاعدة رقم ٥ :

لتتقى القلق والاعياء اضع الى عملك ما يزيد استمتاعك به .

القاعدة رقم ٦ :

تذكر أن احدا لم يمت ارقا ، وانما القلق الذي يلازم الأرق هو مبعث الخطر .

الجزء الثامن

كيف تحصل على العمل الذي يلائمك

الفصل التاسع والعشرون

القرار الحاسم في حياتك

(في هذا الفصل اتحدث الى الشباب — من الجنسين — الذين لم يوفقوا الى العمل الذي يلائمهم . فان كنت من هذه الفئة ، فقد تجد في هذا الفصل عونا كبيرا .)
اذا كنت دون الثامنة عشرة من عمرك ، فالأرجح أنك تقترب حثيثا من اللحظة التي يتعين عليك فيها أن تتخذ قرارين حاسمين من أخطر القرارات في حياتك . . قرارين يتوقف عليهما مجرى حياتك ، وتتوقف عليهما ، فوق ذلك سعادتك وصحتك ونجاحك .

الأول : كيف تكسب عيشك ؟

هل تصبح مزارعا ، أم مهندسا ، أم كيميائيا ، أم كاتباً على الآلة الكاتبة ، أم طبيبا ، أم استاذا في الجامعة ؟ .

والثاني : من تختارها لتكون أما (أو من تختارينه ليكون أبا) لأطفالك ؟ .

وحسم هاتين المشكلتين ، في أغلب الأحيان ، لايعدو أن يكون ضربا من المقامرة ، وفي ذلك يقول « هارى ايمرسون فوردريك » :
« كل شاب ينقلب مقامرا حين يختار لنفسه عملا يزترق منه . . انه في هذه الحالة يقامر بحياته ! » .

فهل من سبيل للحد من هذه المقامرة ؟ .

أولا — حاول ما امكك ان تجد عملا يلذ لك : ولقد سألت ذات

مرة « دافيد جودريتش » ، رئيس مجلس ادارة « شركة جودريتش لاطارات السيارات » ما أهم عوامل النجاح في العمل ؟ فأجاب « أن يجد المرء لذة في عمله ، فاذا استمتع بعمله فانه يقضى الساعات المقررة للعمل دون أن يحس بمرورها ، ويكون احساسه وهو يؤدي عمله كاحساس من يلهو » .

وقد كان « اديسون » نموذجا رائعا ينطبق عليه هذا القول ، اديسون ، بائع الجرائد ، الذى حرم التعليم في صباه ، واستطاع ، برغم ذلك ، ان يحدث انقلابا في تاريخ الصناعة الأمريكية . فقد قال يوما : « اننى لم أعمل يوما واحدا في حياتى ، بل كنت الهو » ! .

ولكن كيف لك اللذة في العمل وانت لاتدرى اى انواع العمل يلائمك ويوافق مزاجك ؟ لقد حدثتنى « مسز انداكير » ، التى كانت يوما مديرة المستخدمين في شركة « ديبونت » قائلة : « ان اكبر مأساة يواجهها الشباب ، في رأى ، هى ان الكثيرين منهم لا يعرفون اى انواع العمل يبتغون » . وقالت « مسز كير » انها لاحظت تلك الظاهرة حتى في خريجي الجامعات . فقد كان الواحد منهم يقصد انيها ويقول لها : اننى أحمل « البكالوريوس » من جامعة دار تموث (او درجة استاذ من جامعة كورنل) فهل لديك عمل لى ؟ « انه يطلب عملا — اى عمل — دون أن يدري اى انواع العمل هو كفاء لادائه ! .

ولعلك تجد شيئا من الغرابة في ادماج فصل كهذا في كتاب يعالج القلق ، والحق انه لامجال للغرابة على الاطلاق ، ومتى أدركت كم من القلق ، والضجر ، والارهاق ، يجره علينا عمل نجد الغضاضة في مزاولته ، ونفتقد فيه المتعة واللذة . واسأل من جرب . اسأل اباك ، او جارك ، او رئيسك .

فنصحتى الى كل شاب اذن هى : لاتقبل عملا ترى أنك « مرغم » على قبوله ، ولو كان هذا على حساب رغبة والديك واسرتك . لاتقبل عملا مالم تشعر في قرارتك أنك ميال اليه . ولا بأس ، مع هذا ، أن تقدر مشورتها حق قدرها . فهما قد عاشا ضعف ما عشت

أو أكثر ، وأجتمع لهما من الحكمة مالا تهيئه لك الا التجارب الطويلة ، ولكن أعلم أن القرار الحاسم ، آخر الأمر ، بين يديك أنت . فانت هو الشخص الذى سوف يهبه العمل السعادة ، أو يرديه فى هوة الشقاء .

واحب بعد هذا ان اقترح عليك الاقتراحات الآتية — وبعضها ليس مجرد اقتراحات بل انذارات — كى تستعين بها على اختيار العمل الملائم :

١ — تستطيع أن تلجأ الى ما يسمى بالارشاد المهني .

Vocational Guidance

ولا اجزم بأن هذا الالتجاء سيفيدك ، فالأمر كله متوقف على الشخص الذى تسأله النصح ومدى كفايته . فضلا عن أن هذا الارشاد المهني لم يبلغ أشده بعد ، وان كان ينتظر له مستقبل باهر . فاذا شئت الالتجاء اليه ، فابحث عن أقرب مركز للارشاد المهني واقصد اليه على أنك ينبغي أن تعلم سلفا أن كل ما سوف تحصل عليه هو مجرد « اقتراحات » ، أما اتخاذ القرار الحاسم فمن شأنك وحدك .

٢ — امتنع عن الوظائف والأعمال التى غصت بالعاملين حتى

فاضت .

ان هناك آلاف الطرق المختلفة للحصول على الرزق ، ولكن أتدرى ما الذى يحدث غالبا ؟ خذ طلبة جامعة واحدة مثلا . لقد اختار ثلثا هؤلاء الطلبة خمس وظائف وحسب . . خمس وظائف من عشرين الف وظيفة عرضت عليهم للاختيار ! ومعلت أربعة أخماس الطالبات بالجامعة الشيء نفسه . فلا عجب اذن أن قليلا من الأعمال والوظائف تغص بالعاملين فيها .

ولا عجب أن يتكاثر القلق وتتفشى الأمراض النفسية ، فى

طائفة ذوى « الياقات البيضاء » (١) . فحاذر أن تدلى بدلوك فى
الميادين الغاصة بمرتاديهها ، كالحمامة ، والصحافة ، والاذاعة ،
والسينما .

٣ — تجنب الأعمال التى ترى أن فرص النجاح فيها ضئيلة
وانفق الأسابيع بل الأشهر ، إذا لزم الأمر فى التجرى والاستعلام
ودراسة كل ما يتعلق باحدى الوظائف قبل أن تكرس لها حياتك .

تستطيع ، مثلا ، أن تقابل بعض الرجال الذين انفقوا فى تلك
الوظيفة عشرين أو أربعين عاما من أعمارهم ، فقد يكون لهذه
المقابلات اثر عميق فى تكوين مستقبلك . وكيف يتسنى لك أن تتم
هذه المقابلات ؟ سأضرب لك مثلا . افترض أنك تفكر فى أن تصبح
مهندسا معماريا ، فقبل أن تتخذ قرارك الحاسم ، عليك أن تنفق
اسبوعين فى مقابلة المهندسين المعماريين فى بلدتك والبلدان المجاورة .
وفى استطاعتك أن تقصد اليهم فى مكاتبهم ، بعد أن تضرب لهم موعدا
فاكتب لهم شيئا كهذا : « اكون شاكرا لو تفضلتم باسداء يد لن أنساها
لكم . اننى اطلب النصح . فانا شاب فى الثامنة عشرة ، وافكر جيدا
فى أن أدرس لى أصبح مهندسا معماريا ، واود قبل أن اتخذ قرارا
حاسما أن أسالكم النصح ، فاذا كان العمل يملأ كل وقتكم فى المكتب ،
فاننى اكون جد شاكر لو اوليتمونى شرف مقابلتكم فى البيت ، وهذه
هى الاسئلة التى أرجو أن تجيبونى عليها :

« ا — لو أنك تبدأ حياتك من جديد . اكنت تشتغل مهندسا
معماريا مرة أخرى ؟ .

« ب — هل مهنة الهندسة المعمارية مكتظة بالعاملين فيها ؟ .

« ج — لو أننى درست الهندسة المعمارية أترى يصعب على
أن أجد عملا ؟ .

(١) ذوو الياقات البيضاء (White Collar) تعبير امريكى يطلق على
اولئك الذين يزاولون عملا رتبيا لا يخطف يوما عن يوم ويتطلب منهم الجلوس
الى مكاتبهم زمنا معيناً كل يوم .

« د — اذا كنت ذا مقدرة متوسطة ، فكم ترى يكون دخلى فى السنوات الخمس الاولى من اشتغالى ؟ .

« هـ — هل من مميزات ، وهل من عيوب ، فى مهنة الهندسة؟ .

« و — لو ائنى كنت ولدك ، اكنت تختار لى ان اكون مهندسا معماريا ؟ » .

فاذا كنت خجولا ، وترددت فى مقابلة « شخصية شهيرة » فاليك اقتراحين يساعدانك على اتمام هذه المهمة :

الاول — اصطحب معك شابا من سنك . فسوف يشجع احدكم الآخر على مواجهة الموقف ، فاذا لم تجد صاحبا من سنك ، فاطلب الى والدك ان يصحبك .

الثانى — تذكر انك بسؤالك رجلا عظيما النصيحة . انك تعترف ضمنا بقيمته وقدره ، والارجح انه سيتولاه الزهو حين تساله النصيح ، واذكر كذلك ان الرجال يحبون دائما ان يوجهوا النصيح الى الشبان والاحداث .

فاذا ترددت فى كتابة خطاب تضرب فيه موعدا لرجل فاقصد الى مكتبه فى غير موعد ، وقل له انك تكون شاكرا لو تفضل واسدى لك نصيحة سوف تذكرها دائما .

وافترض انك اتصلت بخمسة من المهندسين فالتقيتهم جميعا فى شاغل عن مقابلتك (وهو امر بعيد الاحتمال) فاتصل بخمسة غيرهم ، فلن تعدم واحدا منهم يرضى بمقابلتك ، واذكر دائما انك تتخذ احد قرارين حاسمين فى حياتك ، فاعط نفسك ما شئت من الوقت لتقصى الحقائق قبل ان تتخذ القرار الفاصل ، وقبل ان يتولاك الندم حيث لا ينفخ الندم .

فكل شخص عادى يسعه ان ينجح فى جملة اعمال ، وكل شخص عادى يمكن ان يخفق فى كثير من الاعمال ، فهناك انا . .

فأنتى أعتقد أن فى وسعى ادراك النجاح ، وادراك المتعة فى العمل أيضا ، لو أنتى زاولت الأعمال الآتية : الزراعة ، الطب ، الإعلان ، تحرير صحيفة اقليمية ، التعليم ، كما أعتقد ، من ناحية أخرى ، أنتى كنت أفضى العمر تعسا شقيا ، فأشلا لو زاولت هذه الأعمال : امسك الدفاتر ، الهندسة ، ادارة فندق او مصنع ، الهندسة المعمارية فضلا عن جميع الأعمال الآلية ، ومئات أخرى من أوجه النشاط الأخرى ! .

الجزء التاسع

كيف تزيل مناعبك المالية

الفصل الثلاثون

٧٠٪ من القلق تسببها المتاعب المالية

لو اننى اعرف كيف أحل لكل فرد مشكلته المالية لما كتبت هذا الكتاب ، ولكن الأرجح أن يكون مكانى فى البيت الأبيض ، الى جوار رئيس الجمهورية مباشرة ؛ ولكن شيئا واحدا يمكنى أن افعله ذلك انى أستطيع أن احييك الى مراجع موثوق بها فى هذا الموضوع ، أقدم اليك جملة اقتراحات عملية .

فقد جاء فى احصائية نشرتها مجلة « ليديزهوم » اليومية أن « سبعين فى المائة من القلق الذى نعانیه مرجعه الى المال »

كما جاء فى تلك الاحصائية أن معظم الناس يعتقدون أن متاعبهم تنتهى متى ازداد دخلهم بمقدار عشرة فى المائة . وقد يصدق هذا فى كثير من الأحيان ، ولكنه فى اكثر الأحيان لا يصدق .

مثال ذلك : أننى استطلعت رأى احصائية فى الميزانيات ، هى « مسز الزى ستابلتون » اشغلت سنوات طويلة مستشارة مالية لعملاء ومستخدمى متجر « واتاميكربنيويورك » وأمضت فوق هذا سنوات اخرى مستشارة مالية خاصة . تعيين القاصدين اليها على حل معضلاتهم المالية ، فقالت لى : « ان ازدياد الدخل لا يحل المشكلات المالية ، فقد رأيت أن ازدياد الدخل — فى كثير من الأحيان — يقابله ازدياد فى الانفاق ، وازدياد فى المتاعب . أما السبب الحقيقى

الذى يشكو منه القلقون على ضالة مواردهم ، فهو انهم لا يعرفون كيف ينفقون ما يحصلون عليه من المال .

وسوف يقول كثير من القراء : « كم اتمنى لو كان هذا الحكيم « كارنيجى » فى مكاتى ، لأرى كيف يسدد « الفواتير » المتأخرة ، والديون التى لم توف ، بهذا المرتب الضئيل الذى أتقاضاه . . ولقد كنت أشتغل فى احدى مزارع ميسورى عشر ساعات فى اليوم ، وكنت أتقاضى على هذا العمل الشاق . . كم تظن ؟ دولارا ؟ خمسين سنتا ؟ كلا . بل خمسة سنتات (أى نحو قرشين) وأنا أتصور كيف يقضى المرء عشرين عاما من حياته فى بيت بلا حمام ، ولا ماء جار ! واتخيل كيف ينام فى حجرات درجة حرارتها خمسين تحت الصفر ! وأعرف كيف يسير المرء أميالا ليوفر أجر « الأوتوبيس » على ضالته وأعلم كيف يدخل مطعما ويطلب أرخص صنف من الطعام ، ثم يذهب الى بيته ويضع سراويله بين « مراتب » السرير لأنه لا يملك أجر الكواء ! أعرف كل هذا وأتصوره لأننى قاسيته . . ولكنى حتى فى تلك الأيام العصيبة وسعنى أن أوفر بضعة دراهم من دخلى المتواضع . فقد علمنى ما مر بى من تجارب ، أن الوسيلة المثلى لتجنب الديون ، والمتاعب المالية هى وضع برنامج ننفق المال بمقتضاه .

اعتبر نفسك مديرا مسئولا عن عمك فى كل آن ومكان تنفق فيه من مالك الخاص .

ولكن . . أى القواعد تلتزم فى شئونك المالية ؟ وكيف تنظم ميزانيتك ؟ اليك احدى عشرة قاعدة :

١ — دون أوجه الاتفاق جميعها :

حين شرع الأديب الانجليزى « ارنولد بنيت » يمارس عمله فى لندن ككاتب روائى ، منذ خمسين عاما ، كان يحتفظ بسجل يضمه كل ما أنفقه ، والأوجه التى أنفق فيها . اتراه كان يعجب أين ذهبت نقوده ؟ كلا . بل كان يعلم أين ذهبت . وقد راقبت له تلك

الفكرة ، حتى انه دأب على الاحتفاظ بمثل هذا السجل ، بعد ان غدا كاتباً ذائع الصيت ، وثرىاً أمثلاً ، وابتاع « يخنأ » لنزهاته الخاصة . وكان « جون روكملر » (الأب) يحتفظ بدوره بدفتر يبور فيه نفقاته الخاصة ، فاذا أوى الى مخدعه حسب على التحديد كم أنفق ، وفي أى الوجوه أنفقه .

فالأجدر بك أن تحتفظ بدفتر تسجل فيه نفقاتك وأوجه انفاقها . تقول : الى آخر حياتنا ؟ كلا ليس من المحتم ، فان خبراء الميزانيات ينصحون بالاحتفاظ بمثل هذا السجل مدة شهرين على الأقل ، أو ثلاثة ان استطعنا ، فمثل هذا السجل الشامل الدقيق ، انما يطلعنا على الأوجه التى ننفق فيها مالنا ، وعلى أساسه يمكننا أن نقيم ميزانيتنا .

تقول انك تعلم فى أى الوجوه تنفق مالك ؟ حسناً . قد يكون الأمر كذلك ، ولكنك لست الا واحداً فى كل الف . لقد حدثنى مسز ستابلتون بقولها ان القاصدين اليها كثيراً ما يجهدون أفكارهم فى محاولة تذكر الأوجه التى ينفقون فيها أموالهم . فاذا دونت هذه الأوجه التى يذكرونها على ورقة ثم أطلعتهم عليها ، هتفوا مدهوشين : « أهذه هى الوجوه التى ننفق فيها مالنا ؟ » ولا يصدقون ! .

٢ — اجعل لنفسك ميزانية تتضمن كل احتياجاتك :

حدثنى « مسز ستابلتون » بقولها : انك قد ترى عائلتين تعيشان جنباً الى جنب ، وفى بيتين متشابهين . ولهما من الأطفال عدد متماثل ، وايرادهما واحد لا يختلف ، ومع ذلك فان احتياجات الواحدة منها تختلف اختلافاً جوهرياً عن احتياجات الأخرى . لماذا؟ لأن الناس مختلفون أصلاً ، ومن ثم ينبغى أن تكون الميزانية « شخصية » تلائم صاحبها دون سواه .

وليس المقصود من وراء الميزانية ان تحرم من متع الحياة ، وتروض نفسك على نبذها . كلا . بل الميزانية هى أفضل ما يحيطك

بسياج من الاستقرار المالى الذى يتوقف عليه فى كثير من الأحيان
الاستقرار النفسى .

ولكن كيف تنسق ميزانيتك ؟ أو وقبل كل شيء احص نفقاتك
واعرف أوجه الانفاق . فلذا عجزت عن الملاءمة بين « الدخل »
و « المنصرف » فاسأل غيرك النصيحة .

٣ — تحر الحكمة فى الانفاق :

واعنى بهذا أن تتعلم كيف تحصل على أفضل ما يمكن بأقل
ما يمكن من المال . وأعلم أن للشركات الكبرى خبراء مختصين
فى فن « الشراء » يتعاونون لشركاتهم أفضل ما يمكن من البضائع لقاء
المال المخصص للشراء . وانت بوصفك مديرا لأعمالك لماذا لا تتبع
خطاهم ؟ .

٤ — لا تصدع رأسك فى التفكير فى دخلك :

قالت لى « مسز ستابلتون » انها لا تخشى شيئا بقدر ما تخشى أن
يطلب اليها تنسيق ميزانية أسرة دخلها السنوى خمسة آلاف دولار .
ولما استفسرتها السبب ، قالت : « ان دخلا قدره خمسة آلاف
دولار لهو الأمل الذى يداعب معظم الأسرات . وقد تسير هذه الأسر
سنوات طويلة متحرية الحكمة ، والاتزان فى الانفاق ، حتى اذا بلغ
دخلها خمسة آلاف دولار سنويا ، ظنت انها وصلت الى شاطئ
الأمان حيث لا مبرر لحكمة أو اتزان ! فتراها تبتاع لنفسها بيتا
وسيارة ، وتجدد الأثاث وتقتنى الثياب ، ولكنها لا تلبث أن تنقلب
شقية تعسة ، حين تدرك أنها عولت أكثر مما ينبغى على ازدياد
الدخل » .

وهذا مما يتفق مع الطبيعة البشرية ، فكلنا يبنى أن يزيد دخله
من الاستمتاع بالحياة ، ولكن أيهما ، بالله أكثر اجتلابا للسعادة:
العيش فى حدود ميزانية معلومة ؟ أم توالى الرسائل علينا كل يوم
بالبريد ، يطالبنا فيها الدائنون بمالهم فى اعناقنا من ديون ؟ .

٥ — اجعل لنفسك رصيذا ينفعك وقت الشدة :

إذا اعترضك طارئ والنفيت نفسك مضطرا الى الاستدانة لمواجهة ، فان عقود شركات التأمين والسندات المالية . وأسهم شركات الادخار . كل هذه بمثابة مال بين يديك . . ولكن تأكد أولا وقبل أن تتباع شيئا من هذه السندات ، أن من الممكن الاقتراض في مقابلها وقت الشدة .

وهب انك لا تملك « بوليصة تأمين » ، ولا أسهم ، ولا سندات ، ولكنك تملك بيتا ، أو سيارة أو ما شبههما من الممتلكات ، فالى من تذهب للاقتراض ؟ الى المصرف بالطبع .

ثم هب ، انك لا تملك ما تقترض في مقابلة اللهم الا أجرك أو راتبك ، فماذا تفعل ؟ هناك جمعيات متخصصة في الاقتراض مقابل ضامن ، أو مقابل مرتبك أو أجرك ، ولما كانت هذه الجمعيات في الواقع تخاطر بأموالها مقابل ضمان غير كاف ، فانها تتقاضى ربحا أكبر من الربح القانونى الذى يتقاضاه المصرف ، وقد تزيد هذه الأرباح اذا توانيت في السداد ، ومن ثم تحقق قبل الاستدانة ، انك ستسارع بالسداد .

٦ — أمن نفسك ضد المرض ، والحريق ، والطوارئ :

ان التأمين ضد كافة أنواع الحوادث أمر ميسور لكل راغب ، لقاء أقساط زهيدة نسبيا . ولست أقترح عليك أن تؤمن نفسك ضد كافة الحوادث ابتداء من زلة قدمك في أرض الحمام ، الى اصابتك بالحصبة . كلا وانما أقترح عليك أن تؤمن نفسك ضد الحوادث الجليلة التى تعلم انها تكلفك فوق طاقتك ، وبالتالي تقتضيك كثيرا من القلق والمتاعب .

٧ — اشترط ألا يدفع مبلغ التأمين الى أرملتك نقدا :

إذا شئت أن تؤمن على حياتك بقصد تأمين حياة أسرته بعد موتك ، فلا تنص على تسليم مبلغ التأمين جملة واحدة الى أسرته

بعد الوفاة . وقد ضربت « مسز ماريون اير » — رئيسه « قسم المرأة » بمعهد التأمين على الحياة بنيويورك — مثل بأرملة سلمت ولدها عشرين ألف دولار هي قيمة تأمين زوجها على حياته ، لبدأ بها مصنعا لقطع الغيار الخاصة بالسيارات ، ولكن المشروع حاقت به الخيبة ، فكانت النتيجة أن شردت الأرملة ، وما زالت مشردة الى الآن . . . وضربت مثل أرملة أخرى اقنعتها أحد السماسرة بشراء طائفة من السندات ، بعد أن اكد لها أن سعرها سيتضاعف في امد قصير . فاضطرت الأرملة بعد ثلاث سنوات أن تبيع السندات بأقل من عشر المبلغ الذى اشترتها به .

فاذا كنت جدا حقا في حماية أرملتك وأولادك بعد موتك ، فلماذا لا تفعل مثلها فعل « ج مورجان » ، وهو واحد من أكثر الاقتصاديين الذين عرفهم العالم حكمة ؟ فقد أوصى بثروته لستة عشر شخصا ، منهم اثنتا عشرة سيدة ، فهل تراه أوصى للسيدات بمال نقدي ؟ كلا . بل أوصى لهن بسندات واسهم مضمونة تؤتى لهن دخلا ثابتا مكفولا .

٨ — علم ابنائك كيف يكونون مسئولين عن المال :

لن أنسى ما حييت مقالا قرأته في مجلة « يور لايف » لكاتبة تدعى « ستيللا وستون نثل » . فقد وصفت في ذلك المقال كيف كانت تعلم ابنتها الصغيرة أن تكون مسئولة عما تملك من مال ، فجاءت « بدفتر شيكات » من المصرف الذى تعامله ، واعطته لابنتها التى لا تزيد سنها على تسعة أعوام ، وكانت الطفلة اذا تسلمت « ايرادها » الشهرى « أودعته » لدى أمها باعتبارها المصرف : ثم اذا احتاجت الى شىء فى خلال الأسبوع ، كانت تحرر « شيكا » بالمبلغ الذى تريده ، ولا تفتأ بين الحين والحين تراجع « رصيدها » فى « المصرف » لتضمنن على كفايته . ولم تستخلص الطفلة من هذه العملية مجرد المتعة وحسب ، وانما تعلمت أيضا كيف تحافظ على مالها ، وكيف تكون مسئولة عنه .

٩ — تستطيعين يا سيدتى ، أن تستخرجى المال من موقدك :

إذا فرغت ، يا سيدتى ، من عمل الميزانية ، ورأيت أن «إيرادك» لا يمكن ملامته مع نفقاتك ، فعليك أن تختارى أحد أمرين : إما أن تمتنلى للقلق ، والهـم ، والشكوك ... وإما أن تشرعى فى اكتساب المزيد من المال لإضافته الى دخلك . وكيف ؟ سأدع مسز « نيللى سبير » تحدثك عما فعلته . ففى عام ١٩٣٢ ألفت « مسز سبير » نفسها تعيش وحدها بلا معين ، فى شقة ذات ثلاث غرف ، بعد أن توفى زوجها ، وتزوج كلا ولديها . وفى ذات يوم كانت تتناول بعض المرطبات فى حانوت للحلوى ، فرأت الى جانب المرطبات بعض الفطائر التى ينقصها الاتقان ، فسألت صاحب الدكان : هل لديه مانع من أن تزوده ببعض الفطائر المتقنة ، فطلب الرجل اليها فطيرتين بمثابة « عينة » . قالت « مسز سبير » : « وبرغم أننى طاهية ماهرة إلا أننا كنا نستخدم على الدوام طاهية ، ولا يزيد عدد ما طهوته من الفطائر فى حياتى على اثنتى عشرة فطيرة ، فلما طلب الى الرجل أن أصنع له فطيرتين ، لجأت الى جارة لى وطلبت اليها أن تصف لى كيف تعمل الفطائر ، ثم صنعت للرجل الفطيرتين بعد أن بذلت جهدى فى اتقانهما ، وأعجب الرجل — أو أعجب زبائنه — بهما ، وفى اليوم التالى كنت أعد له خمس فطائر جديدة ، وما انقضى عامان حتى كنت أعد خمسة آلاف فطيرة فى العام ، أصنعها كلها بيدي ، وفوق موقدى ، وكنت أربح من وراء هذا العمل ألف دولار فى العام » . ثم تزايدت الطلبات على « مسز سبير » فاضطرت أن تفتح محلا خاصا . استخدمت فيه فتاتين يعاونانها على صنع الفطائر ، وحين سألت « مسز سبير » هل تعتقد أن غيرها من النساء يسعهن أن يفعلن مثلما فعلت ، فوق موآقدهن ، ودون أن يتكفن شيئا . قالت بالتأكيد يستطعن ! .

والهدف الذى اسمى اليه من سرد هذه القصة هو أن « مسز سبير » هذه ، بدلا من أن تمتثل للقلق على مشكلاتها المالية ، اقدمت على أمر ايجابى جنبها القلق ، ومدتها بالمال فى آن واحد

والآن تلفتى حواليك ، فسوف تجددين ميادين كثيرة تستطيعين اقتحامها دون أن تتكلفى شيئا . فاذا وسعك أن تدريى نفسك على الطهو الجيد ، فان فى استطاعتك أن تنشئ مدرسة للطهو للفتيات فى مطبخ بيتك .

١٠ - لا تقامر :

لا يثير عجبى شىء بقدر ما يثيره أولئك الذين يأملون فى جنى المال من وراء المقامرة على خيول السباق ، أو بورق اللعب ، أو بالآت المقامرة الأخرى ، أعرف رجلا يكسب عيشه من ادارة ناد للمقامرة ، ولكى ما عهدته الا مزدريا لأولئك الحمقى الواهمين الذين بلغت بهم الغفلة الى حد الاقتناع بإمكان جنى المال من وراء المقامرة .

ولقد حدثنى رجل شهير من سماسرة المراهنات على سباق الخيل بأنه برغم وقوفه على دخائل سباق الخيل وأسراره ، لم يستطيع قط أن يجنى مالا من وراء المراهنة ، ومع هذا ، فمما يدعو الى الدهشة والأسف معا أن مجموع ما ينفقه المراهنون على سباق الخيل يبلغ ستة ملايين من الدولارات سنويا .

١١ - اذا لم نستطع أن نحل مشكلاتنا المالية فالأفضل الا نقتل انفسنا حسرة على ما ليس منه بد :

اذا لم تكن ثمة وسيلة لتحسين أحوالنا المالية ، فلا أقل من أن نعدل اتجاهنا الذهنى ، ونظرتنا الى المشكلة . دعنا نذكر أن كثيرين غيرنا يرزحون تحت أعباء مالية متنوعة فقد يسوعنا أننا لسنا فى مستوى زيد من الناس ، ولكن « زيدا » قد تكون له متاعبه ، وهمومه لأنه لم يبلغ مبلغ « عبيد » من الناس ، و « عبيد » فى آخر الأمر ، غير راض بدوره ، بل يطلب المزيد !

وكثيرا من المشاهير الذين عرفهم تاريخ أمريكا ، كانت لهم همومهم ومتاعبهم المالية ، فقد استدان لنكولن ، واستدان من بعده واشنجتون ، لينفقا على حملاتهما الانتخابية . فاذا لم يسعنا أن نحصل على كل ما ينبغى أو نريد ، فلا ينبغى أن نسهم حياتنا ،

ونعكر مزاجنا ، من فرط القلق والهم . دعنا نواجه الأمر بحكمة
الفلاسفة . قال « سينيكا » أحد فلاسفة الرومان العظام : « اذا
بدا لك كل ما لديك قليلا ، فاعلم أنك لو امتلكت الدنيا لقلت أن ما
لديك قليل » .

وتذكر هذا : لو أنك امتلكت الولايات المتحدة الأمريكية بأجمعها،
لما وسعك الا ان تتناول ثلاث وجبات في اليوم ، والا أن تنام
في فراش واحد في وقت واحد ! .

الجزء العاشر

قصص واقعية يروي أبطالها كيف قهروا القلق

هاجمتني المصائب مجتمعة

بقلم س . ا . ا . بالاكورد

مدير مدرسة « بالاكورد وديفيز للأعمال » بمدينة أوكلاهوما

في صيف عام ١٩٤٣ ، خيل الى أن نصف القلق الموزع على البشر جميعا قد حط على كاهلي . وكنت قد أمضيت من عمري أكثر من أربعين سنة في حياة طبيعية لا تعترىها المنغصات أو المشكلات ، اللهم الا مالا ينحو منه زوج ، وأب ، ورجل أعمال مثلي . وكنت قد تعودت مجابهة كل ما يتصدى لي من المشكلات في سهولة ويسر ، ثم انقضت على رأسي فجأة ست مشكلات كبرى تجر بعضها بعضا . وهذه هي المشكلات الست :

١ — أوشكت المدرسة التي املكها على الافلاس . اذ انفض عنها طلابها ليلتحقوا بالجيش ، وهجرتها معظم طالباتها قبل اتمام دراستهن ليلتحقن بالوظائف الادارية في هيئات الجيش المختلفة بأجور مغرية .

٢ — انخرط ابني الأكبر في صفوف الجيش فحاق بي من القلق ما يعرفه كل أب له ابن أو أبناء في صفوف الجيش .

٣ — شرعت بلدية « أوكلاهوما » في اخلاء مساحة كبيرة من الأرض من المساكن القائمة عليها لتحيلها الى مطار . وكان مسكني — الذي ورثته عن أبي — يدخل في نطاق هذه المساحة . وكنت اعرف أنني لن اعوض عنه الا بمقدار عشر قيمته الحقيقية ، فضلا عن أنني سأفقد منزلي في الوقت الذي اشتدت فيه أزمة المساكن ، وأنا رب عائلة مكونة من ستة اشخاص .

٤ — جفت البئر القائمة وسط مزرعتى والتي تمدنا بمياه الشرب ، بعد أن حفرت بالقرب من بيتى ترعة لتصريف مياه الري . وكان حفر بئر أخرى معناه تبديد خمسمائة دولار هباء ، نظرا لأن المزرعة عرضة لاستيلاء السلطات عليها فى أى وقت لانشاء المطار ، ومن ثم لبثت أنقل ماء الشرب الى بيتى فى صفائح مدى شهرين ، وخشيت أن تستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية الحرب .

٥ — كنت أظن على بعد خمسة أميال من المدرسة التى أديرها ، ولم يكن فى وسعى ، نظرا للقيود المفروضة على اطارات السيارات أن أجدد اطارات لسيارتى ، ومن ثم ركبنى القلق خوفا من أن اضطر الى الانقطاع عن عملى اذا انفجر أحد اطارات سيارتى القديمة .

٦ — تخرجت كبرى بناتى فى المدرسة الثانوية قبل الموعد المحدد . وكانت تطمح فى الذهاب الى الجامعة . ولكنى لم اكن املك ما أنفق منه على تعليمها العالى ، وتوقعت أن يدركها الهم أن انا صارحتها بهذه الحقيقة .

وفى ذات مساء ، بينما انا فى مكتبى أستعيد قلقتى وهمومى ، قررت أن أدون مشكلتى جميعا ، إذ خطر لى أن أحدا لم يسبق له أن عانى أكثر مما أعانى ، ولم يكن من عادتى أن أبالى بالمشكلات التى أرى الى حلها سبيلا ، ولكن خيل الى أن مشكلتى الحاضرة دون حلها خرق القتاد . ومن ثم رحلت أدون هذه المشكلات التى أسلفتها ، ثم نسيت بمرور الزمن ، اننى دونتها . وانقضى على ذلك ثمانية عشر شهرا . ثم فى ذات يوم . بينما انا أقلب أوراقى عثرت على قائمة المشكلات الست التى هددت صحتى يوما بالبووار . فقراتها فى كثير من الشغف والاهتمام ، ذلك لأن شيئا منها لم يتحقق قط ! . . . واليك ما حدث .

١ — رايت أن القلق الذى انتابنى خشية افلاس المدرسة لا محل له ولا داع ، فقد عمدت الحكومة الى مد مدارس الأعمال باعانات كبيرة لتدريب جرحى الحرب ، ومشوئها على مختلف الأعمال ، وما لبثت مدرستى أن ضاقت على رجبها بالطلبة .

٢ — كما وجدت انه ليس ثمة ما يدعو الى القلق على نجلى
المتحق بالجيش ، فقد كان في طريق عودته الى سالما .

٣ — ورايت أن الخوف من ضياع مزرعتى فى سبيل انشاء مطار
لم يعد هناك ما يبرره ، اذ انبثق البترول على بعد ميل واحد منها ،
ومن ثم صرف النظر عن الاستيلاء على هذه الارض .

٤ — ورايت ايضا انه لامحل للقلق على البئر التى جف ماؤها فى
ارضى ، فما ان علمت ان السلطات لن تستولى على ارضى حتى
بادرت الى حفر بئر اخرى .

٥ — وكذلك وجدت ان خشيتى من انفجار اطارات سيارتى كلها
او احدها ، لم يعد ما يبرره . اذا انا احكمت قيادة سيارتى فبوسع
اطاراتها ان تبقى سليمة من كل سوء .

٦ — كما رايت ان اشفاقتى من مواجهة ابنتى بعجزى عن اتمام
تعليمها لم يعد ما يدعو اليه ، فقبل موعد دخول المدارس بستين يوما
اسند الى عمل اضافى ، وبهذا تهيأ لى المال اللازم للانفاق على
تعليم ابنتى .

وكثيرا ما سمعت الناس يقولون : ان تسعة وتسعين فى المائة مما
تشفق منه ، ويتولانا القلق بسببه لا يحدث اطلاقا ، ولكن لم اكن اعير
هذا القول اعتبارا حتى لمستته بنفسى .

وانى اليوم لشاكر لهذه التجربة التى مرت بى اجزل الشكر ، فقد
علمتنى درسا لا انساه . علمتنى عمق الاشفاق من شىء لا سيطرة لنا
عليه ، وقد لا يحدث اطلاقا .

تذكر ان اليوم هو ((الامس)) الذى اشفقت من مواجهته واسال
نفسك على الدوام : كيف اعلم ان ما اشفق منه سوف يحدث ؟ .

استطيع ان اتحول الى رجل سعيد

بقلم روجر بابسوق

الامتصادى الشهرى

* * *

حين انظر فأجد نفسى فى غمرة من الانقباض ، وخضم من المنغصات ، أستطيع ان اقصى القلق عن نفسى ، وان اتحول فى ساعة واحدة الى رجل متفائل سعيد . واليك الطريقة التى اتبعها :

أدلف الى مكتبى ، وأغمض اعينى ، ثم أقصد هكذا الى أرفف معينة لاتحمل الا كتب التاريخ ، وأنتقى منها ، وأنا مغمض العينين ، كتابا لا أدري اهو « غزو المكسيك » لمؤلفة « برسكوت » أم حياة المقياصرة الاثنا عشر لمؤلفة « سوتوثيوس » ثم أفتح الكتاب الذى التقطه ، وأنا مغمض العينين أيضا ، حيثما اتفق . . . وهناك أفتح عينى وأقرأ مدى ساعة . وكلما أوغلت فى القراءة ازداد احساسى بأن العالم منذ خلقه ، ما فتىء يبرز تحت الكارثة تتلوها الكارثة ، وما برحت المدنية منذ قيامها تتلظى بالحنة بعد المحنة ، فان صحف التاريخ ملأى بكل ما تقشعر له الأبدان من الأهوال ، ولا تكاد تخلو صفحة من ذكر الحرب ، أو مجاعة ، أو وباء ، أو ضر ينزله الانسان بأخيه الانسان فما ان أنتهى من المطالعة حتى أحس ان الظروف المحيطة بى مهما تكن سيئة فى رأى ، سوداء حالكة فى نظرى ، فهى على التحقيق أفضل مما لقيه العالم فى عصوره الغابرة وحقبه السالفة . وهناك يسعنى ان أجابه مشكلاتى التافهة وجها لوجه . هذه طريقة كان ينبغي ان يفرد لها فصل بذاته . أقرأ التاريخ . وانظر أى المشكلات كان يبرز تحتها العالم منذ عشرة آلاف سنة ، وقس مشكلاتك « التافهة » اليها بمقياس الضاود !

كيف تخلصت من مركب النقص

بقلم المستر توماس

عضو مجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية اوكلاهوما

* * *

حينما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، وكانت تتنازعنى المخاوف ، والقلق والخجل ، فقد كنت منذ حداثتى ، طويلا مفرط الطول ، ونحييفا غاية النحافة ، وبرغم ارتفاع قامتى ، كنت ضعيفا واهنا .

وكنت خلقيا بأن أمنى فى حياتى باخفاق ذريع ، لو أننى امتثلت لما اجتاحتنى من قلق وخوف ، فقد كنت لا أفتأ فى كل يوم من أيام الأسبوع ، بل فى كل ساعة من ساعات اليوم أجتر همى على طولى ، ونحافتى ، وضعفى ، وعرفت والدتى ما يدور بخلدى — وكانت مدرسة فى إحدى المدارس — فقالت لى يوما : « يا بنى عليك أن تستزيد من العلم والمعرفة ، وعليك أن تجاهد لكسب عيشك ، أما طولك وضعف بنيتك ، ونحافتك ، فلا سبيل الى تلافئها ، وستظل هكذا على الدوام فتقبلها على علائها ، وانسها » .

ولما كان والدى من الفقر بحيث عجزا عن ارسالى الى الجامعة ، فقد تحتم على أن أشق بنفسى طريقى الى التعليم العالى ، فعمدت انى اصطياد طائفة من حيوان « النمس » فى الشتاء ، وبعثتها فى الربيع لقاء أربعة دولارات ، وابتعت بهذه الدولارات الأربعة خنزيرين صغيرين مازلت أنعمدهما بالغذاء والرعاية حتى سمنا فبعتهما فى الشتاء التالى بمبلغ أربعين دولارا . ووسعنى بهذا المبلغ أن التحق بالقسم الداخلى بكلية « سنترال نورمال » الواقعة فى « دانفيل » بولاية « انديانا » وكنت أرتدى فى الكلية قميصا بنى اللون صنعته لى والدتى (ولا شك أنها اختارت اللون البنى حتى لا يظهر فيه ما يقع عليه من غبار !) . وبدلة كانت فيما مضى ملكا لوالدى ، فلم تكن البدلة تنسجم على ، ولا كان حذاء أبى العتيق يناسب قدمى ،

بل كان يوشك في كل خطوة اخطوها ان يطير في الهواء ، وعاقنى
حيائى واحساسى بفوضى هندامى عن الاختلاط بالطلبة ، فكنت
امكثت في غرفتى واكب على الاستذكار . ولعل اقوى الرغبات جميعا
التي راودتنى في ذلك الحين هى رغبتى في شراء ثياب تنسجم على
جسمى . . ثياب لا اخجل من الظهور بها امام اقترانى ! .

وبعد ذلك بقليل ، وقعت لى اربعة حوادث ساعدتنى على القلق
ومركب النقص ، ومدنى أحدها بالأمل وزودنى بالثقة ، وبديل حياتى
تديلا ، واليك وصف هذه الحوادث الأربعة :

اولا — عقب مضى ثمانية اسابيع على التحاقى بالكلية . اديت
امتحانا كان من نتيجته ان حصلت على شهادة تخولنى حق التدريس
في المدارس الريفية العامة .

ثانيا — تعاقبت معى مدرسة ريفية في قرية « هابى هولو » على
التدريس فيها لقاء مرتب قدره دولاران في اليوم . فبت في هذا الحادث
احساسا بأن هناك من يثق بى ويعتمد على ! .

ثالثا — بمجرد ان حصلت على اول مرتب ابتعت ثيابا جديدة
انيقة . ولو ان احدا اليوم نقدنى مليون دولار لما اثار في ذلك مثل
الفرحة التي تملكتنى حين ارتديت اول بذلة جديدة رغم انها لم تكلفنى
سوى بضعة دولارات .

رابعا — حدثت نقطة التحول الحقيقية في حياتى في قاعة بلدية
« برنتام » بولاية انديانا . فقد حضتني امى على ان اتقدم الى مسابقة
في الخطابة العامة تجرى في قاعة البلدية . وهالتي هذه الفكرة
وروعتنى فلم تكن لى الشجاعة على مخاطبة شخص واحد فضلا عن
حشد من الناس . ولكن ايمان امى بى لم يكن يعرف حدودا .
فشجعتنى ثقتها بى على التقدم الى المسابقة ، وتخيرات موضوعا
لخطبتى لعله آخر موضوع تؤهلنى معلوماتى للخوض فيه وهو
«الفنون الجميلة والحررة في امريكا» والحق اقول اننى حين عكمت على
اعداد الخطبة لم اكن اعرف ما هى « الفنون الحررة » .

ولكن هذا لم يهمنى كثيرا . لفتتني من أن أكثر المستمعين لا يعرفونها مثلي ! وحفظت خطبتي المنمقة عن ظهر قلب ، والقيتها ، على سبيل التجربة ، عشرات المرات ، على الأشجار والأبقار : كنت معترفا أن أكون عند حسن ظن أمي . وأن أودع خطابي فيضا من العاطفة وأنفخ فيه روحا قوية . ولا أطيل القول فقد ربحت الجائزة الأولى . ولقد ذهلت لما حدث . فقد تعالي هتاف القوم ، حتى أولئك الذين سبق لهم أن هزئوا بي وسخروا مني ، ربتوا على ظهري وقالوا : « لقد كفا على ثقة من فوزك يا المر » واحاطتني أمي بذراعيها وانهمرت دموع الفرح من عينيها مدرارا .

وإذ أرجع بالفكر الى الماضي ، أجد أن هذا النصر كان نقطة التحول الحقيقي في حياتي . فقد وهبني مركزا أدبيا لم أحلم به ، ووهبني أكثر من هذا ، الثقة بنفسى . والأهم من هذا كله أن الجائزة المخصصة لتلك المسابقة كانت دراسة مجانية لمدة عام في كلية « سنترال نورمال » :

وفيما بين عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٠ ، كنت أقسم وقتى بالعبدل والقسطاس بين الدراسة والتدريس . . ولكى أسدد نفقات تعليمي في جامعة « ديبو » التى التحقت بها بعدئذ ، عمدت الى الاشتغال تارة « جرسونا » في مطعم الجامعة ، وأخرى ملاحظا للفرن في المطبخ ، وعمدت في الصيف الى الاشتغال بحصاد القمح ، ورصف الطريق .

وفي عام ١٨٩٦ ، وكنت أزال في التاسعة عشرة من عمري ، القيت ثمانية عشر خطابا أحث الناس فيها على انتخاب وليم جينجز بريان رئيسا للجمهورية وكأنما أثارت دعايتى السياسية لوليم بريان الرغبة في نفسى الى نزول المعترك السياسى ، فلما التحقت بجامعة ديبو عمدت الى دراسة القانون والخطابة العامة .

وعقب حصولي على درجة البكالوريوس من جامعة ديبو . تصدت الى ولاية أوكلاهوما ، وافتتحت مكتبا للمحاماة في مدينة

« لوتون » وخدمت في مجلس الشيوخ التابع لولاية أوكلاهوما أربعة أعوام وفي سن الخمسين ، حققت الأمل الذي داعبني عمرا بأكمله ، إذ انتخبت عضوا بمجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية أوكلاهوما . ومازلت أتبوا ذلك المركز منذ ٤ مارس عام ١٩٢٧ . ومنذ اليوم الذي ضمت فيه مدينة أوكلاهوما الى أراضى الهنود وأصبحت كلها تعرف بولاية أوكلاهوما — أى منذ ١٦ نوفمبر عام ١٩٠٧ — وأنا أتمتع بثقة الحزب الديمقراطي الذي شرفني بترشيحي أولا لعضوية مجلس شيوخ ولاية أوكلاهوما ، وثانيا لعضوية الكونجرس . وأخيرا لعضوية مجلس الشيوخ الأمريكي .

ولست أسرد هذه القصة مياهاة بما صنعت فالذي صنعته لا يهم أحدا وإنما أسردها مؤملا أن يجد فيها غلام مغمورا حافزا وملهما يبيت فيه الشجاعة ، ويدعوه الى الأقدام ، ويخلصه من القلق والمخاوف ، وينجيه من مركب النقص الذي أوشك أن يحطم حياتي في تلك الأيام الخالية ، التي كنت فيها أرتدى بذلة أبى ، وانتعل حذاءه ! .

تعقيب من طريف ما يذكر أن المر توماس ، الذي كان يخجل من الظهور بين أقرانه بهندامه غير اللائق ، قد اتفق بالإجماع على أنه أكثر أعضاء مجلس الشيوخ أناقًا واحكمهم هنداما .

عشت في جنة الله

بقلم ر . ن . س . بولى

مؤلف كتابى « رياح على الصحراء » (١) و « الرسول »
وأربعة عشر كتابا اخرى

* * *

فى عام ١٩١٨ ولبت ظهري العالم الذى عرفته طيلة حياتى ،
ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية ، حيث عشت بين الاعراب فى
الصحراء وقضيت هناك سبعة اعوام ، اتقنت خلالها لغة البدو ،
وكنت ارتدى زيهم ، واكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم فى الحياة
وغدوت مثلهم امتلك اغناما وانام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقت
فى دراسة الاسلام ، حتى اننى الفت كتابا عن محمد (صلى الله عليه
وسلم) عنوانه « الرسول » ، وقد كانت تلك الاعوام السبعة التى
قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من امتع سنى حياتى واحفلها بالسلام ،
والاطمئنان ، والرضا بالحياة .

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف اتغلب على القلق . فهم
بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الايمان
على العيش فى امان ، واخذ الحياة مأخذا سهلا هينا . فهم لا يتعجلون
أمرا ، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم تلقا على امر . انهم يؤمنون
بان « ما قدر يكون » ، وان الفرد منهم « لن يصيبه الا ما كتب الله
له » . وليس معنى هذا انهم يتواكلون او يقفون فى وجه الكارثة
مكتوفى الايدى ، كلا ؟ .

ودعنى اضرب لك مثلا لما اعنيه : هبت ذات يوم عاصفة عاتية
حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الابيض المتوسط ، ورمت

R. V. C, Bodly. «Wind in the sahara»—
«The Messenger».

بها وادى « الرون » فى فرنسا . وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، حتى أحسست كأن شعر رأسى يتزعزع من منابته لفرط وطأة الحر ، وأحسست من فرط القىظ كأننى مدفوع الى الجنون ولكن العرب لم يشكوا اطلاقا فقد هزوا اكتانهم ، وقالوا كلمتهم الماثورة « قضاء مكتوب » .

لكنهم ما ان مرت العاصفة ، حتى اندفعوا الى العمل بنشاط كبير ، فذبحو صفار الخراف قبل ان يؤدى القىظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية الى الجنوب نحو الماء ، فعلو هذا كله فى صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : « لم نفقد الشئ الكثير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شئ ، ولكن حمدا لله وشكرا ، فان لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد » .

وثمة حادثة أخرى . . فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر أحد الاطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار اطار احتياطى ، وتولانى الغضب ، وانتابنى القلق والهـم ، وسألت صحبى من الاعراب « ماذا وعسى أن نفعل ؟ » فذكرونى بأن الاندفاع الى الغضب لن يجدى فتىلا ، بل هو خلىق أن يدفع الانسان الى الطيش والحمق ، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاث اطارات ليس الا ، وهناك ايضا لم تثر ثائرة أحد من وفاقى الاعراب . ولا مارتهم جدوهم ، بل مضوا يذرعون الطريق سيرا على الأقدام وهم يترنمون بالغناء ! .

قد اتفعتنى الأعوام السبعة التى قضيتها فى الصحراء بين الاعراب الرحل ، أن الملتائين ، ومرضى النفوس ، والسكيرين . الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا . ما هم الا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساسا لها .

اننى لم أعان شيئا من القلق قط ، وأنا أعيش فى الصحراء ، بل هنالك فى ، جنة الله ، وجدت السكنية ، والقناعة ، والرضا ، وكثيرون

من الناس يهزعون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب ، ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر .

ولكن من يدري ؟ فلعل الأعراب أصابوا كبد الحقيقة فاني اذ اعود بذاكرتي الى الورا . . . واستعرض حياتي ، ارى جليا انها كانت تتشكل في فترات متباعدة تبعا لحوادث تطرا عليها ، ولم تكن قط في الحسبان ، او مما استطيع له دفعا ، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم « قدر » او « قسمة » او « قضاء الله » ، وسمه انت ماشئت .

وخلاصة القول انني بعد انقضاء سبعة عشر عاما على مغادرتي الصحراء ، مازلت اتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقابل الحوادث التي لاحيلة لي فيها بالهدوء والامتثال ، والسكينة ، ولقد افلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي اكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقائير !

المؤلف : ولست الزمك — ايها القارئ — ان تكون جبريا مؤمنا بالقضاء والقدر ، ولكن : الا ترى من الأفضل انه حين تجتاح حياتنا عاصفة هو جاء لاستطيع لها دفعا ، ان نمثل لما ليس منه بد ؟ .

كما احتملت بالأمس احتمل اليوم

بقلم دوروثى نيكس

الكاتبة المعروفة

لقد عانيت الكثير من أهوال الفاقة والمرض ، ومن ثم فأننى حين يسألنى الناس كيف أواجه المصاعب أجيبهم على الفور : « كما احتملت بالأمس أستطيع أن احتمل اليوم ، ولست أسمح لنفسى بالتفكير فيما « عساه » يحمله الغد بين طياته ! » .

لقد نقت ذل الحاجة ، ومرارة الكفاح والم القلق ، واذا انظر اليوم الى حياتى الماضية أخالها كميدان قتال ملئء بالقتلى والجرحى من أحلامى ، وآمالى ، واوهامى ! ولكنى برغم ذلك كله ، لا أرثى لنفسى ، ولا أذرف الدموع على ما أدبر من حياتى . ولست أحسد واحدة من بنات جنسى ممن اغنتهن الظروف عن مواجهة ما واجهت ومعاناة ما عانيت ، فأننى على خلاف بنات جنسى ، قد تجرعت كأس الحياة المملؤ بالالم حتى الثمالة اما لذاتى فقد ارتشفتن ماعلا الكأس من حبيب ، ولم يصلن قط الى القرار . . ومن ثم فأنا أعلم مالا يعلمن ، وأرى مالا يرين ، فانك تجد أقرب النساء الى فهم الحياة وادراك حقائقها ، وارتياذ آفاتها ، امرأة أقرحت الدموع عينها ، والتهم الاسى فؤادها ! .

ولقد تعلمت فى مدرسة الحياة فلسفة لاتتيسر لامرأة جرت حياتها سهلة لينة . تعلمت كيف أعيش اليوم فى حدود اليوم دون أن افترض المتاعب فى الغد الذى أجعله . وتعلمت الا أتوقع من الناس أكثر مما ينبغى ، وان اتكلف المرح على الدورام . فهناك أشياء عليك حيالها اما أن تبكى واما أن تضحك ، فاذا وسع المرأة أن تضحك وتمرح بدلا من أن تلتقى بنفسها بين برائن « الهستريا » فلن يكون هناك شىء يؤذيها او ينال منها . اننى لا أحزن على ما سلف من حياتى الحافلة بالمتاعب والصعاب ، لاننى عرفت من خلال هذه الحياة . . ومعرفة الحياة يهون فى سبيلها كل ثمن .

كنت واحدا من أكبر المغفلين ؟

بقلم برسى هوابننج

مدير شركة « ديل كارنيجى » بنيويورك

لقد مت ، أو أوشكت على الموت ، عشرات المرات ! كان أبى يمتلك صيدلية ، ومن ثم كنت دائم الاتصال بالأطباء والمرضى . وقد المت من خلال أحاديثى مع الأطباء بأسماء وأعراض أكثر الأمراض . ولكثرة خوضى فى أحاديث الأمراض أصبت بسداء « الوسوسة » فكنت اذا قضيت ساعة أو ساعتين اتحدث عن أحد الأمراض أشعر بعد قليل بأعراضه ، ثم البت أن أحس بالآمه وأوجاعه ! وقد حدث أن اجتاح وباء الدفتريا البلدة التى نطنها فى ولاية « ماساشوستش » وكنت فى ذلك الوقت أعاون أبى فى الصيدلية على بيع الأدوية والعقاقير لآل المرضى . ثم حدث ما كنت أخشاه وأتقى وقوعه : فقد مرضت بالدفتريا ، أو هكذا اعتقدت ! وذهبت الى الفراش وأنا أتمثل فى مخيلتى أعراض المرض التى أعرفها ، وأرسلت أستدعى الطبيب ، فلما أنتهى من فحصى قال : « نعم ، لبرسى ، لقد أصبت بالدفتريا » وقد خفف هذا بعض العناء الذى كنت أستشعره ، ومن ثم استسلمت لنوم عميق فى تلك الليلة . وفى يوم التالى استيقظت وأنا مكتمل الصحة والعافية ! .

لقد كنت أتخبر من الأمراض أخبثها وأمرها ، ثم ادعى أننى مصاب به . مثال أننى « تخصصت » فى الخوف من « أنسل » ، و « السرطان » وكنت لا أفتأ أتخيل أننى مصاب بهما ! . ويسعنى الآن أن اضحك وأنا أذكر هذا ، ولكن ما أضحك منه الآن كان فى حينه أليما مريرا . بل لقد بلغت بى « الوسوسة » الى حد أننى كلما خطر لى أن أبتاع بذلة جديدة بمناسبة حلول فصل الربيع كنت أسأل نفسى : « أينبغى لى أن أنفق المال فى شراء بذلة لن أعيش حتى ارتديها ؟ ! » .

على أننى اليوم سنعيد بما عرأنى من تحسن ملبوس ، ففى خلال

الأعوام العشرة الماضية لم امت مرة واحدة ! فكيف منعت نفسي من الموت ؟ باستهزاء من غفلتى وسذاجتى ، كنت أقول لنفسى كلما داهمنى القلق ، وتوهمت ان اعراض مرض خطير قد تملسكنى « اسمع يا برسى : لقد مضى عليك عشرون عاما وانت تموت فى غرفتك . المرة تلى المرة من مرضا خطيرا مثله . وها انت أحسن ما تكون صحة وعافية ! وقد رضيت أخيرا احدى شركات التأمين عن طيب خاطر ان تؤمن على حياتك ! ألم يحن الوقت بعد لكى تضحك ملء شديك من ذلك الشخص « المغفل » الساذج الذى كفته فيها مضى ! » .

وقد وجدت ، بعد هذا بقليل ، ان من المحال الجمع بين القلق من امراض وهمية ، والضحك من هذه الأمراض الوهمية فى الوقت ذاته . . ومن ثم فضلت الضحك ومازلت ملتزما اياه حتى الآن ! .

احتفظت بطريق « التموين » مفتوحا

بقلم : جين اوترى

النجم السينمائي ، والمغنى المعروف

احسب ان معظم القلق منصب على مشكلات الأسرة ، ومسائل المال . وقد كان من حسن حظي ان تزوجت من فتاة نشأت مثل النشأة التي نشأتها ، ومن ثم فهي تتفق معي في معظم آرائى ونظراتى الى الحياة . أما المشكلات ، فقد استعنت في حلها بطريقتين :

الأولى : اننى اتبعت طريقة الجملة لا القطاعى في معالجة مسائلى المالية ، فاذا استدنت مثلا ، سددت دينى « جملة » حتى لا ييتى هناك ما ينتابنى القلق من أجله .

والثانية : اننى تشبعت بالعسكريين في ابقاء طريق التموين مفتوحا على الدوام ، وبإى ثمن !

فحين كنت صبيا ذقت مرارة الفاقة والاملاق ، فقد اصيبت الأرض التى نعول عليها في معاشنا بالجفاف ، وعز علينا ان نجد اقامة العيش . ولم ترضنى هذه الحال ، فاعتزمت ان ابحث عن مورد ثابت للرزق ، والتحقت بعمل في احدى محطات السكك الحديدية كنت اتقاضى منه ١٥ دولارا في الشهر . وعندما شرعت بعد ذلك ، في تحسين حالتى المادية ، وضعت نصب عيني ان المبلغ الذى اتقاضاه من محطة السكك الحديدية . امان لى من الحاجة ومن ثم احتفظت بالطريق اليه مفتوحا ، فلم اتخل عنه حتى رسخت قدمى في عمل افضل منه . مثال ذلك اننى عندما كنت اشتغل في محطة السكك الحديدية عام ١٩٢٧ ، دلف الى فناء المحطة شخص غريب عن البسدة ليرسل برقية . وتصادف ان سمعنى الرجل الغريب وأنا اهزف على « الجيتار » وانشد اغنيتى رعاة البقر ، فإئننى على ادائى ، وابدى اعجابه بعزفى وغنائى ، وقال لى ان امامى مستقبلا باهرا في السينما ومحطات الاذاعة . ثم

لم يكد الرجل يقدم لى بطاقته حتى احتبست انفاسى ، فلم يكن سوى « ويل روجرز » المنتج السينمائى الشهر . ولكنى بدلا من ان أندفع الى نيويورك ، واتخلى عن عملى دفعة واحدة ، رحت اقلب الأمر على جميع وجوهه حتى اقتنعت أخيرا بأننى لم أخطر شيئا ان أنا ارتحلت الى نيويورك . وكان لدى تصريح مجانى يبيع لى السفر على خطوط السكك الحديدية ، ومن ثم سافرت الى نيويورك ، ولبثت عشرة أسابيع أذرع نيويورك طولاً وعرضاً دون ان أوفق الى عمل . وكنت خليقا بأن ينتابنى قلق يهدد صحتى ويقوض سعادتى لو لم أكن قد استدركت فاحتفظت بعملى لأعود اليه متى شئت . فقد خدمت فى السكك الحديدية مدى خمس سنوات ، وهذه المدة تخولنى الحق فى التغيب عن عملى مدة لا تزيد على تسعين يوما . ومن ثم عدت أدرجى الى أوكلاهوما حيث مقرر عملى ، وزاولت عملى فى المحطة شهرين ادخرت خلالها شيئا من المال ثم عدت الى نيويورك أجرب حظى من جديد . وفى هذه المرة حصلت على عمل . ففى ذا تيوم ، بينما أنا أنتظر فى احد استديوهات الاذاعة ، لأقابل المدير ، اذ خطر لى ان أقطع انوقت بالعزف على « الجيتار » والترنم باحدى أغنياتى المفضلة، وهى « جانى . . انى أحلم بليالينا الخوالى » وبينما أنا أغنى اذا بمؤلف هذه الأغنية « نات شيلد كروت » يذلف الى الغرفة . وطبيعى انه سر اذ رأتى أترنم بأغنيته . ومن ثم تطوع فأعطانى توصية ، وأرسلنى بها الى شركة فيكتور للتسجيل ، وهناك أجريت لى تجربة فى تسجيل الصوت فأخفقت التجربة ، ومن ثم عدت أدرجى الى عملى فى محطة السكك الحديدية ، وواصلت العمل تسعة أشهر وتصادف فى خلال هذه المدة ، ان كتبت بالاشتراك مع « جيمس لونج » أغنية عنوانها « فتاتى ذات الشعر الفضى » ، واذاعت الاغنية من محطة الاذاعة فى « تلسا » ، فاذا بى فى اليوم التالى ، أتلقى خطابا من « آرثر شاترلر » مدير « شركة التسجيل الأمريكية » يطلب الى فيه ان أجرى تجربة لتسجيل صوتى ، وأفلحت التجربة هذه المرة ، وسجلت لى عدة

« أسطونات » لقاء خمسين دولارا لكل « أسطوانة » واخيرا وفقت الى الاتفاق مع احدى محطات الاذاعة بشيكاغو على ان اغنى لصابها اغانى رعاة البقر ، لقاء اربعين دولارا فى الاسبوع .

وبعد ان امضيت اربع سنوات فى خدمة تلك المحطة رفع راتبى الاسبوعى الى تسعين دولارا ووسعنى فضلا عن هذا ، ان اجمع مبلغ ثلاثمائة دولار ، نظير اشتراكى فى بعض البرامج المسرحية ، ثم فى عام ١٩٣٤ . تفتقت لى آفاق الحياة على رجبها فقد تالفت لجنة فى هوليوود مهمتها اعادة النظر فيما تخرجه هوليوود من روايات سينمائية، واقترحت اللجنة ان تكثر هوليوود من روايات رعاة البقر . وتلفت مخرجو هوليوود يبحثون عن شخص يستطيع ان يغنى اغانى رعاة البقر فضلا عن تمثيل أدوارهم ، وشلعت المصادفة ان يكون مدير شركة التسجيل الأمريكية شريكا فى شركة افلام « ريبابلك » ومن ثم وقع اختياره على ، وكان ذلك بداية اشتغالى بالسينما .

وقد تجاوز نجاحى فى التمثيل كل ما توقعت ، وانا الآن احصل على مرتب قدره مائة الف دولار سنويا ، يضاف اليه نصف الأرباح التى تجنيها الشركة فى كل رواية من رواياتى ! .

عندما طرق « العمدة » باب بيتى

بقلم : هومر كورى

الكاتب الروائى

كانت اشد لحظات حياتى مرارة ، حين طرق « العمدة » باب بيتى ذات يوم من عام ١٩٢٣ ، فوليت هاربا من الباب الخلفى للدار وكنت قبل اثنتى عشرة سنة من ذلك التاريخ . احسب اننى اتربع على قمة العلم . فقد بعث احدى رواياتى وعنوانها « غرب البرج المائى » West of The water Tower لشركة سينمائية لقاء مبلغ ضخّم ، مكنتى من ان اقضى مع عائلتى سنتين متجولين فى اوربا كما يفعل اصحاب الملايين .

وامضيت ستة اشهر فى باريس كتبت خلالها رواية سينمائية اخرى عنوانها « كان عليهم ان يشاهدوا باريس » They Had to See Paris فابتاعها منى المنتج السينمائى « ويل روجرز » واخرجها ، فكانت اولى رواياته السينمائية الناطقة . وعرضت على عروض سخية لكى ابقى فى هوليوود وانفرغ للتأليف السينمائى لحساب « افلام ويل روجرز » ولكننى لم اقبل ، وقفلت عائدا الى نيويورك . وهناك بدأت متاعبى فقد خطر لى ان لى مواهب كامنة لم احاول الاستفادة منها ، وخيل الى اننى « رجل اعمال » بارع قدير دون ان ادرى! وحدثنى بعض معارفى ان « جاكوب آستور » قد كسب ملايين الدولارات من الاتجار بالاراضى فى نيويورك . ومن هو آستور هذا ؟ انه ليس اكثر من مهاجر شريد تشوب لغته الانجليزية لكنة اجنبية ! فاذا كان الاجنبى الشريد وسعته ان يكسب الملايين فلماذا لا يسعنى انا ؟! ومن ثم عولت على ان اكون ثريا امثل ! .

وكنت — على جهلى — مقديما . فخطر لى ، لكى ابدا مشروعاتى المالية الضخمة ، ان ارهن منزلى ، ففعلت واشترت اراضى البناء فى « فورست هيلز » ، واعتزمت ان احتفظ بها حتى

يحب العمران في تلك الأثناء . ويرتفع سعر أراضيها ، فابيعها .
نعم . . أنا الذي لم يبيع في حياته شبرا واحدا من الأرض ! .

وفجأة انقضت الأزمة الاقتصادية كالصاعقة ، فزعزعتني كما
تزعزع العاصفة الهوجاء غصنا طريا ! وكان لزاما على انفق
شهريا ٢٢٠ دولارا على « الأرض الطيبة » التي اقتنيها ، فضلا
عن دفع أقساط الرهن المفروض على منزلي ، واجتأحي القلق ،
وحاولت دفعه بكتابة المقالات والقصص الفكاهية للمجلات ، وعينا
كانت محاولاتي فائتي لم أستطع ان ابيع شيئا من مؤلفاتي ، فقد
فشيت الرواية التي كتبتها في تلك الأثناء ، ولم يقدر لها الرواج
وأحسست بالحاجة الى المال ، ولم يعد لدي ما أستطيع ان احصل
على المال في مقابله سوى « الآلة الكاتبة » واغطية ذهبية لبعض
أسناني .

وثقل على القلق حتى حرمني النوم ، وكثيرا ماكنت أستيقظ
في هداة الليل ، فأخرج الى الطريق وأسير على قدمي ساعات
طويلة لعلى اشعر بالاعياء فأستطيع النوم . وعشا كانت محاولتي!
فقد انتهى الأمر بأنفقدت الأرض الفضاء التي علقت عليها احلامي
واستولى المصرف الذي رهنت منزلي لديه على المنزل ، وأوفد
الى العمدة ليطردي وعائلتي منه الى عرض الطريق ! ووسعني
بطريقة ما ، ان احصل على بضعة دولارات ، استأجرت بها
« شقة » متواضعة ، انتقلنا اليها في آخر يوم من أيام عام ١٩٣٣
وهناك جلست على احدى الحقائق اتلفت حولي . . فرن في
أفنى قول كثيرا ما رددته أمي على مسمعي « لاتبك على اللبن
المراق » ولكن ما أريق — في حالتي هذه — لم يكن لبنا ، بل كان
دما ! .

ويعد ان استسلمت ساعة لخواطري ، في جلستي تلك .
قلت لنفسي : « ها انت قد غصت الى أثناع : ونجرت ، لم يبق
أذن الا ان تطفو على السطح ، فلم يعد هناك أسفل من
القاع » .

وظللت افكر في الاشياء التى سلمت من الرهن او الضياع ،
فرايت اننى مازلت املك صحتى ، واصدقائى فعولت ان على
ان ابدأ من جديد ، ولا ابكى على الماضى . وحولت طاقة النشاط
الذى كنت ابددها بالقلق ، الى العمل المجدى ، وانى اليوم لشاكر
لله ما ابتلانى به من نوازل فقد اولتنى قوه ، واحتمالا ، وثقة ،
وحيث يتسلسل الى التلق الان أستطيع ان اقصيه بتذكير نفسى فى
انوقت الذى غصت فيه القاع ونجوت .

كل بدوره أيها السادة ؟

بقلم : هومر ميلتر

مؤلف كتاب « الق نظرة على نفسك »

اكتشفت منذ سنوات اننى لا استطيع التغلب على القلق بالهروب منه ، وانما بتحويل اتجاهى الذهنى الى اسبابه ودواعيه فما يسبب لى القلق ليس شيئا غريبا عنى ، وانما هو بداخل نفسى وقد وجدت بمضى الزمن . ان تعاقب الليل والنهار كميل ، من تلقاء ذاته ، بمحو القلق ، ومن ثم آليت على نفسى الا افكر فى مشكلة تطرا لى وتستحثنى على القلق ، حتى ينقضى عليها اسبوع ، وبديهى اننى لا استطيع ان أكف تماما عن التفكير فى مشكلتى مدى اسبوع ، ولكنى على الأقل لا أسمح لها بأن تستحوذ على تفكيرى كله حتى يمر الاسبوع . وهناك اما ان اجد المشكلة قد حلت من تلقاء نفسها ، واما ان اكون قد غيرت اتجاهى الذهنى بحيث يستعصى على هذه المشكلة ان تقلقنى ! .

وقد ساعدتنى على التزام هذه الخطة فلسفة « سير وليم اوسلر » الرجل الذى لم يكن نذا فى الطب وحده ! بل كان عبقرىا فى « معالجة » الحياة كذلك : وقد وجدت فى احدى عباراته حافظا قويا على طرد القلق : قال سيروليم فى مادبة عشاء اقيمت لتكريمه : « اننى اعزو ما نلتبه من نجاح الى قاعدة انتهجتها ، وهى تقضى بأن أتفرغ فى يومى هذا لمشكلات اليوم وحده تاركا المستقبل ليتكفل بنفسه » .

وفى ابان كهاى ضد القلق ، اتخذت لنفسى شعارا ، عبارة كان يرددها ببيغاء حدثنى أبى بقصته ، كان هذا البيغاء موضوعا فى قفص معلق فى داخل نوادى الصيد فى بنسلفانيا ، فاذا توافد الاعضاء على باب النادى ، انطلق البيغاء يردد عبارته المحفوظة هذه « كل بدوره أيها السادة ! » ولقد وجدت اننى متى اخذت مشكلتى كل مشكلة بدورها ، اجدانى هذا راحة وصفاء ذهنيا ومقدرة على الحسم والفصل .

« كيف عاش » جون روكفلر

سنوات توتى عمره

جمع جون روكفلر « الأب » أول مليون من ثروته وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وفى الثالثة والأربعين كان قد انشأ أضخم شركة احتكار عرفها العالم وهى « شركة استاندارد أويل » فماذا صنع فى سن الثالثة والخمسين ؟ لقد اسلم زمامه للقلق الذى عظم صحته ، حتى لقد « كان يبدو كالدمية » — على حد قول « جون وينكلر » . أحد كتاب سيرته .

لقد أصيب فى هذه السن بسوء الهضم ، وتساقت شسعر رأسه ، وتقصفت أهدابه ، ولم يبق فى حاجبيه الا خط شاحب رفيع .

قال وينكلر : « وقد بلغت حالته الصحية حداً بالغاً من الخطورة حتى أن الأطباء نصحوا له بأن يعيش على اللبن ولا شيء سواه » وقد عزا الأطباء صلعه الى اضطراب عصبى . وكان منظره فى الصلغ غاية فى القبح ، حتى انه كان يرتدى « طاقية » على الدوام ، ثم عمد فيما بعد الى وضع شعر أشهب مستعار كان يجده بين حين وآخر لقاء ٥٠٠ دولار !

وكان روكفلر فى شبابه متين البنيان ، منتصب القامة ، عريض المنكبين ، قوى البنية ، ولكنه ما أن بلغ الثالثة والخمسين — السن التى تكتمل فيها القوة والصحة — حتى انحنت قامته ، وناعت رجلاه بحمله ! .

كان روكفلر ، فى تلك السن ، اغنى رجل فى العالم . وبرغم ذلك فقد كان يعيش على طعام لا يقيم أود طفل ! كان دخله يبلغ مليون دولار فى الأسبوع . ومع هذا فان ما ينفقه على غذائه لم يكن يزيد على دولارين فى الأسبوع ، فقد كان يعيش — كما استننا — على اللبن وقطع البسكويت ! .

واستحال روكفلر الى هيكل عظمى مكسو بالجلد الأصفر

الباهت ولم ينقذه من الموت في تلك السن الا الرعاية الطبية التي بذل في سبيلها الاموال الطائلة . فما الذي وصل بروكفلر الى تلك الحال ؟ القلق .. والصدمات .. والضغط المتواصل على اعصابه .. والتوتر المستمر !

كان روكفلر يعبد المال .. ولم يكن شيء يلهب حماسه ، ويبت فيه القوة ، ويدخل على قلبه السعادة — حتى وهو في مطلع شبابه ! — أكثر من سماعه بنجاح صفقة عقدها ! كان اذ ذاك يلقي بقبضته على الأرض ، ويروح يرقص من فرط السرور ، أما اذا سمع نبأ خسارة حاقت به ، فانه يعض في التو واللحظة ! .

حدث ذات مرة أن شحن ما قيمته أربعون الف دولار من الغلال ، عن طريق « البحيرات العظمى » دون أن يؤمن عليها ، في حين أن التأمين عليها لم يكن ليكلفه أكثر من ١٥٠ دولارا . وفي الليلة التي أبحرت فيها السفينة التي تحمل الغلال ، هبت عاصفة عاتية على بحيرة « أيري » — إحدى البحيرات العظمى — فتولى روكفلر القلق المضخخشية أن يصيب الحمولة مكروه . وحين ذهب شريكه « جورج جاردنر » الى المكتب في الصباح التالي ، وجده يزرع الأرض جيئة وذهابا من فرط القلق ! واستقبله روكفلر صائحا : « بربك أسرع واستعلم هل يمكننا أن نؤمن على الحمولة الآن أم أن الوقت قد فات ! » واندفع جاردنر الى شركة التأمين . ودفع المبلغ ، فلما عاد الى روكفلر يحمل النبا المطمئن ، وجده اسوأ حالا مما تركه . ذلك انه تسلم برقية تنبئه بأن الحمولة وصلت الى وجهتها سالمة ، فحز في نفسه انه يبدد — ١٥٠ دولارا — قيمة التأمين هباء ! .

ولقد مرض روكفلر في ذلك اليوم ، وقصد توا الى بيته حيث لزم فراشه ! .. وكان روكفلر يربح في ذلك الوقت نصف مليون دولار في السنة ! .

ولم يكن روكفلر يجد وقتا لللهو أو للترفيه . حدث أن ابتاع

شريكة جورج جاردنر « يخنا » ثمنه ٢٠٠٠ دولار — بالاشتراك مع ثلاثة من الأصدقاء ، ليتنزهوا عليه في أوقات الفراغ — فلما علم روكفلر بهذا النبا كاد يصمق — ولقيه جاردنر بعد ظهر يوم السبت — وهو وقت عطلة — ! مكبا على العمل في المكتب فنوسل اليه قائلا : « بربك يلجون دعك من العمل الآن ، وهيا معى الى نزهة بحرية على ظهر اليخت . ان هذه النزهة ستفيد صحتك » ، فتجهم وجه روكفلر وقال : « اسمع يا جاردنر .. انك اعظم مسرف متلاف عرفته في حياتى ! ان مركز المالى يتزعزع ، وكذلك مركزى . فان انت دابت على هذه الحال فستنتهى الامر الى انهيار شركتنا اننى لن اذهب معك الى نزهة ، ولا اريد ان ارى هذا « اليخت » الذى « ابتعته » وانصرف الى عمله حتى ساعة متأخرة من الليل ! .

ولم يعرف جون روكفلر ، طوال حياته . المرح ولا الدعابة ، وقد اثر عنه انه قاتل يوما : « لم اكن اتوسد فراشى ليلة قبل ان اذكر نفسى بأن هذا النجاح الذى نلته قد يكون موقوتا ! » . وكان موظفو روكفلر ومساعدوه يعيشون في خوف منه متقيم ! ومن الشائعات المجيبة انه كان بدوره يخائهم ! كان يخاف ان يكشفوا فى احاديثهم — خارج العمل — اسرار العمل فيفيد منها منافسوه ! .

وعندما بلغ روكفلر اوج مجده ، وصار الذهب يتدفق عليه كما يتدفق الحمم الوهاج على جوانب بركان « فييتروف » . اذا بعاله الذى بناه لنفسه يتهار فجأة ! فقد صنفت الكتب ، ودبجت المقالات فى الصحف ، تقيض بالسخط والنعمة على « البارون » المحتال صاحب « شركة ستاندارد اويل » الذى لا يتورع عن سحق كل من تحدته نفسه بمنفاسته ! .

لقد مقتنه عمال حقول البترول فى بنسلفانيا اكثر مما مقتوا انسانا آخر فى الوجود ، وود كثيرون منهم لو استطاعوا ان يلفوا حول عنقه حبلا غليظا يشدون به الى فرع شجرة ، ويتركون جسمه معلقا فى الهواء عبيرة لمن يعتبر ! .

وتدفقت على روكفلر خطابات السباب والتهديد ، حتى انه استأجر حراسا اشداء وكل اليهم المحافظة على حياته . وحاول ان يتجاهل تيار السخط المنصب عليه ، ولكن عبثا ! فانه لم يقو على احتمال القلق والمتت معا . واخذت صحته تنهار ، وداخلته الدهشة والحيرة من أمر المرض - ذلك العدو الجديد الذى اتاه من داخل نفسه ! - وقد حاول فى مبدأ الأمر ان يخفى أمر المرض الذى كانت تتاقمت نوباته ، وحاول أن يقصى عن ذهنه التفكير فى أنه رجل مريض ، ولكن الأرق ، وسوء الهضم . وسائط الشعر ، وما يصاحب القلق الدفين من أمراض جسيمة . تدالفت ضده فلم يستطع انكارها .

وخيره الأطباء بين اعتزال العمل أو الموت ، فاختر اعتزال العمل ، ولكن .. بعد أن حطمته المطامع ، والمخاوف ، والقلق ، وحين قابلته فى ذلك الوقت « ايدا تاريل » أشهر كاتبات التراجم والسير الأمريكيات ، صدمت لمراه ، وكتبت تقول : « كان يبدو عليه كأنه بلغ أرذل العمر » . ولم يكن روكفلر عجوزا الى هذا الحد، فقد كان أصغر من الجنرال ماك آرثر حين اعتقل فى النلبين ! ولكنه كان مهتما محطما حتى ان « ايدا تاريل » امتلأت شفقة عليه ، وكان فى ذلك من التناقض ما فيه ، فقد كانت ايدا « فى ذلك الوقت ، عاكفة على اتمام كتابها الذى تصب فيه جام نعمتها على شركة ستاندارد اويل ! » .

وحين أخذ الأطباء على عاتقهم رعاية حياة روكفلر اوصوه باتباع ثلاث قواعد .. فاتبعها روكفلر الى آخر حياته . واليك هذه القواعد الثلاثة :

- ١ - تجنب القلق مهما تكن الظروف والأحوال .
- ٢ - استرخ وتنزه ما أمكن فى الهواء الطلق .
- ٣ - قلل من غذائك ، انهض عن المساعدة وانت تشعر بالجوع .

وأطاع روكفلر تلك القواعد الثلاث ، فاعتزل العمل ، وتعلم لعب « الجولف » ، وهو الزراعة وأخذ يمشى الوقت في التودد الى جيرانه ، وراح يتسلى بلعب الورق ، وانشاد الاغاني ! .

ولكنه فضلا عن هذا كله فعل شيئا آخر .. فقد اخذ يفكر في غيره من الناس ، وكف لأول مرة عن التفكير في كيفية الحصول على المال ، وجعل يتسائل : كيف يستطيع هذا المال الذر جمعته ان يهبىء السعادة للانسانية ؟ !

وما لبث روكفلر ان بدأ يتخلى عن ملايينه ! ولم يكن هذا يسيرا في مبدأ الأمر ، فانه حين وهب الكنيسة جانبا من ماله ، ثار رجال الدين في طول البلاد وعرضها ، وارادوا رد هذا المال لانه مستنزف من دماء البشر ! ولكن روكفلر داب على الاعطاء . وتناهى الى سمعه يوما نبأ كلية صغيرة على ضفاف بحيرة ميثسجيان اضطرت الى اغلاق ابوابها لانها لم تستطع وفاء دين عليها ، فخف لنجدتها ، وصب فيها الملايين صبا فشيده مبنى لها جديدا ، ووسعها ، وزينها ، فأصبحت واحدة من اشهر الجامعات في العالم تلك هي جامعة شيكاغو .

واراد روكفلر ان يسدى المعونة الى الزوج ، فوهبهم المال الذي مكنهم من انشاءجامعات خاصة بهم مثل جامعة « تسكيجي » وساهم في محاربة داء الانكلستوما ، فقد قال له يوما الدكتور « تشارلس ستايلر » ، اخصائى الانكلستوما : « ان دواء قيمته خمسون سنتا (اى نحو عشرين قرشا) كميل بانقاذ حياة مريض بهذا الداء الذى يكتسح الجنوب . ولكن اين لنا هذه الخمسون سنتا ؟! » فسرعان ما تبرع روكفلر بالملايين لصد غائلة هذا الداء الذى روع الجنوب ، بل انه ذهب الى ابعد من هذا .. انشأ مؤسسته الدولية الشهيرة — مؤسفة روكفلر — لتحارب الجهل والمرض في اصقاع الدنيا كافة .

واننى لأتحدث عن هذه الاعمال الانسانية الجليلة وشعور

الامتنان يعمر قلبي . فمن يدري ؟ لعلى ادين بحياتي يوما
لمؤسسة روكفلر ؟ فاني لأذكر جيدا . عام ١٩٢٢ ، حين اكسح
الصين وباء الكوليرا ، وكنت هناك وقتها ، فرأيت هذا الوباء يفتك
بأرواح الفلاحين الصينيين فتكا ذريعا . وقد ذهبنا حينئذ الى
« مدرسة روكفلر الطبية » في بكين ، حيث حصنا انفسنا بالحقن
المضادة لهذا الداء ، وكانت المدرسة تحقن الوطنيين والاجانب
بلا تفرق .

نعم : لم تعرف الدنيا من قبل شيئا سما الى مرتبة مؤسسة
روكفلر . انها شيء فريد . كان روكفلر يدرك ان العالم تجتاحه
موجة مباركة من الاستكشافات النافعة ، والبحوث العنيفة
المجدية ، والرغبة الجامحة في محو الجهل ونشر التعليم ، وتأمين
سكان الأرض ضد الأمراض والأوبئة . ولكن المال كان يعوز حاملي
لواء هذه الموجة المباركة في أنحاء الأرض . ومن ثم اعترم ان
يظهر هؤلاء المتطوعين لخدمة البشرية لا باحتكارهم ، كدابه في
اعماله التجارية ! وانما يبددهم بالمال الذي يحتاجونه .

وها انا وانت اليوم نحمد لروكفلر المعجزات التي حققتها
« البنسلين » وعشرات غيره من العقاقير التي ساعدت امواله
على استكشافها . وانك لتستطيع الآن ان تحمد لروكفلر ان وقى
اطفالك شر الحمى الشوكية ، ذلك الداء اللويل الذي كان يقتل
اربعة من كل خمسة يصابون به . وتحمد له الجهود المبذولة
الآن لصد غائلة الملاريا ، والسل ، والانفلونزا ، والدفتريا ،
وعشرات غيرها من الأمراض والأوبئة التي مازال العالم يعاتبها .
وماذا عن روكفلر نفسه ؟ اتراه حين تخلى عن المال عاوده
السلام ، والأمان ، والاطمئنان ؟ . لقد كتب « الآن نيفينز »
يقول : « اذا كان العالم يعتقد ان روكفلر ، بعد عام ١٩٠٠ ،
مبخر محزون مرتاعا للثغمة المصبوبة على شركة ستاندارد أويل
فالعالم ولاشك مخطيء في اعتقاده » ! .

لقد أحس روكلر بالسعادة ، ولم يعد للقلق سلطان عليه ، حتى أنه استطاع أن ينام ملء جفنيه في الليلة التي سمع فيها بأكبر هزيمة إذ حكم عليها بأن تدفع أكبر غرامة عرفها التاريخ ! . ذلك أن حكومة الولايات المتحدة رأت أن عرفها التاريخ ! . ذلك أن حكومة الولايات المتحدة رأت أن شركة ستاندارد أويل ، قد تحولت الى شركة احتكار . الأمر الذي يخالف القانون ، فاقامت عليها الدعوى أمام القضاء ولبثت القضية معروضة على القضاء خمس سنوات الى أن خسرتها شركة ستاندارد . وحين نطق القاضي « كينسون مارتن لانديس » بالحكم خشى محاموا الشركة أن يصاب روكلر بصدمة عنيفة حين يسمع به ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون مدى التغير الذي وصل اليه روكلر واتصل به أحد المحامين في تلك الليلة ، تليفونيا ، ونهى اليه ما انتهت اليه القضية مهونا عليه الأمر بقدر ما يستطيع ، وأخيرا قال له : « وكل أملى الارتاع لهذه النتيجة ، والا يستعصى عليك النوم بسببها » ، وجاءه صوت روكلر يقول : « لا تقلق بالك على يا مستر جونسون ، فأننى اعتزم أن أنام ملء جفنى هذه الليلة ، طاب مساك » ! .

نعم ! صدر هذا الكلام من الرجل الذى لزم الفراش يوما لأنه بدد ١٥٠ دولارا ! حقا استغرق قهر القلق وقتا طويلا من جون روكلر ، ولكن تغلبه على القلق أجدها : كثيرا . فقد كان المتوقع له أن يموت في سن الثالثة واخمسين . ولكنه عاش حتى بلغ اثالثمة والتسعين .

مطالعة كتاب عن الفريزة الجنسية

انقذ زوجي من الفشل

بقلم : ر . ب . و

كنت أود أن أضع اسمي كاملا على هذه القصة ولكنها — كما سوف ترى — قصة شخصية الى حد يوجب أن يظل اسمي في طي الكتمان ، وأن كان « في وسع ديل كارنيجي » أن يقسم على صحتها ، فقد حذاه بها قبل اثنتي عشر سنة .

عقب تخرجي في الجامعة ، حصلت على عملي باحدى المؤسسات الصناعية الكبرى ، فلما انقضت على التحاق بالعمل خمس سنوات أرسلتني ادارة المؤسسة عبر الاطلنطي لأمثلها في الشرق الأقصى . وقبل أن أبارح أمريكا بأسبوع ، تزوجت من أجل والطف فتاة صادفتها في حياتي . . ولشد ما كانت فجيعتي حين انجلت « شير العسل » عن خيبة مريرة لنا كلينا — ولزوجتي على الخصوص ! فما كدنا نصل الى جزيرة « هاواي » حتى كانت الخيبة قد أمضت زوجتي ، لدرجة أنها أوشكت أن تخاطر بالعودة الى أمريكا ، وأن تصارح لداتها ومعارفها ، في غير خجل بأنها فشلت في امتع مغامرات العمر ! .

وعشنا في الشرق سنتين حائلتين بالشقاء . بلغت بي التعاسة فكرت معه في الانتحار أكثر من مرة ثم في ذات يوم وتمعت على كتاب غير مجرى حياتي تماما .

فقد كنت منذ حدثتي ، من هواة الكتب ، وفي ذات ليلة كنت أزر احد اصدقائي الأمريكيين ، حين رأيت في مكتبته الأنيفة كتابا

عنوانه « الزواج المثالى » تأليف الدكتور فان دى نيلد (١) ، ولاح لى كان العنوان ينطوى على كثير من المبالغة ، او التفاؤل على الأقل ولكنى بدافع حب الاستطلاع ، تناولته وتصفحته ، فلقبته يتناول بالبحث الناحية الجنسية للزواج على وجه الخصوص .. ويتناولها فى صراحة بعيدة ، فى الوقت نفسه ، عن الابتزال والمجون .

ولو أن احدا ، من حدثته نفسه أن ينصح لى بقراءة كتاب عن الناحية الجنسية لجرح كبريائى ! فلقد بلغت حدا من المعرفة يمكننى من اضع كتابا ! ولكن الشقاء الذى كان يسربل حياتى الزوجية ، دفعنى دفعا الى قراءة هذا الكتاب ، فجمعت اطراف شجاعتى ، وسألت صاحبه ان يعيرنى الكتاب ايما .

وانى لأقرر مخلصا أن مطالعتى هذا الكتاب كانت حدثا جلا من احداث حياتى . وقراته زوجته كذلك ، فأحال هذا الكتاب زواجنا الفاشل الخائب الى رفقة سعيدة مباركة .

ولو اننى امتلك مليون ريال لا تريت حقوق نشر هذا الكتاب ، ووزعت نسخة مجانا بالآلاف على الشباب والشابات الراغبين فى الزواج .

ولقد قرأت ذات مرة أن الدكتور « جون واطسون » : العالم النفسانى المعروف ، قال : « الغريزة الجنسية هى بغير منازع اقوى مقومات الحياة ، واليه يرجع معظم الشقاء الذى يعانیه انبشر رجالا ونساء » .

واذا لم ينطوى قول الدكتور واطسون على الحق المطلق ، فهو على الأقل ينطوى على معظم الحق .

Van de, "Ideal Marriage. ,

وقد نشرت مكتبة الخنجى هذا الكتاب .

وان شئت أن تعلم ما يحف بالزواج من اخطاء ، فاقرا كتاب « خطأ الزواج ؟ » مؤلفيه الدكتور « ج ف . هاملتون » ، و « كينيث ماكجون » (١) فقد أمضى الدكتور هاملتون أربع سنوات يبحث في اخطاء الزواج قبل أن يؤلف كتابه هذا ، وهو يقول : « من الحقائق التي لا تقبل الشك أن مرد الخيبة في الزواج الى عدم التوافق الجنسي ! وصحيح ان ثمة صعوبات أخرى تعتور طريق الزواج ولكن هذه كلها لا تنال من صرح الزواج بقدر ما ينال عدم التوافق الجنسي بين الزوجين » .

وانا أعلم أن ما يقوله الدكتور هاملتون هو الحق . أعلم هذا من التجربة المريرة التي مرت بها ! :

* * *

والآن وقد أنتهيت من قراءة هذا الكتاب ، اقترح عليك أن تبعث قراءته مرة أخرى ، وان تضع خطأ تحت المبادئ والقواعد التي ترى انها قد تعينك على حل مشكلاتك ثم ادرس هذه المبادئ واستخدمها واعلم اخيرا أن هذا ليس كتابا للتسلية وقتل الوقت وانما هو مرشد عملي مهمته تسديد خطاك في طريق الصحة والسعادة ، والنجاح .

Dr. J. V. Hamilton and Kenneth Mac (1)
Gowan, "What is with marriage .».

وقد نشرت مكتبة الخاتجي هذا الكتاب .

فهرس الكتاب

- ٣ مقدمة الطبعة السادسة عشر
٥ لمحات من حياة كارنيجي
١٢ مقدمة العرب
١٧ كيف كتب هذا الكتاب — ولماذا

الجزء الأول

حقائق أساسية ينبغي ان تعرفها

- ٢٤ الفصل الأول : عش في حدود يومك
٢٧ الفصل الثاني : وصفة سحرية لتبديد القلق
٤٥ الفصل الثالث : ماذا يصيبك من القلق

الجزء الثاني

الطرق الأساسية لتحليل القلق

- ٥٩ الفصل الرابع : كيف تحلل أسباب القلق وتزيلها
الفصل الخامس : كيف تطرد خمسين في المائة من القلق
٦٨ المتعلق بعملك
٧٤ تسعة اقتراحات للحصول على أقصى فائدة من هذا الكتاب

الجزء الثالث

كيف تحطم عادة القلق قبل ان تحطمك

- ٧٨ الفصل السادس : كيف تطرد القلق من ذهنك
٨٩ الفصل السابع : لا تدع الهوام تغلبك على أمرك
٩٧ الفصل الثامن : استعن بالأحصاءات على طرد القلق
١٠٥ الفصل التاسع : ارض بما ليس منه بد
١١٧ الفصل العاشر : اجعل للقلق حدا أقصى
١٢٥ الفصل الحادي عشر : لا تحاول ان تنشر النشارة

الجزء الرابع

سبع طرق لخلق اتجاه ذهني يجلب لك الطمانينة والسعادة

- الفصل الثاني عشر : حياتك من صنع أفكارك . . . ١٣٣
الفصل الثالث عشر : الثمن الباهظ للتفاصيل . . . ١٥٠
الفصل الرابع عشر : لا تنتظر الشكر من احد . . . ١٦٠
الفصل الخامس عشر : هل تستبدل مليون ريال بما تملك ؟ ١٦٦
الفصل السادس عشر : أنت نسيج وحدك . . . ١٧٢
الفصل السابع عشر : اصنع من الليمونة المالحه شرابا حلو ١٨٢
الفصل الثامن عشر : كيف تبرأ من السوداء في اسبوعين ١٩١

الجزء الخامس

القاعدة الذهبية لقهر القلق

- الفصل التاسع عشر : كيف قهر ابي وامى القلق . . . ٢٠٧

الجزء السادس

كيف تتجنب القلق الذى يسببه لك النقد

- الفصل العشرون : بقدر قيمتك يكون النقد الموجه اليك ٢٢٢
الفصل الحادى والعشرون : كن عصيا على النقد . . . ٢٢٨
الفصل الثانى والعشرون : حماقات ارتكبتها . . . ٣٣٧

الجزء السابع

ست طرق تقيك الاعياء والقلق وتحفظ لك شبابك وحيوتك

- الفصل الثالث والعشرون : كيف تضيف ساعة الى ساعات يقظتك . . . ٢٣٧
الفصل الرابع والعشرون : كيف نتخلص من التعب . . . ٢٤٢
الفصل الخامس والعشرون : ايتها الزوجات : تجنبين التعب تحتفظن بشبابكن . . . ٢٤٧

صفحة

- الفصل السادس والعشرون : التزم في عملك هذه العادات
الأربع تتق الاعياء والقلق . ٢٥٤
الفصل السابع والعشرون : كيف تتخلص من السأم . . ٢٥٧
الفصل الثامن والعشرون : كيف تتجنب القلق الناشئ
الفصل الثامن والعشرون : كيف تتجنب القلق الناشئ
عن الأرق ٢٦٢

الجزء الثامن

كيف تحصلى على العمل الذى يلائمك

- الفصل التاسع والعشرون : القرار الحاسم فى حياتك . . ٢٦٧

الجزء التاسع

كيف تزيل متاعبك المالية

- الفصل الثلاثون : سبعون فى المائة من القلق تسببها المتاعب
المالية ٢٧٢

قصص واقعية يروى أبطالها كيف قهروا القلق

- هاجمتى المصائب مجتمعة : بقلم س.ا. بلا كورد . . ٢٨٢
استطيع ان اتحول الى رجل سعيد : بقلم روجر بابسون . ٢٨٥
كيف تخلصت من مركب النقص : السناتور توماس . . ٢٨٦
عشت فى جنة الله . بقلم ر.ن.س. بودلى ٢٩٠
كما احتلمت بالأمس احتمل اليوم : بقلم دوروثى ديكس . ٢٩٣
كنت واحدا من أكبر المغفلين : بقلم برسى هوايتنج . . ٢٩٤
احتفظت بطريق التموين مفتوحا بقلم : جين اوترى . . ٢٩٦
عندما طرق العمدة باب بيتى : بقلم هومر كورى . . ٢٩٩
كل بدوره ايها السادة : بقلم هومر ميللر ٣٠٢
كيف عاش جون روكفلر سنوات عمره ٣٠٣
مطالعة كتاب عن الغريزة الجنسية أنتد زواجى من الفشل ٣١٠